

حراس البوابة الشرقية

الطبعة الثالثة

الجيش العراقي من حرب
(تشرين أول) أكتوبر الى
حرب الشمال

مقدمة

بعد متابعتي لحرب أكتوبر على جبهة قناة السويس من خلال عملي كمراسل حربي ، سافرت بعد ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ الى الجبهة السورية لاعداد تحقيقات صحفية عن المعارك التي دارت هناك ، واثناء لقاءاتي بالمقاتلين السوريين كانوا يتحدثون عن الدور الذي قامت به القوات العراقية في وقف الهجوم الاسرائيلي المضاد ، وعملية التنقل الهائلة التي قامت بها وحدات الجيش العراقي من بغداد الى دمشق عبر طريق يزيد طوله عن الف كيلو متر ، غير ان تفاصيل المعارك التي خاضتها وحدات الجيش العراقي لم تتوافر لي وقتئذ ، وذلك لعودة الجيش الى العراق بعد وقف اطلاق النار .

ثم لاحظت من خلال متابعتي لما كتب عن حرب أكتوبر ندرة ما ذكر حول دور الجيش العراقي ، ووصل الامر الى حد يشبه التعتيم الاعلامي ، لا أدري مصدره أو المستول عنه ، كما لاحظت أيضا عدم وضوح هذا الدور بالنسبة للاذهان ، لدرجة أن البعض - سواء من العسكريين بين العرب أو المواطنين العسادين - لم يكن يدري الحجم الحقيقي للقوات العراقية التي عملت في الجولان أو الدور الذي قامت به ، من هنا لم اتردد عندما سمحت الظروف بمحاولة الوقوف على حقيقة الدور الذي لعبه الجيش العراقي في حرب أكتوبر ، وبدأت اتجه الى الانسان موضوع بحثي المستمر ، ثم الوثائق ، ثم الكتب))

وهكذا بدأت رحلة بحث بهدف استكشاف دور الجيش العراقي في حرب أكتوبر ، وكنت ابدا أكثر من رحلة في وقت واحد على أكثر من مستوى ، عندما بدأت الرحيل ، كنت اتجه الى الرجال وهم يخوضون حربا ، لم أكن ارحل للقائهم في معسكرات تدريب أو مواقع آمنة)) ما كنت اتحدث الى الضباط في مواقع قياداتهم الآمنة بالمدن ، أو معسكرات التدريب . انما اتجهت اليهم فوق قمم الجبال وفي المناطق الوعرة بشمال العراق ، كانوا يخوضون قتالا من نوع آخر ، من أجل وحدة العراق الوطنية ، وتطبيق الحكم الذاتي . قتال ضد قوى التخلف والرجعية . وهكذا تمضي الخطوط متوازية :

- البحث عن دور الجيش العراقي في حرب أكتوبر (تشرين الأول) ، ليس من خلال الوقائع الموثقة ، انما من خلال البشر الذين خاضوها .
- وصف للعمليات العسكرية التي خاضتها وحدات الجيش العراقي ضد الجيش الكردي العميل ، وخاصة أن أحداثا حاسمة وقعت أثناء رحلتي تلك ، منها وقف اطلاق النار في مارس الماضي ، وانتهاء التمرد الى الابد .

- بحثى عن جذور المشكلة الكردية ، وتطوراتها ، وابعادها ،
- رحلة فى المكان ، شمال العراق بجماله الاسطورى . وبدائية جباله ، وروعة ثلوجه ، هذا المكان الذى يمثل الاطار بالنسبة لموضوعات بحثى .

كل هذه الخطوط تمضى فى اطار رحلتى ، لا يخضع الكتاب لترتيب الاحداث وفق تسلسلها الزمنى والتاريخى ، بقدر ما يخضع لواقع ولحظة اكتشافها بالنسبة لى فى الرحلة ، من هنا لم تخضع للترتيب الزمنى التقليدى ، كما حرصت على تسجيل الحقائق والانطباعات ، والانفعالات التى تصفى على الحدث المحدود ، واللحظة العابرة عمقا وشمولا ، وهكذا يكتشف القارىء معى الحقيقة شيئا فشيئا . تلك الحقيقة التى ارجو ان اكون قد سجلتها كما رايت وسمعت ، وكما عشتها ، لقد تعلمت من تجربتى كمراسل حربي ، ان التفاصيل تضيع ان لم تدون ، وفى الحرب تنزف دماء المقاتلين ائمن ما وجود به الانسان ، لكن كثيرا ما تبقى آلاف الاحداث الصغيرة والكبيرة مجهولة ، وواجب الكاتب ان ينقب عما اذاه ابناء وطنه ، وهذا ما حاولته اثناء متابعتى لقتال وبطولات المقاتل المصرى على جبهة قناة السويس منذ عام ١٩٦٨ . وحتى اكتوبر (تشرين) ، ثم متابعتى للمقاتل السورى خلال حرب اكتوبر (تشرين) . وهذا الكتاب يقدم تلك المحاولة من اجل تتبع الدور الذى قدمه المقاتل العراقى فى حرب اكتوبر (تشرين) ، وحرب تصفية الجيب العميل ، وما ارجوه مستقبلا ان اتمكن من متابعة الدور الذى قام به الانسان العربى المقاتل ، ضد الصهيونية والاستعمار والتخلف .

جمال الغيطانى

القاهرة ٢٩/١٠/١٩٧٥

إلى
شهداء الجيش العراقي في :
سيناء
الجولان
شمال العراق

المحور الأول :
بداية الرحيل : أول فبراير ١٩٧٥
دريندى خان ، الجــــــولان

شيئا فشيئا بدأت طائرة الهليكوبتر ترتفع عن الأرض ، مال جسم الطائرة قليلا ، وبعد استدارة خفيفة اتخذت وجهتها الى الشرق ، بدأ ظل المروحة دائرة ضخمة منتظمة ، تضاءلت منشآت القاعدة الجوية ، من خلال الواجهة الزجاجية للطائرة بدأت تظهر اطراف ثوب ضخيم شاسع من قטיפعة خضراء يكسو الأرض ، لون اخضر يغمق حينما ويزهو في مواضع أخرى ، يتحرك ظل الطائرة بطيئا ، يختفى لحظات طبقا لموضعها من الشمس التي لا تزال في بداية رحلتها اليومية ، في المقدمة الى جوار الطيار يجلس قائد احد التشكيلات العسكرية العراقية . طويل القامة ، أسمر ملامحه عربية أصيلة ، في المقاعد المجاورة جلس عدد من المقاتلين العراقيين ، ملامحهم العربية المحددة تستدعي الى الذهن ملامح أصدقاء عسكريين مصريين عرفتهم في جبهة السويس ، لا يكشف الفارق الا ايقاع اللهجة المحلية التي تختلف بين بلد وآخر ، كما تختلف اللهجات بين مدينة وأخرى داخل القطر الواحد ، ان السمات الخارجية للعسكرية العربية متشابهة تماما . وبمنظرة أعمق ، وبعد معايشة أطول تكتشف التشابه الداخلي أيضا ، لاحظت ان القائد العراقي يوجه الطيار ، يده تحدد الاتجاه . تتحرك الطائرة تبعا لآثاره ، يقوم بدور الملاح الجوي ، تحتنا بدأت التجاعيد الأرضية ، مررنا فوق قريتين عراقيتين ، تطلع السكان الى أعلى ، جرى بعض الصبية ملوحين بأيديهم ، في فناء احد المنازل أسرع دجاجات بتأثير صوت الطائرة ، أخاديد ، فجوات عميقة ، انتهى استواء الأرض ، شكلها يوحى بعدم وجود الانسان ، نبدأ الطيران فوق جبال خضرين ، سلسلة من المرتفعات الجبلية المتوسطة لا يزيد ارتفاعها عن ٥٠٠ قدم ، تمتد بين نهر سيروان بايران ، وحتى دجلة غربا بموجات متتابعة من الصخور كأنها أمواج بحر تجمدت . يميل التموج الى استدارة فكانها قباب ناقصة اتصل بعضها ببعض تغطيها حينما وتتعري حينما آخر ، يخلو الجبل من أي علامات صنعها الانسان ، نفس المشاهد التي انطبعت في احداق أجدادنا الأوائل ، كان الزمن توقف عند بدزية العالم . من هنا يبدأ تساؤل حول معرفة القائد لطريق الطيران ؟ لا ترى أي علامات تمييز ، الا اذا اعتبرنا خفة اللون في موضع وقتامته ففي مواضع أخرى آثار ودلائل ، تتبعت ملامح وجهه ، وجوه المقاتلين المحيطة بي ؛ بعضهم يحملق الى السماء حيث الغيوم قليلة متباعدة ، بيضاء ، قائمة الحواف ، تهدد ضوء الشمس لحظات ثم تنأى عنه ، نذكر احد الصيادين في البحر الأحمر اثناء عودتنا من جزيرة شدوان عام ١٩٧٠ ، كان الليل شتويا والنجوم لا تفصح عن نفسها بسهولة ، والقارب يتجه بثقة الى جهة محددة ، يعلو الصوت لحظات اذ يأمر بتغيير الدفة يمينا ، أو شمالا . تساءلت : كيف يعرف الطريق الى ظلمة البحر ؟ عرفت انها المعايضة الطويلة للمكان ، ينظر الى الماء فيعرف اتجاهه ، كان يرى فيه اشارات وعلامات لا يدركها الا هو ، بتجربته الطويلة ، وذكائه الحاد . أعود الى وجوه الجالسين حولى ، تلك السمات الخاصة بمن يحملون مسئولية القتال والاشتباك والدفاع والهجوم ، هدوء عميق يعكس

القدرة على اتخاذ القرارات بلا عصبية ، أو انفعال طارىء ، اشارات يد القائد مستمدة من ذاكرة صاغتها الحرب ، المخاطر ، يمرق ظل الطائرة فوق بناء حجري، منتظم ، من صنع الانسان ، نصب تذكاري بجانب قبور الأتراك والانجليز الذين قتلوا خلال الحرب العالمية الأولى ، ويبقى هذا النصب الحجري شاهداً آخرس على ما جرى ، أنه معرض للعرء ، للثلوج ، لعيون قليلة نادرة يتطلع أصحابها من طائرة عابرة أو راجلين متجهين لاداء مهمة ما لا تتعلق حتما بهذا الشاهد الحجري ، ربما لا يدرون ما هو ، لماذا اقيم ؟ وقد لا ينتبه اليه أحد .

مرة أخرى تشير يد القائد ، ويستدير جسم الطائرة ، احدى صفات المقاتل الجيد معرفته بطبيعة الأرض التي تتحرك أو تتمركز عليها قواته . تتجسد قيمة هذا عند ادارة معركة ، أو دفع تشكيلات عسكرية الى سنان معين ، أو التصدى لهجوم معاد ، اذا اغمض عينيه تبدو في ذهنه كل التضاريس ، القنوات ، العوارض ، الطرق والمنحنيات ، يقلل هذا من عامل المفاجأة الذي قد يلجأ اليه العدو ، انه يعرف أرضه تماما ، تلك التجاعيد والشقوق النحيلة التي تتخلل اللون الأخضر ، والتي تبدو كتعاريج بنبة اللون فوق ورقة شجر ، أيضا تلك الأشكال التي تبدو من أعلى وكأنها لوحات تجريدية رسمها فنان غامض ثم اختفى ، تنوعات اللون ، كل هذا يعنى بالنسبة له علامات ، وملامح ، تدله الى هدف ، أو موضع ، ربما يدركها بلا وعيه أكثر مما يدركها بعقله .

فوق هضبة مرتفعة ، بدأ أول اثر انساني متكامل في وسط تلك المساحة الضخمة من المرتفعات والصخور الموحشة ، والوحدة ، والصمت الذي يبدو مرثيا ، لا ينفيه هدير الطائرة العارض ، العابر ، الذي ندرك أننا مصدره . فوق أرض وعرة ، بدت مساحة من الأرض شبه مستطيلة سوتها الأيدي ، تحفها أكياس أعرفها جيدا ، انها محشوة بالرمال ، وربما تكون هنا محشوة بشيء آخر ، لكنها دائما تمثل الحد الذي يركز اليه ، يحتفى به المقاتل أملا في حمايته من شظية ساخنة ، أو رصاصة تبحث عن مستقرها في الجسد ، يعتمد عليه في امتصاص الطلقات التي تستهدفه ، فوق تلك الأكياس عدد من البطاطين رمادية اللون معرضة لاشعة الشمس ، في الوسط بناء شبه مربع ، جنود الجيش العراقي ، ترتفع الأيدي ملوحة ، بعضها يقبض على مدافع رشاشة سريعة ، جالت عيناي بسرعة ، لمحت بعض مدايق الميدان المتوسطة على أجناب الموقع ، ومدفعا رشاشا وحيدا فوق صندوق خشبي مربع ، لا بد أن صاحبه يقضى حاجة ، أو ينظفه ، انخفضت الطائرة ، دارت حوله ، أرتفعت يد القائد بالتحية ، وأيدي المقاتلين ، وبدأ الموقع فوق الهضبة الصخرية المائلة كالمقعد فوق ظهر البعير ، وتستمر الطائرة متجهة الى الشرق ، استعيد بعقلى المواضع التي يربط فوقها الجنود ، كيف يمر الليل عليهم ، أى أصوات يسمعون ، كيف يصعدون هذا المنحدر القاسي ، كيف تمضى أيامهم ، ما هي العبارات التي سيتبادلونها بعد مرور الطائرة ، سريان الدفء المعنوي في أرواحهم ، بعد أيام أدركت الرد العملى على جميع ما تردد في روحى من تساؤلات ،

طرنا فوق موقع آخر ، أكبر حجما ، جنوده أكثر عددا ، لمحت ثلاث دبابات
طلاؤها أخضر ، وأرجأت استفساري عن كيفية صعودهم هذه القمة التي
أشعر بانحدارها الشديد من الطائرة .

يطلق العسكريون العرب في العراق على هذه المواقع اسم «الربايا» ،
أعلى المواضع في الصخور ، تتحكم في المناطق المحيطة بها ، أن القادة هنا
لا يعرفون طريقهم فقط فوق تلك المناطق المتشابهة الملامح ، لكنهم يحفظون
مواقع جنودهم أيضا ، وهم حريصون على ألا يفوتهم المرور فوقها جميعا «
إلى اليسار تبدو منطقة مرتفعة ، صخرية ، اسمها (زين القوس) ، شهدت
حوادث هامة واشتباكات عنيفة بين رجال الجيش العراقي وزمرة التمرد
والقوات الأجنبية المساندة لها . بعد طيران ما يقرب من نصف ساعة نرى
منشآت مدنية : أكشاك ، بيوت من طابق واحد ، عربات نقل .

« النفط خانة » :

وسط الخضرة ، الاتساع اللانهائي ، تتوهج شعلات النيران الناتجة عن
احتراق الغاز الطبيعي ، بقع صفراء متوهجة على وجه النهار المستقر فوق
بساط من الخضرة هنا ، من بعيد تبدو شعلات ضعيفة في حجم نيران أعواد
الثقاب ، حقل البترول الإيراني ، نفط شاه ، يواجه الحقل العراقي ،
تستدير الطائرة مولية ظهرها لشعلات البترول ، تبدو صخور بنية تختلط
فيها ألوان صفراء ، حمراء ، سوداء ، يتوالى ظهور الربايا ، تتقارب المسافات
فيما بينها بسرعة ، انها المواقع الأمامية ، الحدودية ، بينما يبدو طريق
ترابي طويل يمشي متخللا الصخور ، يحفه خط أبيض ، تتتابع الربايا ،
بعدها لا يمكن الحركة إلا في إطار ظروف خاصة ، انها الحدود ، وهؤلاء
حراسها ، وفي الجانب الآخر كان باستطاعتنا رؤية مخافر الحدود
الإيرانية ، الحدود التي نظير بمحاذاتها ، ليست حدود العراق وحده ،
تلك حدود الأمة العربية والوجود العربي ، وهؤلاء الرجال الذين نصحبهم ،
ونراهم في تلك الأماكن المعزولة القاسية ، هم حراس الحدود الشرقية
للأمة العربية .

ويستمر هدير الطائرة ، نعبير مدينة خانقين ، نظير فوق الشوارع
الرئيسية بالبلدة ، نبعد الآن عن مدينة بعقوبة ، مركز محافظة ديالى ،
(١٠٨ كيلو مترات عن بغداد) نتجه إلى مخفر « المنذرية » ، آخر الحدود
العراقية العربية الشرقية ، باستطاعتنا رؤية بناء حجوي قريب ، مخفر
الشرطة الإيرانية المسمى (خسروي) ، من إيران يتدفق نهر الوند ، يخترق
مدينة خانقين ، المباني محددة ، نظيفة ، متشابهة الطراز ، تتبع الشركة
الوطنية للنفط ، يلوح الجنود ، الملح ابتساما على وجه جندي عراقي ، انهم
مرايطون حول بقايا قلعة قديمة تبدو كبصمة تبقت من التاريخ القديم على
المكان الجبلي ، يعود تاريخها إلى عهد الساسانيين .

تتنوع الصخور والألوان ، نقترّب من بعض الأماكن التي يربط بها
بعض المتمردين الأكراد ، انها مناطق قريبة من الحدود الإيرانية ، محدودة ،

تمر الطائرة فوق قرى كردية ، المح البيوت المتسعة ، بعض شباب الاكراد يلوح للطائرة ، للقرية الكردية شكل متميز سواء طالتها من الطائرة أو من الطريق ، أو مشيت خلال شوارعها ، كثيرا ما تبدو القرى وكأنها تلوذ بحضن الجبل ، أو تلتمس الحماية من الصخور ، ان الظروف التي تبنى فيها القرية ونظامها يمنحها هذا الشكل المتميز ، فالبيوت عادة تبنى على موقع مرتفع من الارض ، تبدو كأنها بنيت فوق بعضها البعض ، أو شيد كل بيت على درجة نعلو الأخرى ، يرجع هذا الى انحدار المرتفعات الجبلية ، واختيار هذه المواقع لا يرجع الى أسباب اقتصادية بقدر ما يرجع الى تحقيق الحماية من اخطار الطبيعة والانسان ، المناخ الجبلي وعمر بما يحفل به من رياح باردة ، وأمطار ، وثلوج ، وتحقق الحماية من الرياح الباردة ، بينما تدفن ظهورها المواجهة للرياح الباردة الى النصف تقريبا وهذه التصميمات الهندسية تكمن وراء تلك السمات الخاصة بالقرية الكردية ، ولا يخلو التصميم الهندسي من طبيعة حربية ، ان المدرجات التي يعلو كل منها الآخر طبقا ليل المنحدر تنقص كلما تدرجت الى أعلى ، وهكذا تأخذ القرية شكلا هرميا ، قاعدته بالقرب من الوادي ، وقمته أو رأسه في منتصف المنحدر ، وعادة يمتد طريق عريض وسط القرية يقسمها الى نصفين ، يصل بين الوادي وقمة المرتفع ، ان ازقة القرى ضيقة لكنها مستقيمة ، حادة ، تفصل بين مجموعات البيوت المتجاورة ، ويمكن من خلال أعلى البيوت رصد الطرق المحيطة الى مسافات بعيدة ، والتصدي لأي هجمات ، تلك هندسة القرى الكردية الجبلية التي رايناها من الطائرة ، أو زرناها فيما بعد ، ويبدو ان تلك التصميمات نتاج ظروف تاريخية طويلة نتيجة للاضطراب التي سادت المناطق الكردية خلال فترات طويلة . تتعاقب القرى يتطلع الرجال الى أعلى ، يجري صبية صغار ، ويلوح طفل بكراسة أو كتاب ، وعلى مسافات متفاوتة خارج القرى تلمح قطعان الأغنام ، تتفرق ، تعدو بتأثير الطائرة التي تطير على ارتفاع منخفض ، كما يعرف الرجال ملامح طريقهم ومواقع الريايا ، فانهم يعرفون أيضا القرى الكردية التي يقاتل رجالها دفاعا عن الحكم الذاتي ضد الملا مصطفى البرزاني والتمردين معه ، أيضا يعرفون المواضع التي يكمن فيها الخطر ، لدى التمردين أسلحة متقدمة لمقاومة الطائرات ، بعضها أمريكي ، وبعضها انجليزي ، واسرائيلي ، وهيلوكبتر صغيرة تطير على ارتفاع معين ، وبسرعة محدودة ، هدف مفر بلاشك .

ثمة تغيير طرا على حركة الطائرة .

الشنقوق الأرضية تضيق ، المساحات الخضراء تصبح أصغر ، الافق يمتد ، الظل اختفى من فوق الأرض ، كما لو توقفنا ، ترتفع الطائرة ، تطلعت الى وجوه المقاتلين حولي ، لعلى أرى انعكاس الموقف على ملامحهم ، السمات لا تهتز ، الاهداب متقاربة ، متطلعة ، بينما تقبض يد الطيار على يد صغيرة مستديرة الرأس ، نفس الهدوء الواضح ، تستمر اهتزازات الطائرة وحركتها الرأسية الى أعلى ، كأنها تقاوم قوة غامضة ، خفية ، تشدها الى أسفل ، وتحاول جاهدة الفكك منها ، أعود الى وجوه الرجال ، منذ فترة يتصدون للتمرد الرجعي في شمال العراق ، ومنذ حوالي عام ونصف عام حاربوا على الجبهة السورية ضد العدو الاسرائيلي ، بالتحديد في أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ .

٦ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٣ :

قطعت الاذاعة الاسرائيلية برامجها لتعلن بالعبرية بيانا صادرا عن ناطق بلسان الجيش الاسرائيلي جاء فيه :

((انه ابتداء من الساعة ١٥ ر ٢ ، بدأت القوات المصرية والسورية تهاجم في سيناء ، وفي هضبة الجولان ، وفي الجو ، وفي البحر ، وبعد سلسلة من الغارات الجوية على مواقعنا ، وعلى معسكراتنا بدأت قوات المشاة المصرية بهجوم بري ، فقد عبرت قوات مصرية قناة السويس في أماكن عدة ، أما القوات السورية فقد بدأت بهجوم مدرعات ومشاة على طول الخط في جبهة الجولان ، وتعمل قوات الجيش الاسرائيلي على مواجهة المهاجمين ، وتدور على الجبهتين معارك في البحر والبر .))

كانت سورية قد بدأت القتال بتنسيق ، سبق الاعداد له بعناية مع القيادة المصرية ، وفي تمام الساعة الثانية وخمس دقائق اقلعت الطائرات العربية من مصر وسوريا في توقيت واحد لضرب اهداف العدو في سيناء والجولان ، من سوريا اقلعت حوالي مائة طائرة لتضرب الحشود والاهداف الرئيسية في سهل الحولة وهضبة الجولان ، في نفس اليوم بدأ السوريون هجومهم البري عندما دفعوا بثلاث فرق مشاة تعززها ٦٠٠ دبابة حديثة من طرازات ٥٤ ، ٥٥ ، و ٦٢ . تقدمت القوات السورية في هجوم خاطف لتقتحم الخندق الاسرائيلي المضاد للدبابات ، والذي امتد على طول الجبهة بعرض ٤ أمتار وعمق ٤ أمتار ، وكان مقاما الى جانبه الغربي - الاسرائيلي - سائر ترابي لمنع الدبابات من التقدم الى جانب حقول الغام واسلاك شائكة ، نجحت القوات السورية في اقتحام الخندق وبقية الدفاعات الاسرائيلية ، ومن اجل فهم طبيعة العمليات العسكرية على الجبهة السورية وما سيقوم به الجيش العراقي يحسن استعراض وضع الجبهة السورية .

ان الجبهة لا تمتد في خط مستقيم ، كانت القوات السورية تواجه العدو عبر خط متعرج يبلغ طوله ٧٠ كيلو مترا ، تتخلله سلسلة جبال وعرة ، صخرية ، حادة الارتفاع ، وهي ما يعرف باسم هضبة الجولان ، وتنقسم الجبهة الى ثلاثة قطاعات ، القطاع الشمالي ، والقطاع الاوسط ، والقطاع الجنوبي ، اكثرها وعورة الشمالي ، تمتد فيه سلسلة جبال الحرامون التي تضم جبل الشيخ ، تبدأ مرتفعات الجولان جنوب تل أبو الندا الصخري ، يليه تل الفرس ، على سفح أبو الندا تقع مدينة القنيطرة ويتخلل هذه المرتفعات القطاع الاوسط ، اما الجنوبي الذي ينتهي بالحدود مع الاردن فتجد أرضه منبسطة سهلة ، والى الغرب في هذا القطاع تمتد مرتفعات الجولان ، وتنتهي عند بحيرة طبرية .

(بعد عام ١٩٦٧ ، ركزت القوات الاسرائيلية على تدعيم مواقعها في القطاع الشمالي من الجبهة لما يمثله من أهمية استراتيجية بالنسبة للجبهة .

السورية كلها ، لو احتلته القوات السورية سيتمكنها من الانحدار جنوبا لتلتف حول خطوط الدفاع الاسرائيلية في القطاعين الاوسط والجنوبي مع ما سترتب عليه من مضاعفات أخرى ستشمل تهديد شمال فلسطين المحتلة ، وسهل الحولة ، والجليل الاعلى ، بالإضافة الى السيطرة على مصادر المياه التي تصب في نهر الاردن ، ومن الناحية التكتيكية يعطى هذا القطاع القوات الاسرائيلية القدرة على الحركة والمناورة ، فهي أن أرادت اتباع مبدأ لهجوم ، تكون الاوضاع مهيأة لها ، وهي أن أرادت الدفاع فسيكون بمقدورها ذلك لان الوضع في هذا القطاع يعطيها نوعا من السيطرة على القوات السورية العاملة في مواجهتها ، ويمكن للقوات الاسرائيلية تهديد دمشق ، والقطاعين الاوسط والجنوبي اذا ما لجأت الى مبدأ الهجوم ونجحت في تنفيذه) . (١)

وهكذا اندفعت القوات السورية من خلال هجومها في الجولان على ثلاثة محاور رئيسية :

● المحور الشمالي : خان أرنبية ، الحميدية ، المنصورة ، واسط . واستهدف الهجوم على هذا المحور تطويق القنيطرة من الشمال ، والتقدم باتجاه الغرب في القطاع الشمالي باتجاه بانياس .

● المحور الاوسط : كودنا ، الجوزيرة ، كفر نفاخ . واستهدف الوصول الى مقر القيادة الاسرائيلية في كفر نفاخ ، ومن ثم تنقسم القوات المهاجمة على هذا المحور الى قسمين ، الاول يضم قوات الجهد الرئيسي ، تواصل هجومها غربا باتجاه الحدود مع فلسطين المحتلة ، والقسم الثاني يضم قوات الجهد الثانوي العاملة على هذا المحور ، وتواصل اندفاعها شمالا باتجاه « واسط » للالتقاء بالقوات السورية المتقدمة من الشمال ، لاحكام الحصار حول مدينة « القنيطرة » .

● المحور الثالث - الجنوبي : البطمية ، الجوخدار ، خسفين ، العسال . واستهدف الهجوم على هذا المحور الوصول الى الحمة السورية في القطاع لجنوبي .

منذ بدأ لهجوم بذلت القوات السورية جهدا متصلا لتحرير مدينة القنيطرة ، لكن جميع محاولاتها صدت ، في نفس الوقت كانت القيادة الاسرائيلية قد قررت وقف تقدم القوات السورية في الايام الاولى للقتال ، قبل سيطرتها على نقاط استراتيجية يصعب اخراجها منها ، وقبل تمكنها من القضاء على المواقع الاسرائيلية المنتشرة في هضبة الجولان ، والتي لا تزال تقاوم رغم أن الهجوم السوري قد تجاوزها الى الخلف .

هذا ما جرى في اليوم الاول في الحرب على الجبهة السورية ، وفي بغداد أذيع نباء الحرب من الراديو . وكان هذا هو المصدر الوحيد الذي علم منه العراقيون القادة والشعب والضباط والجنود خبر الحرب ، وخلال لقاءاتي العديدة بالمقاتلين العراقيين ، كان كل منهم يبدأ حديثه

١ - الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية

بجملة لا يخلو مضمونها من عتاب .. (سمعنا نبأ الحرب من الإذاعة ...) .

عتاب أخ الى أخيه ، كيف يجرى عند احدهما حدث كبير ، ولا يطلعه مسبقا ، أو يلمح له ، ليتسنى له الاعداد ، والمشاركة ، أو تهيئة نفسه حتى .

في نفس اليوم سمع المقاتلون العراقيون نبأ عن اجتماع مشترك للقيادتين القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي ، ومجلس قيادة الثورة ، ثم نبأ آخر عن اتصال الرئيس أحمد حسن البكر هاتفيا بالرئيسين ، أنور السادات ، وحافظ الأسد ، مؤكدا لهما مساندة العراق لمصر وسوريا في معركتهما ضد العدو الاسرائيلي ، ويبلغها ايضا بقرار الثورة في العراق ، وضع كافة الوحدات العسكرية للجيش العراقي تحت أمره القيادتين المصرية والسورية ، وفي مختلف تشكيلات الجيش بدأت اجتماعات عسكرية على جميع المستويات . وذلك للاطمئنان الى الاستعداد القتالي للوحدات ، كان ثمة يقين لدى المقاتلين العراقيين انهم سوف يشتركون في القتال ، هذا الاحساس اليقيني استند الى أسس موضوعية منها الموقف السريع الايجابي للقيادة السياسية ، وحالة التأهب التي أعلنت في قطعات الجيش ، والمشاركة الفعلية للقوات الجوية العراقية في المعارك التي بدأت على الجبهة المصرية ، كان الموقف اشبه بشقيق يتعارك ضد معتد عليه ، وشقيقه الآخر يقف بالقرب منه ، لم يدع للاشتراك في العراك بعد ، لكنه يستعد وهو يقف في مكانه ، لم تمض ساعات قليلة على بدء الحرب حتى أعلنت عدة قرارات هامة عن الاجتماع الذي عقد بين القيادتين القطرية والقومية لحزب البعث العربي الاشتراكي ، ومجلس قيادة الثورة ، وتضمنت القرارات :

أولا - تأمين حصة أمريكا من شركة نفط البصرة .

ثانيا - ارسال قوات جوية على عجل الى سوريا .

ثالثا - ارسال أكبر ما يمكن من القطعات العسكرية

البرية الضاربة الى سورية ، وعلى الفور .

كان كل قرار من تلك القرارات يترجم في الواقع الى حركة شديدة ، واستعداد ، وتنقلات ، وجهد بشري يبذل بسخاء . وطلبت قيادة الجيش العراقي من التشكيل العسكري المرابط في محافظة ديالى تجهيز لواء ميكانيكي لأرساله على وجه السرعة الى الجبهة السورية ، ويتولى هذا التشكيل - وقدره فرقة مشاة ميكانيكية مدعومة - حماية الحدود لمسافة طويلة ، انها نفس الحدود التي نظير بمحاذاتها الآن ، ان الواجب الرئيسي للتشكيل في هذا القطاع هو حراسة تلك المسافات الشاسعة ، أما المتمردون الاكتراد فيتواجدون في الشمال الاقصى للقطاع ، ولا يشكل حجمهم خطرا كبيرا هنا ، وفي هذه الفترة لم تكن العمليات العسكرية قد بدأت بعد ، سواء ضد المتمردين أو منهم ، وعندما أصفى رجال هذا التشكيل الى البيان الذي دعا الى إعادة العلاقات الدبلوماسية مع ايران ، لابد انهم شعروا براحة كبيرة ، لانهم سيثفرون تماما للقتال ضد العدو

الصهيوني ، كانت العلاقات الدبلوماسية قد قطعت بين البلدين في كانون الثاني ١٩٧١ بعد احتلال إيران لثلاث جزر عربية في الخليج العربي .
قال البيان :

« ان المعركة التي تخوضها الامة العربية اليوم هي اشرف المعارك ، وهي القضية الاولى التي تتقدم ، بمحتواها التحريري وضمن هذه المرحلة ، كل الاعتبارات الاخرى ، ولما كان العراق يتحمل مسؤولية قومية المعركة فانه يتوجه الى الجارة ايران لاعادة علاقات حسن الجوار والتعاون وحل المشكلات القائمة وفق روح الجيرة ، وروح الروابط الاسلامية التي تجمع بين الشعبين العراقي والى ايراني ومصالحهما المشتركة » .

صحيح ان ايران لا يمكن ان تقدم على عمل مسلح وقتئذ ضد الحدود الشرقية للامة العربية ، ولكن البيان استهدف توفير الظروف التي تمكن حراس تلك الحدود من التوجه نحو الجبهة الشمالية ، سوريا - للقيام بواجب من نوع آخر تجاه الامة العربية في معركتها ضد العدوان الصهيوني . بعد تجهيز اللواء الميكانيكي المطلوب ، واتجاهه فعلا الى بغداد ، جاءت الاوامر من قيادة الجيش العراقي التي بدأ يقود عملياتها وخططها الرئيس احمد حسن البكر ، باعتباره وزيرا للدفاع ، وقائدا أعلى لقوات الجيش العراقي ، قضت الاوامر بتحريك الفرقة بأكملها الى سوريا ، ولأن الفرقة في حالة استنفار وتأهب مستمرين استعدادا لاية اخطار تواجه الحدود الشرقية ، فقد تم اصطاف وتهيئة جميع وحداتها استعدادا للتحرك الى سوريا ، كانت الروح المعنوية عالية جدا ، والجنود يصبحون وبهتفون ، تملؤهم الرغبة في الوصول بسرعة الى الجبهة للاشتراك في القتال ، ولم يكن التحرك الى سوريا يتم عبر طريق سهل ، ان المسافة طويلة ، اكثر من الف متر بين دمشق وبغداد ، تتخلل صحراء وعرة ، وهذا التشكيل والفرقة السادسة المدرعة قادم من الحدود الايرانية ، أي كان عليه ان يقطع اكثر من الف وثلاثمائة كيلو متر ، وبدأت المعادلة الصعبة تواجه قيادة الجيش العراقي :

- نقل هذا العدد الضخم من الدبابات المجنزرات والعربات .
- الوصول في أسرع وقت ممكن الى الجبهة السورية .
في غرفة العمليات الرئيسية ، كانت القيادة العراقية قد درست الاسس الموضوعية التي يتم على اساسها اختيار حجم القوات العراقية ، ونوعيتها ، وتلخصت هذه الاسس فيما يلي :

١ - طبيعة الحرب مع اسرائيل ، وطبيعة ساحة العمليات العسكرية ، ونوعية الوحدات المقاتلة الملائمة لذلك ، وهي القوات المدرعة بالدرجة الرئيسية ، مع وحدات كافية من المشاة ، وما تحتاجه هذه الوحدات من عناصر استناد والخدمات الادارية .

- ٢ - مستلزمات العراق الدفاعية ، خاصة فيما يتعلق بالموقف على الحدود الشرقية .
- ٣ - مستلزمات الامن فى المناطق الشمالية بالعراق وقتئذ .
- ٤ - امكانيات النقل المتيسرة وخاصة ناقلات الدبابات ، وكانت وقتئذ قليلة ، ولا تكفى الا لنقل ٢٠٪ فقط من التشكيلات المدرعة التى تقرر ارسالها .
- واستنادا الى هذه العوامل مجتمعة ، تقرر يوم السبت ٦ أكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٣ ، وبشكل مبدئى ارسال الوحدات المسلحة التالية كمرحلة أولى ، وعلى وجه السرعة :
- فرقة مدرعة .
 - لواء مشاة ميكانيكى .
 - خمس سرايا مفاوير .
 - عدة كتائب مدفعية ، ووحدات صواريخ أرض - أرض ، بما يكفى لاسناد الواحدات السابق الاشارة اليها .
 - وحدات صواريخ ضد الدبابات .
 - وحدات مدفعية مضادة للطائرات .
- يضاف الى ذلك وحدات اسناد ، ووحدات ادارية لخدمة القطاعات الموضحة .

كان هذا هو قرار القيادة العراقية يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . بعد مرور يومين على بدء القتال وصل الى بغداد السيد محمد حيدر ، نائب رئيس الوزراء السوري ، واجتمع بالسيد صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقية وشرح الاوضاع العسكرية على الجبهة السورية ، وكان اللقاء مؤثرا ، اذ ان محمد حيدر اوضح حقيقة الوضع العسكرى على الجبهة الذى بدأ يتعرض لمتاعب عديدة ، والح فى سرعة ارسال الواحدات العراقية . وقال صدام حسين :

- ((لقد ارسلنا الطائرات فى اليوم الثانى للقتال ، ولو ان الدبابات لها اجنحة لوصلت فى نفس اليوم ، سندفع باقى قواتنا لتصل اليكم فى اسرع وقت)) .
- وعلى الفور تقرر ارسال المزيد من القوات العراقية بالاضافة الى القوات التى سبق ذكرها . ضمت القوات الجديدة ما يلى :
- فرقة مدرعة .
 - لواء مشاة ميكانيكى .
 - وحدات اسناد .

بالاضافة الى ذلك انذر لواء مدرع آخر للتحرك فور صدور الامر ، ومنذ بداية تحرك القوات العراقية تحولت عمليات التجشد والتكديس والحركة الى معركة حقيقية مع الوقت ، وقبل الانتقال الى ذكر تفاصيل معركة انتقال القوات العراقية الى الجبهة السورية يجب الاشارة الى ارتقاء الثورة العراقية فوق الخلافات ، والمنازعات السياسية ، فى سبيل

اداء دورها الرئيسي في الصراع العربي الاسرائيلي ، حتى بداية الحرب يوم ٦ اكتوبر كانت الحكومة السورية تشن منذ فترة حملة اعلامية ضخمة ضد العراق ، ولم ترد أجهزة الاعلام العراقية على الحملة ، وعكف المسؤولون العراقيون على دراسة اسبابها ، واكتفت الصحف العراقية بايراد اخبار موجزة عن اصابات الحملة السورية في الصحف العربية ، يوم الخميس ١ اكتوبر نشرت جريدة الثورة العراقية تحت عنوان « صحف كويتية تتحدث عن مواقف الحكم السوري » .

قالت مجلة الرسالة الكويتية : « ان الحكم السوري لو كان يحترم الروابط القومية والأخوية ، لما أقدم ، بعد أن أمم العراق ممتلكات شركة نفط العراق ، على تأميم الخط المار في سوريا والذي تمتلكه الشركة ، وتثول ملكيته حكما الى العراق ، واقدام الحكومة السورية على مفاوضة العراق . والتقدم اليه بمطالب أكثر مما كانت ترضى به الشركة البريطانية صاحبا الامتياز ، وهكذا عومل القطر العراقي من قبل الدولة الشقيقة معاملة أقسى من التعامل الذي كان قائما مع الجانب » .

ويبدو أن الحكومة السورية لم تكن تفكر في دخول العراق عسكريا الى الحرب عند بدئها ، ومن هنا لم تتوقف الحملة الاعلامية العادية للعراق حتى اليوم الذي نشب فيه القتال . ويقول أحد المسؤولين العراقيين :

((اننا نظام حكم يقوم على مبادئ واحد مبادئنا هو اداؤنا لدورنا على المستوى القومي في الصراع ضد العدو ، فاذا قامت الحرب وعزلنا عنها ، فسنبدوا أمام الجماهير العربية وكاننا نتناقض مع مبادئنا ، لكن مواقف الثورة العراقية الايجابية منذ اليوم الاول ، فرضت واقعا مختلفا)) .

على أية حال لم عندما بدأت الطلقة الاولى توارت كل الخلافات ، وصباح الاحد ٧ اكتوبر خرجت جريدة الثورة العراقية في افتتاحيتها :

((عندما نخوض المعركة مع العدو ، يتحتم علينا استخدام كل ما نمتلكه من الاسلحة الفعالة ، وزج كل طاقاتنا ، في اطار نظرة شاملة علمية ، جادة ، وفي اطار تصور استراتيجي للمعركة على أنها معركة قومية طويلة الامد ، لا تحسب الا عبر النضال الطويل ، الشاق ، المليء بالتنصحيات)) .

((ان ابناء العراق الشجعان يقاتلون اليوم وسيقاتلون غدا ، وبكل ما يملكون من طاقات الى جانب اشقاتهم في الجبهتين ، وفي الوقت نفسه تمتد يد الثورة لاجتثاث آخر المصالح الامريكيسة في بلادنا ، فلتكن ضربة الثورة هنا شرارة للمعركة التي طالما نبهت الجماهير العربية الى ضرورتها ، والى فاعليتها ، في اضعاف العدو ، ومعاقبة ساداته الامريكان ، فلتكن خطوة تأميم حصنة امريكا في

شركة نفط البصرة بداية لتأمين مصالح أمريكا النفطية في كل مكان من أرض العرب *

وفوق أرض الواقع ، يبدأ هدير مئات المدرعات ، والدبابات ، متجهة الى ساحة القتال .

● ● ●
لم يحدث ان زج العراق من قبل بمثل هذه القوات الضخمة الى الجبهة السورية او الى خطوط المواجهة مع اسرائيل ، ولنا ان نتخيل مئات المدرعات ، والناقلات ، وناقلات البترول ، وعربات الانقاذ ، والانضباط ، كل هذا الحجم من القوات يتحرك على الطريق الوعر ، بغداد - دمشق ، كل وحدة مقاتلة جاءت من مكان معين بالعراق . على سبيل المثال كان اللواء المدرع ١٢ يقوم بتدريبات في منطقة الحضر النائية ، البويرة ، ويوم ٦ أكتوبر أنذر اللواء ليكون في وضع القتال ، وتحول بالفعل من حالة التدريب الى حالة الاستعداد القتالي . وكان طول الطريق الذي يجب ان يقطعه حتى موافقه على الجبهة السورية ١٣٥٠ كيلو مترا ، قطعها في يوم واحد ، وكان اول تشكيل عراقي مقاتل يصل الى الاراضي السورية ، ولحظة وصوله اطلق عليه لواء (خالد بن الوليد) تيمنا بالقائد العربي خالد بن الوليد الذي اجتاز الصحراء بين العراق وسوريا في فترة قياسية قهر خلالها الصعوبات لتجدة الجيوش العربية في معركة « اليرموك » ، اما اللواء المدرع السادس فكان متمركزا في منطقة الرمادي على بعد (١٣٠) كيلو مترا غرب بغداد ، والتشكيلات الاخرى جاءت من البصرة والموصل ، والسليمانية ، وديالى ، وكان من الضروري سرعة التحشد استنادا الى ثلاثة امور :

اولا : همة القيادة السياسية ، حيث اقام الرئيس احمد حسن البكر بصفة مستمرة في غرفة العمليات الرئيسية .

ثانيا : درجة الاستعداد القتالي للقوات المسلحة .

ثالثا : شجاعة الجندي العراقي وبسالته ، وايمانه بعدالة القضية

التي يقاتل من أجلها .

وحمل الواقع عددا من التحديات ، ان الشكل المثالي لانتقال المدرعات هو الحركة بالقطارات ، لكن السكك الحديدية في العالم العربي متخلفة بشكل عام ، وسبب ذلك هو السياسة الاستعمارية الانجليزية التي عاقت انشاء شبكة متكاملة من السكك الحديدية حتى لا ترتبط اجزاء الوطن العربي ، بالاضافة الى قلة الطرق المتاحة كان يوجد بالقرب من المنطقة التي يربط فيها لواء خالد بن الوليد طريق قصير يؤدي الى الحدود السورية ، لكنه غير مطروق ، صعب ، لهذا كان على اللواء ان يتجه الى بغداد اولا ، ثم يتجه الى طريق (الرطبة) الطويل . من ناحية اخرى ، كان عدد الناقلات غير كاف ، ان جنزير الدبابات له عمر معين يستهلك بعده وأفضل استخدام للدبابات او المجنزرة يقضى بالا تمشي عليه الا في الاماكن القريبة من جبهات القتال ، وفي أرض العمليات ذاتها ، لهذا يتم تحميل الدور على الناقلات ، كان عدد الناقلات غير كاف ، وبعد وصول السيد محمد حيدر نائب رئيس الوزراء السوري ، واجتماعه بالسيد صدام حسين ، وشرحه لحقيقة

الأوضاع في الجبهة السورية ، اتخذت القيادة العراقية قراراً : بحرك الدبابات على الجنزير حتى يتم توفير ناقلات لها ، وعندما بدأ لواء خالد ابن الوليد الحركة كان نصف مدرعاته محمولا على ناقلات والنصف الآخر يمشى على الجنزير (أو السرفة كما يطلق عليه العسكريون العرب في العراق) . أن فارق السرعة بين الناقلات والمجنزرات كبير ، فالناقلات يمكنها السير بسرعة ٨٠ كيلو مترا في الساعة ، أما المجنزرات فتسير على الاسفلت بسرعة من ٣٠ الى ٤٠ كيلو مترا فقط ، وببجرد وصول الناقلات الى مواقع اللواء في سوريا ونزول المدرعات الى الأرض تعود فارغة لتقابل إني الطريق مع المدرعات التي تندفع على الجنزير ، ومن ثم يتم تحميل تلك الدروع والوصول بها الى مواقعها ، ثم تعود الناقلات من جديد لنقل الدبابات والمجنزرات التي لا تزال تتقدم على الجنزير ، وهكذا استمر النقل بصورة متعاقبة ، بعض الواحدات قطعت المسافة كلها على الجنزير ، وكان العراق يدفع بقوات جديدة باستمرار ، من هنا بلغ عدد المرات التي قطعت الناقلات فيها الطريق اثنتين وثلاثين مرة ، ازدحم الطريق المحدود الاتساع بمئات الناقلات والمركبات ، ان السيطرة على الحركة في مثل هذه الظروف تحتاج الى مزيد من الدقة والانضباط ، دفعت القيادة بخمس ورش اصلاح ، على جانبي الطريق ، بين كل ورشة وأخرى مائتا كيلو متر ، وتم تشكيل قيادة مصغرة للإشراف على الحركة في الطريق مكونة من ثلاثة ضباط ركن وقوة مفاوير ، وقوة انضباط عسكري (شرطة عسكرية) . ولاكتشاف الاعطال بشكل فوري تم تخصيص سرب من طائرات الهيلوكبتر للقيام بدوريات مستمرة فوق الطرق ، عندما تكتشف الهيلوكبتر ناقلة عاطلة تهبط الى جوارها ، ينزل الضابط من الطائرة :

« الله يساعذك وليدي ؟ خيك يا بطل »

ويجب سائق الناقلة أو الدبابة :

« والله ياسيدي بها كذا وكذا . »

بعض الطائرات كانت تقل أطقم فنية للتصليح كمفازز سريعة الحركة، اذا وجد العطل شديدا يتم ابلاغ اقرب ورشة اصلاح على الطريق . كانت الناقلات قد قطعت مسافات كبيرة في الحركة ذهابا وايابا . كل الظروف تهيء حدوث الاعطال ، الناقلة الوحيدة بها (٢٤) اطارا ٠٠ أي أن فرضتها في العطل تساوي ستة اضعاف السيارة العادية ، ايضا كان لا بد من مراعاة السائقين الذين راحوا ورجعوا (٣٢) مرة ، اجبروا على النوم بالقوة لمدة ٤ ساعات بعد انتهاء كل رحلة ، وعند بدء التحرك يعطى كل منهم ترموس شاي وآخر مليئا بالقهوة ، وعند وصوله يقولون له (تعال .. نم) في الرحلات الاخيرة بدأت العجلات ترهق ، والمواد الفنية الخاصة بالاصلاح تنضب ، بدأ اجراء آخر هو تفكيك بعض الناقلات التي اصابها عطل شديد ، اذا بلغ عدد الناقلات العاطلة ٨ مثلا ، يتم اختيار اثنتين من الناقلات سيئة الحال جدا ، يدرجان كخسائر حرب ، يتم الاستفادة باجزائهما من

اطارات ، وقطع اخرى لاصلاح الناقلات الست الاخرى ، وهكذا تصبح
الناقلة التي اعتبرت من الخسائر كالبقرة التي سقطت من الاعياء والارهاق ،
وكما يقول المثل الشعبي المصري (اذا وقعت البقر تكثر السكاكين) يتم
انتزاع اجزائها الصالحة لتركيبها في ناقلات اخرى ، ومن الطبيعي ان تكثر
حوادث السيارات في ظروف كهذه ، لكنها كانت اقل من ان تذكر ، انتظمت
الناقلات والمدرفعات والسيارات في حركة مثالية ، تماما كما كانت التشكيلات
العسكرية المصرية تعبر القناة في دقة ونظام اعجب المرسلين الاجانب ،
وصفوا الحركة على الجبهة المصرية بانها ادق من النظام المتبع في المدينة ،
نفس المشهد كان يجرى على الطريق الطويلة بين بغداد ودمشق ، ويبدو
ان السعي لتنفيذ الاهداف الكبيرة لا يترك فرصة للحوادث الصغيرة كي تقع ،
وكان الجهد المبذول في الاعداد للحركة والمضي الى القتال يبرز بوضوح
قدرة الانسان اللا محدودة على العطاء المادي والمعنوي ، وقهر اصعب
الظروف . واصدر القائد العام للقوات المسلحة اوامره الي قادة الوحدات :
**((اذا رايتم سيارة نقل مدنية وكنتم في حاجة اليها خذوها
واعطوا صاحبها ايصالا بالمبلغ الذي يريد ايا كان وبلا مناقشة
ويحضر الي وزارة الدفاع في بغداد ليتسلم الثمن نقدا
وفورا))** .

كانت العوامل والظروف التي وضعتها القيادة العراقية تتجسد على
طريق الرطوبة ، كان يتم تموين الواحدات المنقلة بالاعتدة والمؤن
من احتياجاتها اثناء تنقلها مباشرة ، واعلنت التعبئة الجزئية في العراق ،
تمت السيطرة على اعداد كبيرة من الناقلات التابعة للقطاع العام ، والقطاع
الخاص ، تم استغلال الطرق المتاحة باكثر من طاقتها ، وتمت التنقلات
الادارية وتنقلات الوحدات المقاتلة في نفس الوقت تقريبا ، وقد اعطيت
الاسبقية لتقدم الوحدات المقاتلة ، وللحماية من الخطر الجوي المتوقع فقد
تمت التنقلات خاصة عند الاقتراب من الجبهة السورية ليلا ، وطلب من
السلطات السورية تأمين ارشاد القوات العراقية بعد اجتيازها دمشق الي
مواقعها في الجبهة للوصول باسرع ما يمكن ، وكانت الوحدات المقاتلة
تصحب معها مؤننا واطعانا ميدانيا يكفي لمدة عشرين يوما ، لتجنب الوقفات
بهدف التموين ، وكانت تتزود بالوقود والخبز والماء فقط اثناء السير ، من
ناحية اخرى استخدم الجهد الجوي لنقل بعض القطاعات ، وكنتيجة لهذا
الجهد الخارق ، والاصرار من جانب قيادة الثورة العراقية امكن بين ٨ اكتوبر
و ٢٣ منه نقل الوحدات والاعتدة التالية :

- تكامل وصول فرقة مدرعة في ١٥ اكتوبر (يلاحظ ان لواء خالد
ابن الوليد تكامل في الجبهة السورية يوم ١١ اكتوبر تشرين اول واشتبك
في نفس اليوم) .

- وصول الوحدات التالية :

- لواء مشاه محمول
- لواء مشاه جبلي
- لواء قوات خاصة

٥ سرايا مغاوير .
عدد من كتائب المدفعية .
سرايا صواريخ لمقاومة الدبابات .
- نقل وحدات ادارية ، وتكديس حوالي ٣٦ ألف طن من مختلف
المواد الذخيرة ، المؤمن ، الوقود .
وصلت هذه الوحدات في الايام التالية :

- ٩ أكتوبر (تشرين اول) :
وصلت اول وحدة عراقية الى الاراضي السورية الساعة ٢٣. ظهرا .
١١ أكتوبر (تشرين اول) :
وصل اول لواء مدرع عراقي الاراضي السورية الساعة ٤ فجرا .
١٢ أكتوبر (تشرين اول) :
تكامل وصول لواء مشاة آلي الى الاراضي السورية الساعة ٢ ظهرا .
١٣ أكتوبر (تشرين اول) :
وصول لواء مشاة وتكامل قوة فرقة مدرعة .
١٣ أكتوبر (تشرين اول) :
تكامل وصول لواء مدرع آخر ، ولواء قوات خاصة تكاملت يوم ١٥/١٠ .
١٤ أكتوبر (تشرين اول) :
وصلت سرايا الصواريخ وتكاملت يوم ١٥/١٠ .
١٥ أكتوبر (تشرين اول) :
وصول لواء مشاة جبلي .
١٦ أكتوبر (تشرين اول) :
وصلت منطقة (غباغب) في سوريا - سرايا المغاوير .
١٨ أكتوبر (تشرين اول) :
وصلت طلائع لواء مدرع الساعة ٢ صباحا وتكامل وصوله يوم ٢٠ .
٢٢ أكتوبر (تشرين اول) :
اقتربت فرقة مدرعة أخرى قرب الحدود السورية وتأهبت لدخول
الاراضي السورية .

كان حجم الجهد هائلا ، انجز في وقت قصير ، في ظل اخطار متوقعة
في أية لحظة ، وبدون انداز مسبق بوقوع الحرب ، وعلقت اذاعة لندن يوم
١٠ أكتوبر على هذا الجهد نقلا عن أحد المعلقين العسكريين ، لصحيفة التايمز :
ان احدي المفاجآت الكبرى في حرب الشرق الاوسط هي
استطاعة العراقي تحشيد فرقة مدرعة عبر مسافة أكثر من
١٠٠٠ كيلو متر ، وزجها في المعركة مما قلب خطط
الاسرائيليين ومنعهم من تحقيق اهدافهم في هذه الجبهة « .
ووصفت صحيفتا النهار ، ولوزيان لوجور في بيروت تحرك القوات
العراقية :

((طابور يمتد عشرات الكيلو مترات اجتاز الحدود السورية
ليلة الاثنين الماضي)) .

وفي دمشق ، قال محمد حيدر نائب مجلس الوزراء السوري في
١٤ أكتوبر :

((ان وجود القوات العراقية في الجبهة الشمالية موضع اعتزاز
وفخر لكل عربي ، ان قوات الفطرين العراقي والسوري تخوض
معركة واحدة ، هي معركة التحرير والشرف ، ان مشاركة
القوات العراقية تأكيد لوحدة الامة العربية ، وان وجود الجنود
العراقيين الى جانب اشقائهم السوريين ، برهان عملي على ان
الدماء العربية تسيل في ارض المعركة من اجل اهداف الامة
العربية))

وفي مؤتمر صحفي قال جورج صدقني وزير الاعلام السوري (وقتئذ) :
((ان القوات العراقية تؤدي واجبها ببسالة وتقاتل العدو
الصهيوني ببطولة خارقة وتكبده افدح الخسائر ، ان العراق
قطر شقيق ، يتحمل مسؤوليته القومية في هذه المعركة)) .
لقد تحرك الجيش العراقي وفقا لمنطق الحكاية العربية التي تقول ان
احد الاخوة صاح مستنجدا بأخيه :
« يافلان أصابني ضيم »
قال له :

« ياأخي .. آجي لك حافي .. »

وتستمر الطائرة في الارتفاع ، تصبح ملامح الأرض أدق ، التفاصيل
بعيدة ، كأنها المسافة الزمنية التي تفصلنا عن أيام أكتوبر ، هل ستغيب
تفاصيل ما جرى كما تندمج الأرض تحتنا ؟ في الحروب تقع أحداث فذة ،
عندما يحكيها الذين شاهدوها وعاشوها بعد فترة فلن تجسد الحكاية حقيقة
ما حدث ، هناك تجارب في حياة الانسان لا يمكن نقلها الى الآخرين بمجرد
الحديث ، لا بد من معاشتها ، كالحرب ، والسجن ، والحب . وفي الحرب
يحدث أن تسلط الأضواء على حادث صغير فيتضخم ويكتسب أبعادا غير
حقيقية ، في الجانب الآخر تقع أحداث خارقة لا تجد من يرويها أو يدونها
أو يسلط عليها الأضواء فتتوه وتختفي معالمها ، تماما كتلك الأرض التي
تنأى عنا كلما أرتفعت الطائرة ، من هنا كان ما يشغلني ، البحث الدؤوب
عن الانسان ، ماذا رأى وماذا سمع ؟ ، بماذا أحس لحظة استشهاد صديقه
أو زميله ، كيف يضيح ذلك الجهد الذي بذلته الدماء ؟ هل يتسلل النسيان
ليجفف الدماء ، دماء الشهداء ويمحو آثارها ؟ انها محاولة من الكاتب
لقهر ما يضيعه الزمن ، وما تحاول الظروف العارضة أن تخفيه ، وتسجيل
دور الانسان العربي في لحظة صراع ساخنة ضد الغدو الصهيوني ، تمضي
الطائرة ، واستعيد حركة الجيش العراقي باتجاه الأراضي السورية ، أتوقف
عند الصور الخاصة بما جرى في أحد التشيكالات العراقية التي تمركزت
على بعد ١٣٠ كيلو مترا من بغداد ، الى الجنوب ، حيث انهي المقاتلون يوما
شاقا من التدريبات العنيفة في جو حار ، بشائر الخريف لم تلح بعد برغم
دخول أيام أكتوبر ١٩٧٣ ، حوالي الساعة السابعة مساء دق جرس التليفون
في مقر قيادة اللواء ، كان رئيس أركان حرب الجيش على التليفون :

— اشلونك ؟ ..

— حاضر يا سيدي .

— ما عندك نواقص ؟

— سيدي .. مو وقت اتمام نواقص .. كله تمام سيدي .

— غدا سنتحرك الى الجبهة .. استخدم ما لديك من ناقلات .

وصول الباقي على السرافة (الجنزير) .

تحقق احساس المقاتلين اليقيني بأنهم سيدخلون الحرب ، ذلك الاحساس الذي بدأ مع اذاعة انباء الحرب ، أعدت قيادة اللواء خطة التحرك ، من في المقدمة ؟ من في المؤخرة ؟ حوالي الساعة الثالثة صباحا جاء ضباط من التوجيه السياسي ، سألوا عن الاحتياجات ؟ وجدوا اللواء مجهزا للحركة لم يتمكن ضباط واحد من الاتصال بأسرته ، حجم الاستعدادات والحركة والانفعالات التي تعاقب عليهم لم تدع فرصة لأي مقاتل الا للتفكير في الرحيل ، والاشترك في القتال ، ان الضباط أو الجندي ، المقاتل يشكل عام يقضي سنوات في دراسة الحرب ، التدريب عليها ، من أجل فترة محدودة قد تكون ساعات أو أياما ، أو شهورا ، يمارس خلالها الحرب ، يعيش المقاتل لانتظار الاشتباك ، التهيئة له ، يستوعب الدروس العسكرية : تاريخ المعارك ، الخبرة القتالية ، تماما كوحدة الصواريخ المضادة للطائرات ، ان العمل بها يستمر أربعاً وعشرون ساعة ، تظل العيون مفتوحة على شاشات الرادار ، لكن هجوم الطائرات والتصدي لها لا يستغرق أكثر من ثوان . المشكلة ، أين موقع هذه الثواني في خريطة اليوم ؟ متى تجيء ؟ كان معظم اللواء الثامن مشاة إلى ، يتحرك على الجنزير ، وبين الحين والحين تتصل قيادة اللواء ببغداد .

« هل ننتظر الناقلات أم نستمر ؟ »

وتجيء الأوامر :

« استمر على الجنزير »

ويمضي الرجال ملتهبين بالحماس ، ملامح الجانب المعنوي الذي يحركهم رغبتهم الشخصية في الاستمرار ، كل منهم يعي في أعماقه حجم الاساءة التي وجهها الصهاينة ضد المقاتل العربي في جزيران (يونيو ١٩٦٧ ، طبلوا ، زمروا ، ملأوا البشرية بأمجاد وهمية ، كسبوا نصرا باردا لا يستحقونه لم ينتصروا على أمة ضعيفة ، ولكن على أمة مفككة ، وهناك قول ألماني « من ينله التكريم تصيبه غصة ، أما لأنه لم يزل صغيرا على المجدي ، أو لأنه بلغ من الكبر عتيا » ، كان النصر السهل الذي أحرزوه أكبر من حجمهم بكثير . وفي الطريق كان الجنود يصبحون :

« عليهم .. عليهم .. يكفي مذلة .. يكفي مهانة »

يتذكر بعض المقاتلين انهم سمعوا راديو اسرائيل ذات ليلة يسب اذاعة صوت العرب ، يذكرون عبارات المذيع جيدا ، « يا ليت العرب لهم صوت » ، كانوا يغنون تماما ما يعنيه المثل العربي « الحق للسيف أما العاجز فريد شهودا » ، احساسهم القوي بالعروبة ، بفلسطين ، كان يدفعهم

بحماس مماثل لنفس الحماس الذي دفع المقاتل المصري ، والسوري ، كانت
الامة العربية العريضة تنتفض بمشاعر واحدة ، في تلك الايام من اكتوبر
١٩٧٣ ، ويمر قائد اللواء على جنوده أثناء فترات التوقف القصيرة :

- كيف الحال ؟

ويجيب الجنود :

- لماذا نتوقف ياسيدي ، نريد الاستمرار ؟

ويمضي التقدم حتى قاعدة (هـ - ٣) ، على الحدود العراقية -
السورية في ذلك اليوم ، كان لواء خالد بن الوليد قد اشتبك بالفعل مع
العدو الصهيوني ، في نفس الوقت كان اللواء السادس المدرع يتخذ
مواقعة في الجبهة ، وخلف اللواء الثامن مشاة الى ، امتدت ثلاثة ألوية
ميكانيكية ، مركباتها تثير الغبار على جانبي طريق الرطبة من بغداد حتى
(هـ - ٣) ، كانت الناقلات تسير فوق الأسفلت ، والى اليمين واليسار من
من الطريق اندفعت الدبابات على الجنزير فوق الرمال ، في قاعدة
(هـ - ٣) استفسر قائد اللواء عن الموقف ، كان يقترب من نطاق التهديد
الجوي المعادي ، ماشغله في تلك اللحظات هو الوصول بهذا العدد الضخم
من المركبات المدرعة ، والعادية (حوالي ٥٠٠ مركبة ، و ٦٠٠٠ مقاتل)
الى خطوط القتال . عقب يونيو ١٩٦٧ ملأ التفوق الجوي الاسرائيلي الاسماع ،
فوق الرتل تمرق الطائرة العراقية المقاتلة يقوم السلاح العراقي بتوفير
الحماية اللازمة لتشكيلات ، بدأ الرجال يسمعون عن التهديد الذي تشكله
الصواريخ المضادة للطائرات ، عن تساقط الطائرات الاسرائيلية ، كانت
بلامح صورة جديدة تتشكل . في الايام الاولى من خلال التحرك ، حملت
البيانات العسكرية المذاعة اخبار تقدم القوات السورية في الجولان ،
ازداد حماس المقاتلين العراقيين للمشاركة في القتال ، خشوا أن تصل
القوات العربية السورية الى قلب اسرائيل بدون أن يكون لهم شرف
الأسهام في القتال ، غير أن الصورة على الجبهة السورية كانت تبدو بلامح
أخرى .

في اكتوبر ١٩٧٣ :

دمشق :

قطعت مجموعة قيادة عراقية رحلة مرهقة من العراق الى دمشق ،
بعد الاشراف على تحرك لواء خالد بن الوليد ، تحركت سيارة تضم أحد
كبار الضباط العراقيين يرافقه اثنان من ضباط الأركان ، حتى قاعدة
(هـ - ٣) ، ثم واصلوا رحيلهم الى دمشق ، في دمشق التقوا بأمرالانضباط
العسكري ، اتصل برئاسة الأركان العامة ، تم تحديد موعد في دار الضباط
القديمة بالصالحية ، ذهب الضباط العراقيون قبل الافطار ، اجتمعوا
بالضابط العراقي الكبير في مكتبه ، بينما بقي ضابطا الركن العراقيان
واقفين بالباب ، كان الضابط العراقي قد حصل على تقييم للموقف من
مدير الحركات العسكرية ببغداد ، كان اجمالى الموقف انه جيد ، لكن هنا

أختلف التقييم ، ان الموقف يبدو غامضاً على الجبهة ، سأل اللواء أديب الأمير :

- متى يصل اللواء ؟
- مساء يوم ١٠ أكتوبر .
- نفضل الاسراع بوصول اللواء قبل مساء يوم ١٠ .
- لم يكن لدى الضابط العراقي الكبير وسيلة اتصال مباشرة ببغداد ، ذهب الى السفارة العراقية بدمشق ، اتصل بالقيادة العسكرية بالعراق .
- « ان الاشقاء السوريين يطليون سرعة وصول لواء خالد بن الوليد » وجاء الصوت البعيد .
- « سيتم بذل أقصى الجهود لوصول اللواء في موعد مبكر »
- في المساء اتصل اللواء أديب الأمير مرة أخرى ، حدد موعداً تليفونيا في نادي الضباط الجديد الذي يقع مقابل المعرض الدولي ، في النادي أعطي للضابط العراقي الكبير واجب قتالي على الخريطة ، تضمن الواجب الدخول حتى منطقة خسفين ، قال الضابط العراقي ان هذا صعب بالدروع ، انه يحتاج الى مظليين للعمل في المنطقة ، قال اللواء أديب الأمير :
- سنحاول ، لكن اعتمد على نفسك .

خرج الضابط العراقي ليستقل عربة « لاندروفر » يصحبه ضابط ارتباط سوري برتبة مقدم ، استطلعوا الأماكن التي سيتم دخول القوات العراقية اليها ، نزلوا بمنطقة تل الحارة ، بدأ قصف مدفعي معاد ، انتشروا فوق الأرض ، لمحوا ضابطاً سورياً برتبة مقدم ، كان زميلاً لضابط الارتباط السوري المرافق لهم ، تقدموا منه ، سألوا :

- ما هو الموقف ؟



- ما هو الموقف ؟

كيف كانت تبدو الصورة على المسرح العمليان العسكرية يوم العاشر من أكتوبر ١٩٧٣ ، أي بعد أربعة أيام من بدء القتال، وقبل ساعات من وصول أول التشكيلات العراقية المقاتلة الى الجبهة السورية ، في نفس يوم وصول لواء خالد بن الوليد العراقي المدرع الى مشارف دمشق ، ماذا جرى خلال الأيام التالية لبدء القتال ، والمحاصرة بين يوم السبت ٦ أكتوبر ، الأربعاء ١٠ أكتوبر ؟

ان استعراض العمليات التي جرت ، يساعد على فهم الأيام التالية على الجبهة السورية .



لتستمر القطعات العسكرية العراقية في التدفق ، ولتعد الى اليوم الثاني للقتال ، يوم الأحد ٧ أكتوبر ، لقد نجحت القوات السورية في اقتحام التحصينات والدفاعات الاسرائيلية المقاومة على جانبي الخندق المضاد للدبابات واستمر تدفق الدبابات والآليات عبره بمعدل كبير بعد أن نجح سلاح المهندسين في تنفيذ المهام الموكولة اليه ، وأبرزها المعابر على الخندق

في أماكن متفرقة ، وردد الخندق في مواضع أخرى ، بعدها اندفع السوريون الى الغرب ، واستطاعت القوات السورية الالتفاف حول مواقع اسرائيلية عديدة في هجومها الخاطف ، وبدأوا يحاولون دخول مدينة القنيطرة ، على الجانب الآخر كانت القيادة الاسرائيلية قد قررت اعتبار الجبهة الشمالية خلال الايام الأولى للقتال جبهة الجهد الرئيسي ، خشى الاسرائيليون أن يتمكن السوريون من الاندفاع الى قلب اسرائيل والمناطق الهامة فيها ، وخاصة ان التفوق العددي كان يعيل لصالح السوريين ، وبناء على هذه التقديرات تم دفع القوة المدرعة الاسرائيلية الخاصة لتتصدى للهجوم ، وتتكون من اللواء المدرع السابع بقيادة «دان لانر» ، ولواء مدرع آخر ، تعارنها وحدات المشاة المتمركزة في الهضبة ، وفي الليل انتشر قناصو الدبابات الاسرائيليون المزودون بالاسلحة الصاروخية الحديثة المضادة للدبابات في كافة المناطق التي اندفع منها السوريون ، وبدأوا مهاجمة الدبابات السورية في محاولة لايقاف تقدمها ، في نفس الوقت بدأ سلاح الطيران الاسرائيلي هجماته بلا انقطاع ، وفي موجات متلاحقة بد معها اعتماد القيادة الاسرائيلية عليه بشكل مطلق ، وفي الوقت الذي كانت تدفع فيه باعداد كبيرة من الطائرات على الجبهة المصرية في محاولة يائسة لوقف تقدم القوات المصرية التي عبرت القناة، واقتحمت خط بارليف .

وعلى الجبهتين المصرية والسورية نشطت صواريخ سام من طراز ٢ ، ٦ ، ٧ ، وأوقعت بالطائرات الاسرائيلية خسائر كبيرة ، ومما ساعد شبكة الصواريخ السورية يوم ٧ أكتوبر سوء الأحوال الجوية ، فمنذ ساعات الصباح الباكر غطت الغيوم الكثيفة والضباب المنطقة ، ولم يستطع سلاح الطيران الاسرائيلي العمل الا بعد الظهر ، حيث كانت الطائرات تضطر للتخليق على ارتفاعات منخفضة تجنباً للطيران في الغيوم ، مما جعلها أهدافاً مثالية للصواريخ الأرضية ، ومع قدوم المساء خفت حدة المعارك على الجبهة الشمالية ، وبدأ الارهاق والتعب على قوات الجانبين ، واستغل كل منهما الظلام لدفع المزيد من القوات الجديدة وتدعيم وحداته العاملة بأرض المعركة ، بينما راحت المدرعات السورية تنسحب الى نقاط خلفية لاعادة تنظيم نفسها وتدعيم تشكيلاتها القتالية بأسلحة جديدة .

مع فجر الاثنين ٨ أكتوبر ، شرع سلاح الجو الاسرائيلي بتركيز هجماته ضد الدروع والمدفعية السورية ، وحاولت تشكيلات أخرى مهاجمة الصواريخ الموجهة أرض - جو ، تصدت لها الطائرات السورية ، ودارت معارك جوية عنيفة ، وهاجمت الطائرات السورية أهدافاً تقع في العمق الاسرائيلي ، وكانت الطائرات الاسرائيلية قد هاجمت خمس قواعد جوية سورية في عمق الأراضي السورية ، وخلال النهار تمكنت صواريخ سام من اسقاط عدد كبير من الطائرات الاسرائيلية ، ظلت معارك الدبابات مستمرة منذ الفجر وبلا انقطاع ، ودارت أكبر هذه المعارك في ضواحي القنيطرة ، وزادت القوات الاسرائيلية من هجماتها في الشمال

على محور مسعدة ، جباتا الخشب ، وفي الوسط على محور كفر نفاخ - الخشبية ، وفي الجنوب على محور العال - الجوخدار . وكان الهدف هو تطويق القوات السورية العاملة في الجولان ، وباستمرار وصول التعزيزات قاربت مرحلة الصد الاسرائيلي على الانتهاء لتبدأ مرحلة الهجوم المضاد .

وعند الظهر ، دفعت القيادة الاسرائيلية بمزيد من الوحدات المدرعة الى المعركة وزادت من هجماتها وضاعف سلاح الطيران هجماته على المدرعات السورية التي ظلت تتصدى للدروع الاسرائيلية وتمنعها من التقدم .

« ويبدو أن القيادة الاسرائيلية كانت تستमित في محاولة حسم القتال على جبهة الجولان قبل وصول القوات العراقية التي بدأت تلاحقها في الوصول الى سوريا بالفعل ، وقالت المصادر الأجنبية وقتئذ أن العراق حرك قوات تقدر بـ (١٨٠٠٠) جندي و (٣٠٠) دبابة و (١٠٠) طائرة » .

وكان هذا يعني أن السوريين سيتمكنون من تعزيز وحداتهم العاملة في ساحة القتال بوحدات عراقية قوية ومدربة تدريباً جيداً ، فضلاً عن العدد الكبير من الدبابات الحديثة ، والمدفعية والطائرات التي تملكها هذه القوات والتي أصبح بالإمكان دفعها الى المعركة . (١) .

وفي الوقت نفسه ضاعف السوريون قصفهم المدفعي وأطلقت صواريخ « فروج » ٧ أرض - أرض (السوفيتية الصنع) ويصل مداها الى ٤٤ ميلاً أو ٧٠ كيلو متراً والمجهزة برأس شديدة الانفجار زنة نصف طن ، واستهدف القصف السوري مستعمرة « مجدل ههيك » و « نجال كفار باروخ » ، الوقعتين الى الجنوب الغربي من مدينة الناصرة ، وعدة مستعمرات أخرى ، أحدث القصف خسائر كبيرة في المنشآت والأزواج ، وتمكنت الدبابات السورية من صد الهجمات الاسرائيلية ، وهكذا لم تستطع القوات المدرعة الاسرائيلية توجيه ضربة مؤثرة الى الدروع السورية ، وفي هذا اليوم تحدثت وكالة الأنباء عن الأوضاع الداخلية في سوريا ونشاط أفراد الجيش الشعبي المسلحين ، والمعنويات المرتفعة ، التي زاد من قوتها الأخبار القائلة بوصول القوات العراقية للمشاركة في القتال ، وكانت طلائع القوات العراقية قد بدأت تصل بالفعل ، واستقبلها الشعب السوري بدءاً من الحدود استقبالاً حماسياً رائعاً ، وأثناء مرور تلك القوات بالقرى السورية كان الفلاحون يخرجون مرحبين ، تلو اصواتهم بالهتاف الحماسي ، ويقدمون وجبات الطعام الساخنة للرجال الذين قطعوا أكثر من ألف كيلو متراً للمشاركة في القتال .

مع بداية اليوم الرابع للقتال ، الثلاثاء : ٩ أكتوبر كان من الواضح أن أحد الطرفين لم يحقق نجاحاً حاسماً ، كان الاسرائيليون يحاولون دفع القوات السورية بعيداً عن الجولان قبل وصول الأقسام الرئيسية من القوات العراقية ، وكان السوريون يحاولون التشبث بالأرض التي حرروها ، وتأخير

١ - الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة - مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية .

تقدم القوات الاسرائيلية ، ودفع كل من الطرفين قوات جديدة الى ساحة القتال ، وركز سلاح الطيران الاسرائيلي غاراته على القوات السورية البرية، وقصف أهدافا مدينة حيوية في دمشق ، ومصفاة النفط في حمص ، ومحطة توليد الكهرباء الرئيسية ، وخزانات النفط في طرطوس . وهاجمت الطائرات السورية أهدافا حيوية في سهل الجولة ومطار « روشبيننا » القريب من صفد ، واغارت بشكل مستمر على الدروع الاسرائيلية ، وقطاعات المدفعية في محاولة لوقف تقدمها ، وابدت وحدات الصواريخ السورية أرض - جو مقاومة عنيفة الا ان الطيران الاسرائيلي استمر في نشاطه الذي مثل الجهد الرئيسي للعدو على الجبهة السورية .

مع فجر الأربعاء ١٠ أكتوبر ، كان من الواضح ، ان القوات الاسرائيلية قد انتهت مرحلة الصمد ، وبدأت مرحلة الهجوم المضاد ، خلال الأيام الأربعة الماضية ، ثم وقف تقدم الهجوم السوري ، بدأ الطيران الاسرائيلي في التمهيد للهجوم المضاد ، بسلسلة غازات مكثفة ومستمرة على أهداف عديدة شملت المطارات ، وقواعد الصواريخ ، والمرافق الحيوية ، والوحدات السورية في الجبهة . في نفس الوقت بدأ الهجوم البري على طول الجبهة السورية وكان الجهد الرئيسي في القطاع الشمالي على محاور ثلاثة :

- ١ - محورة سعدة - جباتا الخشب .
- ٢ - محور واسط - الحميدية - خان اريتيه .
- ٣ - محور كفر نفاخ - حدمان - أم باطنين - جينا .

استهدف الهجوم فك الحصار عن القنيطرة ودفع القوات السورية عن الجولان نهائيا ، وتطوير الهجوم في وقت لاحق للسيطرة على الطريق الرئيسي الموصل الى دمشق ، ودارت معارك عنيفة حول القنيطرة تم خلالها فك الحصار ودفع القوات السورية الى ما وراء خط عام ١٩٦٧ ، وفي القطاعين الأوسط والجنوبي استهدف الهجوم الاسرائيلي دفع القوات السورية الى ما وراء خط وقف إطلاق النار عام ١٩٦٧ ، وقابلت القوات السورية بشراسة ، موقعة بالجانب الاسرائيلي خسائر كبيرة ، بذل المقاتلون السوريون جهودهم لوقف التقدم الاسرائيلي ومنعه من تحقيق أهدافه ، كان الجهد السوري الرئيسي موجها لمنع العدو من السيطرة على طريق القنيطرة - سعسع ، بعد وضوح هدف العدو من التركيز عليه . وقام الطيارون ، السوريون بهجمات كبيرة خسر فيها الطرفان عددا من طائراتهما .

في يوم الخميس ١١ أكتوبر واصلت القوات المدرعة الاسرائيلية هجومها المضاد في هضبة الجولان ، وذلك بهدف اخراج المدرعات السورية نهائيا من الجولان ، والسيطرة على الطريق العام الموصل الى دمشق ، بهدف تهديد العاصمة السورية ، ومحاولة تطويق الوحدات السورية العاملة في القطاعين الأوسط والجنوبي ، وبعد قتال ضار تمكنت الدبابات الاسرائيلية اثر قتال رهيب من اختراق خط الدفاع السوري ، الذي اقامة السوريون الى الشرق قليلا من خط وقف إطلاق النار لعام ١٩٦٧ ، في القطاع الأوسط ، اصطلحت القوات الاسرائيلية المهاجمة بمقاومة

عنيقة منعتهما من التقدم ، وحاولت القوات الاسرائيلية اختراق الدفاعات السورية والالتفاف حول القوات السورية العاملة في القطاع الشمالي ، في محاولة منها لتقديم العون للقوات الاسرائيلية العاملة في محور القنيطرة - سعسع ، حتى يتم حسم القتال بالسرعة المطلوبة قبل استكمال وصول القوات العراقية التي بدأت طلائعها تصل الى مسرح القتال ، ونشطت وحدات اسرائيلية من المدرعات والمشاة الميكانيكية في داخل الجولان في عملية هدفها تصفية الجيوب التي خلفها السوريون وراءهم ، بعد الانسحاب شرقا ، وقامت الطائرات الاسرائيلية بتركيز هجماتها ضد المحاور الرئيسية المؤدية الى جبهة القتال في محاولة لمنع وصول طلائع القوات العراقية الى جبهة القتال أو تأخير تقدمها على الأقل ، وعلى الرغم من عنف الغارات الاسرائيلية ، وقيام الطيران الاسرائيلي بتقديم الجهد الرئيسي في العمليات ، الا أن اسرائيل عجزت عن تحقيق السيطرة الجوية الكاملة ، وذلك بفضل المقاومة الأرضية العنيقة من الصواريخ أرض - جو ، خاضوا معارك شرسة وعنيقة في الجو .

وقبل انتهاء يوم الخميس ١١ أكتوبر شنت القوات السورية هجوما مضادا في منطقة خان أرينة في محاولة لوقف الهجوم الاسرائيلي بالقطاع الشمالي من الجبهة ، واثاحة الفرصة للوحدات العربية المقاتلة في الهضبة كي تنسحب وتنضم الى القوات السورية التي بدأت تتجمع لانشاء خط دفاعي جديد في مواجهة الهجوم الاسرائيلي المضاد على طول الجبهة . ومع بداية يوم ١٢ كانت ملامح الخطة الاسرائيلية قد اتضحت ، ويمكن تحديدها بما يلي :

- غارات جوية مكثفة ضد الأهداف السورية في العمق بغرض شل الاقتصاد السوري ، وزعزعة الجبهة الداخلية ، وبشر حالة من الرعب - هجمات مدرعة مكثفة من أجل تحقيق الخرق في خطوط الدفاع السورية ، وقد تم بالفعل ، واستهدفت القوات الاسرائيلية تطويق دمشق نفسها .

- هجمات بحرية مركزة على ميناء اللاذقية ، والمنشآت الاقتصادية على طول الشاطئ السوري بهدف تدمير الاقتصاد السوري وتأخير وصول المساعدات السوفيتية .

وكتريجة عملية لهذا المخطط ، شهد يوم ١٢ أكتوبر قتالا جويا ضاريا ، اذلقى سلاح الجو الاسرائيلي بجهده الرئيسي على الجبهة الشمالية ، وراحت الطائرات المعادية تهاجم في موجات متتالية الأهداف العسكرية والاقتصادية على الجبهة السورية . وفي العمق واجهت الطائرات الاسرائيلية مقاومة عنيقة من أجهزة الدفاع الجوي وتصدت لها الطائرات العراقية والسورية .

« ولقد أبدى الطيارون العراقيون والسوريون شجاعة فائقة وكفاءة عالية منعت الطائرات الاسرائيلية في أغلب الأوقات من الوصول الى أهدافها ، وظلوا نشطين طوال النهار ، مما اضطر القيادة الاسرائيلية الى

اعادة النظر في موقف نجم عنه استخدام احتياطيتها من الطائرات التي كانت معدة للاستعمال في مهام أخرى» (١) .

وفي البر بدأت القوات الاسرائيلية في تطوير هجومها مستهدفة شق طريقها الى اقرب بقطة من دمشق ، وكانت القوات الاسرائيلية تتقدم في القطاع الشمالي عبر ثلاثة محاور :

المحور الأول - الشمالي : وخصص لمحاولة الوصول الى « بيت جن » و « عرفه » على سفوح جبل الشيخ في عملية تستهدف الالتفاف حول الدفاعات السورية المقامة قرب سعسع من الجهة الشمالية الغربية .

المحور الثاني - الأوسط : اعتبر محور الجهد الرئيسي ، وقد جشدت باتجاهه القوات المدرعة الرئيسية معززة بوحدات المشاة الميكانيكية والمدفعية ذاتية الحركة ، وكان هدف القوات العاملة في هذا المحور فتح ثغرة في خطوط الدفاع السورية ، ثم الاندفاع شرقا ، والالتفاف حول الأجانب السورية وابدائها بالتعاون مع قوات المحورين الشمالي والجنوبي العاملين في القطاع الشمالي من الجبهة .

المحور الثالث - الجنوبي : بدأت القوات الاسرائيلية التقدم باتجاه « كفر ناسج » ثم محاولة الاندفاع شرقا حتى غباغب .

دار قتال عنيف بالدبابات ، واستطاعت القوات السورية أحرار بعض النجاح ، اذ وصلت الى مشارف قرية « سعسع » . أما القوات العاملة في جنوب الخط الرئيسي المؤدى الى دمشق فاستطاعت الوصول الى الشرق قليلا من قرية كفر ناسج .

كان من الواضح ان دمشق هي الهدف الرئيسي ، وكانت القيادة الاسرائيلية ترمي بثقلها كله للوصول الى العاصمة العربية ، أو تطويقها ، وصرح ديان بانه سيصل دمشق بعد ساعات ، كان الهدف ثمينا جدا بالنسبة للقيادة الاسرائيلية ، اذ ان سقوط دمشق يعني تركيع سوريا ودحر الجيش السوري وبالتالي رفع معنويات الجنود الاسرائيليين العاملين على الجبهة المصرية ، والذين كانوا يتلقون ضربات عنيفة من القوات المصرية . ان سقوط المدن الكبيرة يحدث دويا هائلا ، وتأثيرا معنويا سيئا على المقاتلين . وربما يتساءل البعض : هل كان هدف القوات الاسرائيلية احتلال دمشق؟ وبغض النظر عن تصريحات ديان التي أعلن فيها عن قرب وصول قواته الى دمشق ، فان العمليات العسكرية التي كانت تتم على الجبهة منذ بدء مرحلة الهجوم المعادي المضاد ، توضح قصد القيادة العسكرية الصهيونية وهو احتلال دمشق ، وربما كان التأثير المعنوي هو الهدف الرئيسي ، غير ان تدمير الجيش السوري تدميرا تاما كان يعني جنرالات الحرب الاسرائيليين ، ثم ان احتلال دمشق - ولو لفترة محدودة - سيؤثر على مسار الحرب كلها . كان هذا تقدير القيادة الاسرائيلية ، وهكذا صرح ديان لمثلي الصحافة العالمية .

بعد ظهر الجمعة ١٢ أكتوبر ، طرا عامل جديد على الموقف ، وهنا

١ - الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة - ص ٦٧ .

ننقل ما حدث من ملف وكالة رويتر الخاص بالحرب ، قبل ان نتطرق الى التفاصيل :

« فوجئت القيادة الاسرائيلية مفاجأة تامة عندما نجحت القوات العراقية في الوصول الى الجبهة ، والاشتراك لأول مرة في القتال ، وهكذا باغت لواء عراقي مدرع ، وصل لتوه الى أرض المعركة ، القوات الاسرائيلية المتقدمة على محصور ((جعبا)) - « كفر ناسج » وشق هجومها المعاكس ، وتمكن من دحرها واجبارها على اتراجع حتى « تل الشعار » بعد قتال عنيف تكبدت القوات الاسرائيلية خسائر كبيرة في المعدات والارواح وتم خلالها أسر عدد من اطقم دباباتها وجنود عاملين مع القوة » .

وصلت القوات العراقية الى جبهة القتال في لحظة مناسبة تماما . لقد دخل لواء « خالد بن الوليد » العراقي المعركة جنبا الى جنب مع الجيش السوري ، وكان الموقف على الجبهة السورية كما لخصته السطور السابقة . وفي المساء ، مساء الجمعة ١٢ أكتوبر اعترفت القيادة الاسرائيلية باشتباك قواتها مع القوات العراقية في قتال عنيف بجبهة الجولان .



يبدو ان الطائرة قد وصلت الى الارتفاع المحدد لها ، أو الارتفاع المناسب ، اهتزت قليلا ، خيل الى انها تتراجع الى الخلف مسافة قصيرة ، كما لو كانت جوادا يخطو الى الوراء خطوتين قبل ان يركض الى الامام ، كان وجه القائد هادئا جدا ، ومن خلال ملامحه عبثا حاولت استنتاج الموقف ، بدأت الطائرة تتحرك الى الامام ، ومن بعيد بدت جبال (به و) على الحدود العراقية - الايرانية ، وتعاقب اللون البني في درجات مختلفة ، أغمق ، افتح ، وهذا الجبل يمتلىء بكهوف طبيعية عميقة يستخدمها المتمردون الاكزاد كمخازن للسلاح والذخيرة والعتاد ، كان الجبل أصم لانستطيع بالطبع أن نلمح انسانا يتحرك عليه ، غير انني ايقنت بحس خفي أن هناك عيوننا تتطلع من ذلك الجبل الى الطائرة ، ربما تضح كهوفه بحياة خفية الان ، ورأيت طائرتنا بعيني أحدهما ، يتطلع الى الهيلوكبتر المحلقة على ارتفاع عال ، بعيد ، يجري التخمين ، من يستقلها ، بماذا تقوم ، ان الارض بعيدة عنا ، وملامحها أقل وضوحا ، وتذكرت خريطة العمليات العسكرية عندما اطلعنا عليها مدير ادارة التوجيه السياسي ببغداد ، ازاح ستارة كبيرة تغطي حائطا بأكمله ، وبدت الخطوط النحيلة ، والعلامات ، والكلمات الصغيرة ، كل خط يعنى نهرا أو بلدا ، كل علامة تعنى في الواقع بشرا يعيشون في عزلة فوق ربايا الجبال ، او في موقع وعز ، او في قلعة قديمة ، تعنى صراعا تسيل فيه دماء ، ان جبل (به و) ، هذا شهد خلال عام ١٩٦٥ ، وفي منطقة مضيق (سرتك) معارك قاسية بين وحدات الجيش العراقي والمتمردين الاكزاد ، من الجو يبدو مضيق (سرتك) كقجوة لا يميزها عن صخور الجبل الا اللون الاغمق قليلا ، ان الغيوم تتجمع في

الافق العسالي ، وكان قوى خفية تشرف على الاضواء في هذا النهار الشمالي ، يضعف ضوء الشمس ، يغيب احيانا ، يصبح لون الضوء رماديا يبعث على الرهبة ، وكان ستارة خفية اسدلت على السماء ، لكن فوق ذرى الجبال البعيدة الشاهقة المجللة بالثلوج والواقعة داخل الحدود الايرانية تظل أشعة الشمس تتألق ، تلمع فكأن القمم البعيدة غطبت بمرايا مضقولة تعكس الأشعة ، للعبة الثلوج ، تأثير مختلف ، رأيت الثلوج فوق جبال لبنان ، ولكن لم تصحبها هذه اللعبة الحادة ، كانت اشبه بتراكم الجير المنطفيء ، أو الطباشير ، لكن الثلوج فوق هذه الجبال الشمالية تبرق ، تزهو من بعيد ، هكذا رأيتها فيما بعد ، في حوض راوندوز ، فوق جبل تاتان ، جبل سر حسن بك ، يبدو البريق الثلجي غامضا ، وكأنه يطالعنا من زمن مختلف ، من واقع آخر غير الذي نعيشه ، ليضفي على النهار والجو سحرا أسطوريا ، غامضا يرعش النفس بشتى الخواطر ، الى أسفل ، تبدأ رقعة فسيحة من المياه فيروزية اللون ، لون ليس فيه زرقة البجر الصريحة الواضحة ، أو رمادية مياه النهر ، رقعة عريضة من المياه بدأت تتضح ملامجها وابعادها ، ليست منتظمة الحواف ، تبرز في خطوط مستديرة ، تنبعج في بعض المواضع ، تجف ، اللون خضرة متنوعة ، بحيرة دوكان ، كان قاع البحيرة صنع من الفيروز ، ما هو مصدر اللون ؟ ربما اختلاط زرقة السماء ، وبياض الثلوج التي تعم جبال الافق ، وتحدد اللون الأخضر وانتشاره ، ويبدو بناء خرساني عند النهاية البحرية من الغرب ، انه سد دربندى خان ، يقع على نهر (ديالى) . ان الفرع الرئيسي من نهر سيروان ينبع من الشرق بعيدا ، داخل الأراضي الايرانية عند خانق (أسد آباد) الواقع على طريق كرمنشاه - حمدان ، ثم يخترق الجبال بكثير من الالتواء والتعرج ، ثم يشق له طريقا في السلسلة العظمى ما بين (هه ورامان) والقسم الثاني في الجنوب الشرقي المسمى شاهد (أعلى قمة فيه تبلغ ١٠٧٥٧ قدما) ، وعندما يدخل الى الحدود العراقية يصب فيه نهر تانجه رو ، ثم يدخل جبال (به رانان) وامتداد (خوجسك) الى الجنوب الشرقي ، ثم ينحرف الى الجنوب الغربي ، ويعرف في الأراضي العراقية باسم (نهر ديالى) الذي يصب في دجلة على بعد (١٨) ميلا من بغداد . ان الخزان الذي نراه الآن من الطائرة يقع على بعد حوالي (١٠) طوله (٢٤٥) مترا ، وارتفاعه (١٣٠) مترا ، يقع نهر سيروان عند مضيق كيلو مترات أسفل ملتقى سيروان بتانجرو ، انه عبارة عن سد خرساني دربندخان ، والبحيرة الفيروزية التي أصبحت وراءنا الآن هي الناتجة عن تخزين المياه امام السد ، وتبلغ كمية ما تخزنه من مياه ٣٧ مليار متر مكعب ، ويهدف المشروع الى التحكم في مياه سيروان ، والقضاء نهائيا على اخطار الفيضان بمنطقة ديالى ، وتوسيع الرقعة الزراعية على ضفتي نهر (دايلي) . ويستفاد من المشروع في توليد الطاقة الكهربائية في المنطقة ، ويشمل سد دربندى خان ، احد مشروعات للرى في المنطقة ، المشروع الثاني هو خزان (دوكان) المقام على نهر الزاب الصغير ، ان الاراضي الخضراء التي رأيناها من الطائرة يسقيها نهر ديالى ، وينظم

الرى بها هذا السد ، دربندى خان ، فى هذه المنطقة كان يوجد اكراد مسلحون ، منتشرون بين القرى ، وبعد معارضة الملا مصطفى البرزاني والجنح الرجعى فى الحركة الكردية لمشروع الحكم الذاتى ، قام المتمردون الاكراد المسلحون باحتلال قمم الجبال العالية المحيطة بمنطقة دربندى خان ، بدأوا يقصفون مواقع القوات العسكرية العراقية ، وفى نفس الوقت يضربون السد ، جسم السد نفسه ، بغرض تدميره ، وتدفق المياه المحجزة امامه لتغرق المنطقة ، وكان المتضرر الاول هى قرى الاكراد انفسهم ، دخلت القطاعات العسكرية العراقية المرابطة هنا فى صراع مع العصاة بهدف ابعادهم عن المناطق المسيطرة عليها من قبلهم والتي يستطيعون منها ضرب السد ، ولم يكن الامر سهلا ، لقد تم طرد العصاة عن القمم الغربية ، ولكنهم استعادوا بعضها ، واستردتها القطاعات العسكرية مرة أخرى ، وبقي جبل زمانكو ، كان هذا فى صيف العام الماضى ، ان الطائرة تطير الآن فوق (دربندى خان) ، وكلمة دربندى بالكردية تعنى بصورة عامة مضيقا بين هضبتين أو سلسلتين من جبال ، تميزا لها عن المضيق الطويل الوعر والذي يسمى (كلى) ، ودربندى خان تعنى محطة المضيق ومنه مرت الجيوش العربية أثناء توجيهها للحرب ضد الفرس ، وكان من بينها القوات التى قادها مسلم الباهلى أحد القادة المسلمين الأوائل .

أن الطائرة تتجه الى جبل زمانكو ، تقترب منه أو يقترب هو منها الحذر يحكم الحركة ، بدأ أننا لا نظير ، ولكن نتجه الى تسلقه ، أنه جبل صخرى ، وهو يقوم أمامنا ، يرتفع أكثر . عندما طرنا فوق جبال حميرين كانت الحشائش والطحالب تغطى الصخور ، لكن (زمانكو) قطعة هائلة من الصخر الاجرد غير الملتحى بالحشائش أو الطحالب . انه جبل عقيم ، خلو من الماء وحوافه مديبة ، مسننة ، يشهر حرابا من الصخور ، يخيل لنا ان حركة اطاره تزداد بطأ ، وكأن جاذبية خفية فى الجبل تبطئ من تقدمها ، أصبحنا فوق بداية الطريق المؤدية الى القمة ، ان الطيار يتطلع الى الامام ، الى أسفل ، وتبدو فوق الصخر الشاهق الحاد ، المعتم ، ربايا للجنود ، ان مواضعها وشكلها يختلف عن الربايا التى رأيناها فوق جبل حميرين أو على طول الحدود ، هناك المواقع أكثر تمويها ، يبدو كل موقع غارقا فى الوحدة على الرغم من تقارب المواقع هنا ، ان قمة الجبل مستطيلة ممتدة كظهر ديناصور ضخمة ، وتذكرنا الربايا بالركاب الذين نزلوا مع السندباد فوق جزيرة وسط المحيط ، وبمجرد أشعال النار فوجئوا بالجزيرة تتحرك ، كان ظهر حوت قد نام طويلا فى عرض البحر حتى نبتت فوقه الحشائش والطحالب وبمجرد أشعال النار تحرك ليغوض فى الأعماق ، وتختفى الجزيرة ، كان خاطرا ساخرا يطوف بالذهن ، ماذا لو تحرك الظهر ، الذى نركبه نحن ، وهوت الطائرة ، وأفضل - لو حدث لنا حادث - ان نسقط فوق حشائش الوادى ، ولكن أن نهوى فوق الصخر الموحش القاسى فأمر يدعو الى الرعب ، مع ان المصير واحد ، القائد حريص على أن يمر فوق جميع مواقع رجاله وكأنه لا يقبل بينه وبين نفسه ان يقول جنود موقع فى

نهاية اليوم « لقد مرت طائرة القائد على الموقع القريب » ، كان يريد ان يمر فوقهم كلهم مهما تنوعت مخاطر الخطر ، فالعصاة يحتلون مواقع قريبه عند أقصى الجبل ، ويمكن للأسلحة الخفيفة أن تنال الطائرة ، ان ارتفاعنا يبدو قليلا لو قيس بالمسافة التي تفصلنا عن ظهر زمناكو العجوز ، ولكنه أقصى ارتفاع يمكن للطائرة ان تبلغه اذا قيس من سطح الوادي .

ان طيران القادة فوق الربايا التي يعيش بها الرجال ، في ظل ظروف صعبة ، يرفع المعنويات بلا شك ، قرب نهاية القمة التي تمتد حوالي سبعة كيلو مترات استدارت الطائرة في المواجهة تماما بعض المواقع التي لازال المتمردون يتركزون بها وقتئذ ، بدت الصخور قريبة منا للغاية ، لا يفصلنا عنها الا بضعة أمتار ، ولكن عندما ابتعدت الطائرة عن القمة ، وراح السفح الوعر ينأى شئنا فشيئا تكشفت حقيقة الهوة ، ومدى عمق جوانب الجبل ، ان (زمناكو) العجوز يبلغ طوله ٧ كم ، ارتفاعه ١٧٠٠٠ قدم عن سطح الأرض ، يستغرق صعوده أربع ساعات ، الصعود لا يتم بشكل مباشر ، ولكن عبر ممرات ، وطرق في الجبل ، يستلزم الصعود ارتداء أحذية من نوع خاص ، ولياقة بدنية عالية ، وغالبا ما يصعد الجندي وهو يحمل مئونه الى جانب سلاحه وذخيرته ، ان الجنود يستطيعون التسلق المتواصل لمدة أربع ساعات بدون تعب ، ويتنافس الجنود في قلة عدد الوقفات ، أي أن الجندي الذي يقف أثناء الصعود أقل عدد ممكن يصبح أكثر احتمالا ومهارة ، هذا التسلق الصعب لا يتم في ظروف عادية ، ولكن تحت الخطر ، حيث يحمل كل شبر من الجبل خطر الموت ، كان بعض الجنود يحملون جرادل المياه وأثناء تسلقهم الجبل تنطلق عليهم رصاصات المتمردين ، تصيب الجرادل التي كانوا يضعونها على كتفهم المواجه للفراغ ، وليس للسفح ، وعند وصولهم الى القمة يجدون الوعاء مثقوبا عدة ثقوب ، والمياه كلها فرغت ، منظر الربايا فوق (زمناكو) يحسد تلك الظروف القاسية التي يعيشها المقاتلون العراقيون ، والتي تكسبهم خبرة قتال ولياقة عالية ، انهم هم الذين ذهبوا الى الجبهة السورية في تشرين (أكتوبر) ١٩٧٣ أنفسهم ، ان الحياة فوق ربايا الجبال قاسية ، خاصة فوق هذه القمم الشاهقة .

زمناكو خلو من الثلوج ، ولكن في مواقع أخرى يرايط الجنود فوق قمم مغطاة بثلوج أبدية يبلغ سمكها عدة أمتار ، ويمكن للانسان ان يعرف عمر تلك الثلوج لو نشرها بمنشار كهربائي ، عندئذ تبدو خلال الشريحة العرضية الخطوط التي تحدد عدد الأحقاب التي أستمرت عبرها الثلوج ، تماما كما يعرف عمر الشجرة من الدوائر التي تبدو في القطاع الداخلي للجذع ، ان الجنود في رباياهم المنعزلة يشعرون بتضامن عميق فيما بينهم . للزمن ايقاعه الخاص هنا ، تحت الخطر وفي تلك الظروف القاسية ، أحيانا في أيام الشتاء التي تعيد مناطق الشمال الى المراحل الأولى من تاريخ كوكبنا ، حيث تثقل السماء بغيوم ، ويتصاعد البخار من الصخور ، وتتحلل السحب الى ثلوج ، الى أمطار غزيرة ، في بعض تلك الأيام تدخل الربايا السبات .

« ودخلنا السبات »

عبارة تقال عند بدء نزول الثلج ، تراكمه حول المواقع ، ان الطرق تقطع ، تصبح زلقة ، الحركة عليها تستحيل بالنسبة للانسان أو البغال ، تدخل الحياة لحظات تبدو فيها الحركة والأضواء والليل والنهار ، وكان كل شيء توقف ، تجمد ، فكان الزمان لا يمضي ، والعمر لا يتقدم ، كان الكون كله دخل ثلاجة ضخمة ، انه السبات ، تنقطع الربايا عن العالم ، تستمر العزلة لمدة أربعين يوما كاملة ، لا يسمع من الأصوات الا مرور الرياح بين الجبال ، والزمهيرير يقص الاطراف قصا ، كل ما يصل المواقع بعضها ببعض هو سلك تليفوني ، سلك رفيع ، نحيل ، يمتد فوق الصخور الى بقية الربايا ، الى أسفل . سلك يحمل الأصوات الأدمية يؤنس كل منهما الآخر ، وعادة ما يتم الاتصال بين موقع في الذرى العالية وموقع بأسفل ، وفي احدى الربايا المرتفعة قرب (الأتروش) كان ضباط الموقع الذى دخل السبات ينظم الشعر ، وأثناء الحديث التليفوني اليومى الذى يتخلل فترات الهدوء التى تكف فيها أصوات الطلقات ، يطلب منه زملاؤه المرابطون فى الوادى ان ينظم لهم الشعر ، ويبدأ فعلا فى نظم قصيدة ، قد تكون قصيدة غزل ، أو حنين الى المدن النائبة ، والحياة التى تدب فى الطرقات ، قد تتغنى بمجد الوطن ، وبطولات الشهداء ، وعبر أسلاك التليفون ، ولاشئ فى العالم يعادل مشاعر السرور التى كانت تبعث فيه دفئا ، عندما تهتز أسلاك التليفون الميدانى بصيحات الاعجاب من زملائه بالوادى .

ان الجبال تشرف على بعضها البعض ، كالرءوس الأدمية التى يطل كل منها على الآخر ، لهذا فالحركة يجب ان تتم بحساب فوق الربايا والمواقع ، الجبل لا يفصح عن نفسه ، عن محتواه ، لا يكشف عن الانسان الذى يتحرك فيه بسهولة ، يمكن الخطر دائما فى القمم ، فوق بعض القمم ، كان جنود الربايا أثناء احدى مراحل القتال لا يتحركون الا بصعوبة ، كانوا لا يخرجون لقضاء حاجة فى العراء الا خلال اللحظات التى تأتى فيها الطائرات لتقوم بعمليات القصف ، تلك هى اللحظات التى تختفى فيها الرءوس الأدمية أيضا ، فان الحياة فوق القمم تحمل اخطارا من نوع غريب حدث فى احدى المرات التى جرى فيها إطلاق النار بين العصاة وربايا الجيش ، أن سقطت قذيفة مدفع جبلى بالقرب من جنديين كانا يجلسان قرب الحافة ، حافة الجبل ، ونتيجة لضغط الهواء قذف بهما الى الوادى السحيق ، بحث زملاؤهما عنهما بدأب عظيم ، لم يعثر لهما على أثر ، اعتبرا من المفقودين ، وبعد اثنى عشر يوما تصادف ان أحد المغاوير كان يقوم بواجب عند حافة الجبل ، وعندما أطل الى اولوادى ، رأى فى الأرض البعيدة ، غير المنتظمة الوعرة ، جنديين ، اتخذت الاستعدادات اللازمة ، مدت اليهما الجبال ، وتولت مجموعة من المغاوير عملية الانقاذ ، كان أحدهما والآخر فى حالة سيئ ، لقد عاش الجندى الأول سبعة أيام ، كان جريحا ، وكان الجنديان يتبادلان الحديث ، يسليان بعضهما البعض ، حتى استشهد الأول على مرأى من زميله ، فبقى الثانى وحيدا مع الجثة لمدة خمسة أيام ،

في وحدة ، وصمت وعزلة ، وسيات الموت ، كانا يقتاتان على الحشائش المزروعة حولهما ، ويبللان لسانهما بقطرت الندى والمطر المتساقط من السماء ، وحاليا يوجد الجندي الثاني الذي انقذ ، في صفوف الجيش العراقي ، تجربة وعرة تعكس ما قد يلاقه الانسان في هذه الطبيعة القاسية ، والتبديل السريع المفاجيء ، في وضع الانسان ، وعندما يعود المقاتل الى مدينته في اجازة يمشى في شوارعها وكأنه قادم من عالم آخر ، أحقا هذه حياة ، اضواء ؟ دور سينما ؟ نساء أطفال ؟ ضجيج ؟ الضجيج الانساني ، تدفق نهر الحياة .

كان الجيش العراقي لا يواجه عصابات تقليدية خلال السنة الأخيرة ، ولكن قوات شبه نظامية ، مجهزة بأحدث أنواع الأسلحة ، مدعومة بتدخل أجنبي مباشر بالاضافة الى ظروف الطبيعة الوحشية .

دارت الطائرة لتنزل في واد منخفض تحت جبل (زمناكو) ، أن الجبل يجثم كظل ثقيل ، ومن حولنا سلسلة من الجبال أقل ارتفاعا ، ان كلمة (جبل) تشير في الذهن تداعيات كثيرة ، الوعورة ، صعوبة التنقل ، الارتفاع ، الحواف المفاجئة ، الانهيارات الصخرية التي تحدث أحيانا ، المكان الذي يلجأ اليه العصاة . ان تعبير (طلع الجبل) كان يعنى بعد ١١ آذار ١٩٧٤ ، الانضمام الى القوى الرجعية الكردية التي يقودها البارزاني ، ومعاداة الثورة والانجازات التقدمية ، وكانت دوافع الذين طلوعوا الى الجبل كثيرة ومختلفة ، بعضهم نتيجة الارتباط العشائري المتخلف بقيادة الملا مصطفى البرزاني ، قسم ثان طلع الجبل لانه قدر الموقف لصالح المتمردين ، بمعنى أن ثمة اتفاقا سيعقد بين الحكومة وقيادة الملا ، وبالتالي يعودون هم ليحصلوا على مكاسب أكبر ، أو مناصب متميزة ، ومعظم أفراد هذا القسم من المثقفين الانتهازين طبعا ، قسم ثالث طلع الجبل بدافع ما يمكن تسميته « عقدة الجبل » معظمهم من الشباب المثقف الذي لم يشترك في حركات كردية مسلحة من قبل ، وقرأ كثيرا عن حركات الكفاح المسلح في أمريكا اللاتينية وآسيا ، ومن هنا انضموا الى الحركة ليعيشوا تجربة رومانسية قرأوا عنها وتخيّلوها ، قسم رابع طلع الجبل هربا من عقوبات وقعت عليهم الى الجبل يخلصهم من ذلك ، تلك هي الأسباب الرئيسية التي أدت بعدد من الاكراد الى طلوع الجبل . الى مرافقة العصيان المسلح بعد الحادي عشر من آذار ١٩٧٤ ، ويبقى موقف بعض المثقفين الواعين محل تساؤل ، لماذا انضموا الى التمرد الرجعي ؟ وهذه نقطة ستثار فيما بعد ، وخلال الرحيل في الشمال ، ولكن الآن يقوم (زمناكو) في مواجهتنا ، لا يدع فرصة كي تتراكم الأفكار الا في اطاره ، وتطرح وعورته تساؤلا : كيف أمكن اقتحامه ؟ ولم أكن أدري أنني سأتوقف كثيرا خلال الايام التالية واطرح نفس التساؤل أمام قمم أخرى أكثر ارتفاعا ، وأشد وعورة ، ان شمال العراق يتألف من سلاسل جبال شاهقة ، تمتد متوازية متوالية ، تتجه من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، تبدأ بالكشبان الغربية من دجلة ثم تتصاعد سلسلة شاهقة تليها سلسلة أكثر ارتفاعا حتى تتم بهضبة

شما ، تتخللها قمم تطعن السماء ، ووديان طويلة عميقة ، وانهار أوجدت لها طريقا في الصخور ، وتتميز هذه الجبال بمجموعة من المضائق الوعرة التي يسلم كل منها الى الآخر ، وتعد بمثابة مفاتيح للمنطقة . وقفنا أمام زمناكو ، عند موضع معين لينفرج الصخر انفراجة على شكل حرف V ، وكأنها علامة نصر غامضة يرفعها الصخر في وجه السماء التي بدت أرق ما في المكان ، من خلال تلك الفتحة ، وفي الخلف ، بعيدا عن الأفق تبدو جبال زاغروس داخل الأراضي الإيرانية ، متوجة بثلوج كالمرايا الكونية تعكس ضوء النهار أو تحتفظ به ، تشعه ، بدا زمناكو وكأنه ستارة غامقة انفرجت قليلا لتكشف مشهدا صاغته قدرة خفية ، ونعود مع الزمن الى اليوم الذي دارت فيه فوق تلك السفوح الشاهقة أصعب المعارك .



الصراع الانساني ، أو الحرب بمعنى آخر ، لها قوانين ، منها ما يتشكل بالبيئة ، بطبيعة الأرض ، هناك قوانين عامة للحرب ، ولكن عندما تدور تلك الحرب فوق الصحراء يصبح لها خصائص تختلف عن الحرب في البحر ، أو الجبل ، أو السماء ، والحرب في الجبل تحد من حرية الحركة ، فالطرق قليلة ، وصعبة ، لهذا فان القيمة العسكرية للطرق المتاحة تتضاعف وتتزايد أهمية الحصول على المرتفعات المشرفة عليها ، في الجبال يزداد الاعتماد على الوحدات الصغيرة ، وبالتالي تكون صفات المبادأة والقيادة والعمل اللامركزي وهي الصفات الواجب توافرها في قادة الوحدات الصغرى ذات الأهمية القصوى ، لان النجاح في العمليات الجبلية يعتمد على الاستخدام الصحيح للوسائل المتيسرة للقائد أكثر من اعتماده على الكثرة العددية ، في الجبال يصبح من المهم السيطرة المركزية عند وضع الخطة ، فمن يمكن الافادة منها بأقصى مجهود مستطاع . في نفس الوقت يجب أن تعمل كل مجموعة تكتيكية وهي مستقلة تقريبا للحصول على أغراضها ، أي أن تكون الخطط مركزية . أما في التنفيذ فتستقل الوحدات التكتيكية ، تتطلب الحرب في الجبال تركيزا شديدا على النواحي الادارية ، فان المعونة الادارية التي يمكن تقديمها لوحدات تعمل في منطقة جبلية تكون ملموسة الأثر على ناحية العمليات أكثر منها في أنواع خاصة من العتاد والتموين ، والنقل وأخلاء الجرحى ، أن هذه القوانين أو القواعد المتعلقة بحرب الجبال كان الجيش العراقي يضعها أمام عينيه ، الى جانب خبرته الخاصة بالمكان . والعصاة ، والأساليب الجديدة التي عمل بها خلال السنة الأخيرة الواقعة بين نيسان (أبريل) ١٩٧٤ ، آذار (مارس) ١٩٧٥ ، كان الجيش العراقي النظامي قد طور أساليبه بحيث أصبحت وحداته المقاتلة تعمل بشكل ثوري ، لاقتاتل بالشكل التقليدي ، انما تقتاتل في مجموعات صغيرة ، تتجمع أحيانا ، وتتفرق أحيانا أخرى طبقا لما يقتضيه الموقف ، قرر مجلس قيادة الثورة أن تكون العمليات العسكرية ذات طابع انساني تماما ، وهذه معادلة صعبة في عالم الحرب ، كيف تحارب القوات ، ؟ وكيف تكون حربها انسانية ؟ لكن هذا ما حققه الجيش العراقي بالفعل في الشمال ، ان الجيش

لم يحرق قرية ، ولم يعدم امرأة ، ولم يمس طفلا ، كان هذا يحدث في الماضي ، في عهد الحكومات الرجعية الضيقة الافق ، القصيرة النظر ، ولكن خلال هذه السنة الأخيرة ، ومنذ بداية الحرب وانتهائها كان الجيش يقدم المساعدات للقرى التي يدخلها ، و يقيم العلاقات الطيبة مع الأهالي ، كان العمل السياسي يتم جنبا الى جنب مع العمل العسكري ، وكان الجيش في معظم الأحيان يرد على الاعتداءات التي يوجهها اليه العصاة ، أي لا يكون البادئ الا في العمليات الاستراتيجية التي كانت أيضا تمثل ردا عسكريا حازما على خطط وضعها العصاة ، وشرعوا في تنفيذها ، كانت العمليات العسكرية تتابع بدقة من قبل القيادة السياسية واللجنة العليا لشئون الشمال ، والتي رأسها صدام حسين ، كان يتابع بنفسه أدق الحوادث ، وأصغرها شأنًا ، لم يرتكب جندي واحد عملا يسيء الى الاستراتيجية الموضوعية من قبل القيادة لمعالجة القضية الكردية ، عندما اجتمع قائد التشكيل برجاله في هذا القطاع خلال الأيام الأخيرة من حزيران (يونيو) ١٩٧٤ ، كانت هذه الملامح كلها في ذهنه ، ان خطة التشكيل كله يجب ان تعرض في مؤتمر عام حتى يمكن توزيع الواجبات المختلفة بشكل يناسب جميع المجموعات القائمة بالعمليات . بدأ زحف القوات العراقية الساعة التاسعة مساء يوم ٢ تموز (يوليو) ١٩٧٤ ، وتردد فوق الصخور العجوزة التي اندمجت بسواد الليل أصوات الطلقات النارية ، وقذائف المدفعية ، كان العصاة يستخدمون الرشاشات المتوسطة والثقيلة ، ومدفعية الهاون . ومن الخطوط الخلفية تساندتهم وحدات من المدفعية الأجنبية بعيدة المدى ، استمرت المعركة طوال الليل ، إحاطت القوات العراقية ، ومعها فصائل الانصار من الاكراد الوطنيين وقوات حرس الحدود الكردية ، أحاطت الجبل من ثلاث جهات ، وبدأت وحدات المدفعية تقصف المواقع التي تتمركز بها قوات العصاة الرجعية . بدأ التسلق من عدة جهات ، أطلق العصاة نيران الهاون بغزارة ، ان الهاون سلاح لا يمكن الاستغناء عنه في الحرب الجبلية نظرا لارتفاع خط مرور القنبلة ، وكان العصاة مزودين بالعديد من عياراته المختلفة ، وأنواع متعددة المصادر منه من بينها الهاون ٨١ملي ، الاسرائيلي الصنع ، والذي تم تسليم العشرات منه فيما بعد للسلطة الثورية بعد انتهاء التمرد ، في الساعة العاشرة من صباح يوم ٣ تموز (يوليو) تم تحرير الجبل ، استمرت المعركة القاسية ١٤ ساعة متصلة ، وكانت الدماء الحمراء تلون الصخور البينة اللون العديمة المسام والتي لا تتشرب الدماء ، فتبقى آثار الصراع ، شاهدا صامتا مؤلما . كان قيظ تموز (يوليو) شديدا ، والجبل يفح لهيبا ، هنا تتضاعف الحاجة الى المياه ، واستخدام الجرادل في نقل المياه يجعلها حارة ، بدأت طائرات الهيلوكبتر تنقل أوعية المياه الى الربايا ، في نفس الوقت كان الجنود الذين حاربوا لمدة أربع عشرة ساعة منهمكين في واجب جديد ، هو اعداد المواقع الدفاعية فوق الجبل ، تجهيزها بالاسلاك ، بالحفر ، رص الالغام على المناطق الحيوية بالجبل ، والممرات الهامة ، ان الوصول الى الربايا يجب أن يصحبه تأمين

كافة الامدادات للجنود الذين سيدأون التمركز لأيام كثيرة مقبلة ، وخلال هذه الحركة التي ازدحمت بها صنخور الجبل ، تدوى قذيفة من حين الى آخر ، فيتردد صداها بين الصخور ، أشد رنيناً من الصوت نفسه ، ومنذ هذا التاريخ ، ٣ تموز (يوليو) ١٩٧٤ ، يربط الجنود العراقيون فوق ظهر زماكو ، يمتطون هذا الديناصور المتحجر الضخم ، بعد قهره .



« مهى وآيش » من أشهر الملاحم الشعرية المكتوبة باللغة الكردية. كرت (آيش) فتاة رائعة الجمال ، قدها شبيه بشجرة باسقة ، أما خداهما فشيبهان بشمعتين تيران دياجير العتمة ، اختارت آيش ، (مهى) ، أحب بعضهما بعضاً حباً عظيماً ، كان (مهى) أبناً للارملة (زوزان) انثى قاست كثيراً بسبب ابنها الوحيد ، حتى جعلته شاباً ، شقيت لصبح ابنها سعيداً في حياته ، تمت خطوبة (يش) الجميلة الى (مهى) ، ولقيت الخطوبة ترحيباً من جميع أهالي الناحية فيما عدا طاهر « أغا ثرى الناحية ، تأججت نار حامية بين جنبيه ، وأخذته الكآبة ، كيف يستولي (مهى) ذلك الخادم الفقير ابن الارملة الكادحة على أجمل بنات الناحية ، بدأ يفكر في كيفية الاستيلاء على (آيش) ، انه الاغا ، والاغا سيد مطاع ، وحاكم بأمره ، وكل الثمر الشهى يجب ان يذوقه ، طلب من رئيس خدمه ان يمضى فوراً الى (مهى) يطلب منه التراجع عن زواجه بايش ، والا فلا بد ان يترك القرية الى قرية شيخ جواد البعيد للعمل هناك ، هذا هو امر الاغا وأمره نافذ مطاع ، وحينما بلغ (مهى) يطلب منه التراجع عن زواجه هذا هو امر الاغا وأمره نافذ مطاع ، وحينما بلغ (مهى) امر الاغا حزن حزناً عظيماً ، قرر ان يرحل ليعمل في قرية بعيدة ثم يعو ليسدد ديونه المتراكمة عليه للاغا ، وقال لامه « كوني مواظبة لآيش العفيفة الطاهرة ، فرحى قلبها الحزين وواسيها من آلامها ، أنا فخور بأم مثلك ، أتمنى ان أرجع اليكما مرفوع الرأس من سفرتى هذه » .

لفظ هذه الكلمات ثم ركب جواده الى مستقبله المجهول ، وتمضى سنوات ، تورق أشجار الصفصاف وتذبل ست مرات ، خلال هذه المدة كان (طاهر اغا) ، يبعث بالرسل الى (آيش) يرغبها ، يهددها ، لكن عينا وبقيت محافظة على عفافها تنتظر عودة (مهى) ، كما كانت بيتلوبي تنتظر يوليسيس ، وكان من عاداتها ان تسأل السابلة هل رأى احد منهم فى رحلته حبيبها (مهى) وكيف حاله ، وهل هو على قيد الحياة ؟ وفى احد ايام السنة السابعة رأت فارساً مغواراً يقترب من بعيد وهو راكب صهوة حصان اشهب وكأنه بطل من الاساطير ، عندما تأملته (آيش) بدقة صرخت صرخة عالية ، بكت بحرقة حيث تذكرت ما قاسته من الآلام خلال تلك السنين من فراق حبيبها وغبطتها ، كان هو (مهى) . تعانقا ، ثم وضع (مهى) شيئاً ، بعد فترة قال (مهى) :

« حبيبتي ، اذهبي الى أمى المسكينة لكى تأتى وتشارك فى فرحتك فتقر عينها برؤيتى » .

أجابت « آيش » :

(يا حبيبي ، دع عنك هذه الليلة ، فلتمض لكي تنام أمك المسكينة
نوما هادئا ، انها مكدودة ، متعبة ، انها تنام بعد العشاء مباشرة ، والآن
استرح ، سأجلب لك الحليب واللبن الطيب لنشربهما معا ، ولننمش بعد هذا
الفراق الاليم لحظات كلها سعادة وهناك بعد هذه السنين العجاف التي
حرمتني منك » .

في الفجر استيقظت الام العجوز ، فتحت باب « آيش » بهدوء وهي
تسير على أصابع رجلها ثم دخلت . . كانت الغرفة مظلمة تماما ولكن باقة
من نور الصباح قد تسربت من خلال الشباك الوحيد للغرفة ، وسقطت على
سرير (آيش) فانارتته بوضوح ، صرخت « زوزان » متعجبة ، متسائلة عن
هذا الشاب الغريب الذي يحتضن (آيش) كالعاشق الولهان ، بدأت الام
ترتجف من الغضب ، آن (مهـمـي) ابنها هو خلاصة عمرها ، مازال مجهول
المكان بسبب (آيش) أهكدا ترمي (آيش) نفسها بين أحضان غريب ، تلفتت
حولها ، كان الشاب الغريب قد علق كل اسلحته الى الجدار ، أمسكت
(البندقية) وصوبتها الى رأس الشاب ، ولكنها خافت الفضيحة لأن الطلقة
ستحدث صوتا وسينتشر الخبر في القرية كلها ، واذا عاد (مهـمـي) قريبا
قريبا فانه سيسمع الخبر المفاجع ويصدم في (آيش) ، أمسكت السيف ،
وبكل ما تبقى لدى شيخوختها من قوة غرسته في قلب الشاب الغريب ،
وتفجر الدم غزيرا كالنبع ، صرخت « آيش » ، قامت تنوح نواحا رهيبا .
- قتلت ابنك ، قضيت على حبيب قلبك وقلبي ، كان حبيبي منذ
سبع سنوات في ديار الغربة ، احاطت به الاخطار ، من كل حدب وصوب ،
ولكنه لم يهلك حتى ولم يجرح ، قتلته شر قتلة .

تذكرنا هذه القصة الكردية بمسرحية « البير كامي » « سوء تفاهم » ،
ولكنها تمس جانبا مأساويا في الواقع الكردي حيث الصراع محتدم ودموي
بين الاخوة الاشقاء منذ سنوات طويلة ، انتابني اسي فامض ، وانا اصغي
الى على جمعة الكردي البسيط ، كان شقيقه الاكبر يقاتل الى جانب قوات
العصاة الرجعية وقتئذ ، لا أرى لماذا تذكرت قصة (مهـمـي و آيش) كلما
التقيت بكردي له أخص يقاتل في الجانب المقابل ، هذا هو لب المأساة التي
تغذيها وتنميها القوى الرجعية الداخلية ، والرجعية العالمية ، وتلك هي
الدراما الحزينة التي أرادت ثورة العراق انهاءها وعملت من أجل هذا بداب
ونضج خلال سبع سنوات كاملة ، على جمعة فلاح شباب في الثلاثينات
نحيل ، ملامح وجهه حادة ، كان في الماضي ، قبل الثورة يقاتل في صفوف
الحركة الكردية :

- اننا كشعب قاتلنا سنوات طويلة ، وسقط منا ضحايا كثيرون ،
وتشردنا الى ان جاء حزب البعث العربي الاشتراكي وبدأ في تطبيق الحكم
الذاتي .

وأسأله بحذر ، محاولا تلمس الاغوار الانسانية الاشد وعورة من
سفوح زمناكو :

— هل تعلم أين يوجد اخوك الآن ؟

— أظنه في إيران .

ان كردستان منطقة شاسعة ، والجبال وعرة والانتقال صعب ، لكن المنطقة كلها كقرية واحدة ، كل شخص معروف للآخر ، والأخبار تيناقلها الناس بسرعة ، ولا شيء يندرج تحت كلمة سر ، كنت أسأل على جمعة عن موقع شقيقه ، وأعتقد انه يعرف مكانه ، في قرية اخرى التقيت بكردي اسمه حسن حمجان ، كان قبل بيان ١١ آذار مع أخيه وتصادف أن شقيقه كان مقيما في قرية تسيطر عليها السلطة الثورية ، عندئذ جمع حاجاته والتحق بالعصاة ، أما حسن الذي يقيم في منطقة يسيطر عليها العصاة وقتئذ ، فقد تسلل سرا والتحق بصفوف القوى الوطنية التي تحارب التمرد ، تبادل الشقيقان موقعهما ، ثم اقتتلا .



ونعبر القرى القريبة من جبل (زمانكو) وسد دربندی خان ، نقصد موقعا فيه أحد الضباط العراقيين الذين شاركوا في حرب تشرين ، تقف عيوننا عند ملامح الاكراد في هذه الناحية ، انهم ينتمون الى قبيلة كردية قديمة جدا ، «الجاف» ، وتحتل منطقة واسعة من قزلباط في لواء ديالى ، وناحية بنجوين في أقصى الشمال الشرقي لمحافظة السليمانية ، ومعظم افراد «الجاف» استقروا في تلك المناطق التي نمر بها الآن ، وقلة منهم لازالوا يعيشون حياة الرعى حيث يتوجهون شتاء الى سهل كركوك ، والى هضبة بنجوين صيفا ، وفوق رابية مرتفعة يبدو الموقع الذي نقصده ، الصخور مكسوة بالطحالب الخضراء ، وثمة اشجار متفرقة تنمو هنا وهناك وفي هذا الصمت يدوى صوت الضابط العراقي مرحبا بنا ، انه جهورى الصوت ، منذ فترة طويلة لم ينزل في اجازة ، عندما بدأ يستعيد أحداث حرب تشرين صمت قليلا ، وبدأ يسترجع تلك الايام ، يوم أن اندلع القتال ، كان بوزارة الدفاع ، نقل كضابط ركن في احد الألوية المدرعة ، بالتحديد اللواء السادس المدرع الذي كانت باباته تتقدم على الجنزير ، لحق باللواء في منطقة المحمديات التي تقع على الطريق بين بغداد ودمشق ، واصل اللواء تقدمه على الجنزير حتى وصل الى دمشق بسبب عدم توافر العدد الكافي من الناقلات ، غير ان شعور القيادة في بغداد كان يدفعها الى تحقيق المستحيل من أجل دفع الجيش العراقي بأسرع وقت ممكن الى الجبهة السورية ، كانت التعليمات واضحة ، الاوامر صريحة ، التقدم في كل الظروف على الجنزير ، على الناقلات ، بكل الوسائل الممكنة ، يوم ١٤ تشرين (اكتوبر) وصل اللواء الى منطقة (هـ - ٣) ، قابل اللواء عددا من الدبابات بلغ مجموعها كتيبة ، وفجر ١٦ اكتوبر دخل اللواء الى دمشق ، كانت رائحة الحرب فوق المدينة ، وثمة انفجارات مكتومة بعيدة تصل الى الآذان من بعيد ، ربما صوت الانفجارات نفسه ، الصدى ، غير ان هذا كله كان يجسد ليل العتوب والخطر ، جاء رائد سوري من الشرطة العسكرية ، استقبل اللواء ، وبرفقته مجموعة من جناد الشرطة العسكرية ، تقدموا اللواء الى

منطقة الكسوة التي خصصت لتجمع التشكيل ، وكان الجنود السوريون يرحبون بالمقاتلين العراقيين ، يضافونهم ، يصيحون :
- الله ينصركم يا شباب .

في تمام الساعة الثانية ليلا ، تلقى اللواء أمرا من مقر قيادة الفرقة الثالثة المدرعة ، بالتحرك ومهاجمة تل عنتر ، في نفس الوقت علم الرجال أن اللواء المدرع ١٢ (لواء خالد بن الوليد) يخوض معركة مع العدو في سعسع - تل عنتر ، في الفجر وصل قائد الفرقة بنفسه ، طلب سرعة التوجه بالهجوم لطرد العدو من تل عنتر ، وتل المال ، كان جنود وضباط اللواء لم يذقوا النوم منذ ما يقرب من ست وثلاثين ساعة ، وكان أمر اللواء يود بينه وبين نفسه لو نال رجاله قسطا من الراحة ، لكن الموقف كان يقتضي توجيههم السريع الى القتال ، غير أن الجانب الذي كان بمثابة البديل لهذا الارهاق هو حماس الرجال وتشوقهم للمعركة ، شن اللواء المدرع السادس هجوما كبيرا تمكن من خلاله استرداد تل عنتر ، وتل العلاقية ، يوم ١٧ تشرين (اكتوبر) تكامل اللواء بجميع قطعاته على الجبهة ، اشترك مع اللواء ٢٠ في معركة بمنطقة كفر ناسج ، في هذه الليلة سرت الأنباء بين الجنود العراقيين والسوريين بأن طلائع الفرقة السادسة قد بدأت بالوصول ، كان وصول كل تشكيل عراقي الى سوريا يرفع من معنويات المحاربين ، في نفس الوقت الذي يربك خطط القيادة الاسرائيلية التي انقلبت حساباتها رأسا على عقب . أصبحت دمشق هدفا يستحيل الوصول اليه ، وخاصة تصريحات ديان الذي كان يتمنى أن يحتسى القهوة فوق جبل قاسيون .

حوالي الساعة الثامنة صدر أمر من مقر الفرقة بالهجوم فجرا ، وبالفعل قام اللواء العراقي المدرع بهجوم ليلي ، فقد تم تقديم ميعاد الهجوم ، وتمكن من تثبيت مواقعه التي كسبها في تل عنتر والعلاقية ، خلال تلك المعارك كان يحدث شيء هام لدى القوات العراقية ، ويتأكد ، لقد رأى المقاتلون العرب الجندي الاسرائيلي قتيلا وأسيرا وفارا ، خلال فترة وجيزة جدا اكتسبوا معرفة ثمينة بإمكانيات الجندي الصهيوني ، يمكن القول أن حاجزا الوهم الذي صنفته الدعايات المعادية حول قدرات الجندي الصهيوني قد سقط نهائيا ، وطوال الليل شنت القوات العراقية الخاصة هجمات مركزة ضد دبابات العدو ومواقعه .

و يتطلع الضابط الى قمم جبال المنطقة الكردية ، هل تذكره بمرتفعات الجولان ؟

كان واجبنا المقدس الا يدخل اليهود دمشق ، كل جندي وضابط كان يشعر انها مدينته ، وكان حياته ارتبطت بكل شبر فيها . يذكر انه خلال الهجوم على تل عنتر ، والعلاقية ، وخلال المعارك التي جرت عند الهجوم الاسرائيلي المضاد على تل عنتر ، ان اشترك عدد من الجنود الاكراد ، والضباط الاكراد ، كان حماسهم رائعا لقتال العدو العدو الصهيوني ، كان المرافق الخاص معه كرديا ولازال يرافقه في هذا الموقع النائي بمنطقة دربندی خان ، في السماء قبل الرحيل الى كركوك ثم استئناف الرحيل .

المحور الثاني كر كوك . الجولان

.. كركوك ، ٢١٠ كيلو مترا .

اذن سنصل بعد حوالي ساعتين ونصف تقريبا ، بعد مفرق بعقوبة - كركوك ، أصبحت مجموعات النخيل اقل كثافة . على جانبي الطريق امتدت ارض سهلية مغطاة بحشائش قصيرة تكشف احيانا عن رمال حمراء ، للمنطقة طابع خاص ، هكذا كل قسم من العراق ، في شمال العراق تختلف درجات الضوء. من قطاع الى آخر ، في دربندى خان وجلولاء ، حول بحيرة دوكان الفيروزية ، نجد الخضرة اكثر واللون عميقا والمرتفعات شاهقة . ضوء النهار يبدو مبطنا بالظلال ، وفي السماء تطير الهليوكبتر في احشاء وسادة ضخمة من قطن رقيق ، هس ، غامق ، هنا في الطريق الى كركوك حيث المنطقة سهلية الى حد ما ، نمر عبر جبال حميرين ، نخترقها الآن بالسيارة ، تبدو اقل ارتفاعا من زمانكو ، وجبل بشتكو وبمه ، ويمتد حميرين الى يمين والى يسار ، اندفاعه مستمر حتى نهر جلة غربا ، ساعات النهار لا تزال فتية ، والطريق يمتد ، والدهن يرحل الى ايام تشرين ، يستعرض التشكيلات العراقية المتجهة الى الجولان ، ونتوقف قليلا عند اللواء الثامن مشاة آلى .
١٢ اكتوبر ١٩٧٣ :



وصل اللواء الى غوطة دمشق ، لاقاه احد ضباط الشرطة العسكرية السورية ، قاد عربته امام الرتل في بساتين الغوطة . لم يكن قائد اللواء العراقي يعرف دمشق بشكل مفصل ، في سنة ١٩٥٨ مر بها مرورا عابرا ، ثم ان ملامح المدن تتغير في زمن الحرب ، حيث يختل ايقاع الحياة ، تصبح خطى الناس في الطريقات اسرع ، يختفى المتسكعون ، تعلو الجدية وجوه الفتيان والفتيات ، تمرق العربات العسكرية ، لاتمر احداها متمهلة ، ويكتسب مرور سيارة عسكرية معنى خاصا تتجرد منه الايام العادية ، وصل اللواء الى منطقة مكتوب على مدخلها (الجلاء) كان ينمركز بها اللواء السوري المدرع السبعون ، بدت مليئة بالجفر المعدة لايقاد المدرعات ، بدات المدرعات تتجه الى الحفر الجاهزة للتمركز فيها ، حول معسكر الجلاء امتدت تلول ومرتفعات ، لاحظ المقاتلون العراقيون ان القصف المدفعي رهيب جدا ، وقريب ايضا ، كان يوم ١٢ اكتوبر من اصعب واد الايام على الجبهة السورية ، انه اليوم الذي بدأ فيه شن الهجوم المضاد الاسرائيلي بتركيز عنيف ، فيه اشتبكت الواحده المقاتلة من لواء خالد بن الوليد ، انصرف ضابط الشرطة العسكرية السورية ، أصبح اللواء بدون ضابط ارتباط سوري ، بدأوا يستغلون الوقت في توزيع الوحدات والانتشار ، بالقرب منهم انتصبت مضحات وقود ، كانت المشااكل الادارية محلولة ، خاصة فيما يتعلق بالتموين ، طوال الطريق الطويل كان المسئولون العراقيون يتصلون باللواء يشرفون على مسائل الامداد والتموين ، وكان القائد العام للقوات المسلحة ، أحمد حسن البكر قد امر بصرف مبلغ مناسب لكل لواء يتحرك الى الجبهة ، وذلك تحسبا للطوارئ . أصبح لدى قيادة اللواء ثلاثة آلاف دينار كعملة سائلة للمصاريف الطارئة وحتى لا تحترق النقود اذا ما

اصيب مقر القيادة فقد تم توزيع المبلغ على قادة الكتائب والسرايا .
اشتروا خبزا وعنبا ، وتابعوا بأنفسهم وصول الطعام الساخن الى كل جندي
في اللواء ، في نفس الوقت استمر القصف القريب بعنف ، في الجو ظهرت
على صفحة السماء خطوط بيضاء نحيلة ملتوية أحيانا ، مستقيمة أحيانا
أخرى ، صواريخ سام السورية ، وبدا واضحا اصرار طائرات العدو على
الهجوم ، اعداد من الطائرات هوت كالذباب سقاط كل طائرة ميثر زئيرا
من الهتاف والتهليل مصدره مقاتلون ، ومواطنون . . غير أن الموقف
امام قيادة اللواء ظل غامضا ، ان وضوح الموقف على أرض العمليات من
العوامل الاساسية بالنسبة لأي مقاتل يصل الى الجبهة ، يساعده الوضوح
على اتخاذ القرار الصحيح ، قرر قائد اللواء الذهاب الى دمشق ، الى مقر
القيادة العامة ، ركب سيارته ، دخل الى شوارع المدينة ، مرة أخرى رأى
الحرب في الطرقات ، في الابنية ، في أزياء الناس ، أمام معرض دمشق
رأى أشجارا مقطوعة ، متفحمة ، مبنى الاركان العامة مصاب سيارة مقصوفة
محترقة ، الجنود يتمركزون عند النواصي ، بين الحين والحين تمرق سيارة
نقل تابعة للقوات المسلحة السورية ، تحمل صناديق المدخيرة الرمادية
اللون ، أو عددا من المقاتلين . لمح قائد اللواء جنديا سوريا برتبة عريف ،
اقترب منه ، سأل :

— أين مبنى الاركان العامة ؟

أبدي الجندي دهشة ، لم يدر القائد العراقي سببها :

— من أنت ؟

— أنا آمر لواء عراقى آلى ، اريد ان اذهب الى مبنى الاركان العامة .

قال العريف السورى :

— كيف تختارنى أنا لتسألنى مباشرة ، اننى المرافق الخاص للواء

طلاس ، أية صدفة ؟

اتجه العريف الى احدى المناطق ، دخلا الى عدة دهاليز مبطنة
بالاسمنت تحت الأرض ، وبين الحين والحين يتوقفون لمراجعة الاوراق ،
بينما يروح رجال القوات المسلحة ويجيئون جاء ضابط سورى برتبة عقيد ،
رحب بقائد اللواء العراقي ، قال :

— قبلك وصل اللواء مدرع ١٢ (لواء خالد بن الوليد) ، تفضل ، سلم

على القيادة .

مرة أخرى سلك عدة دهاليز ، رأى عددا آخر من الضباط ، فجأة وجد
نفسه في غرفة فسيحة ، رأى الفريق حافظ أسد بنفسه ، أدى التحية
العسكرية ، صافحه ، الى جواره وقف اللواء مصطفى طلاس ، واللواء
الدرديرى ، وبعض كبار القادة السوريين . من الواضح أن الموقف يمر بفترة
عصيبة بمركز العمليات ، وراح أحد الضباط يصدر أمرا بالتليفون .

« خلى القوة الجوية توقف الرتل » .

قال أحد الضباط مخاطبا الفريق حافظ أسد :

لقد جاء ومعه لواء مش ميكا . . (مشاة ميكانيكية) .

هز الفريق حافظ أسد رأسه :

— عظيم لواء مش ميكا .. عظيم جدا .
ثم وجه كلامه الى قائد اللواء العراقي :
انت تعرف ان الحرب كر وفر ، حدث عندنا اختراق بسيط ، ان
وصولكم الآن سوف يبدل الموقف ، هل وصلتكم بهذه السرعة على الجنزير ،
اعلم انكم جئتم على الجنزير ..
اجاب قائد اللواء الثامن مشاة آلى :
— سيدى ، ستصل تشكيلات اخرى قادمة من زاخو ، من السلیمانية ،
ومناطق الحدود الايرانية .

لم يستغرق الحوار وقتا طويلا ، كانت الصيحات تملو في التليفون ،
اشار احد كبار القادة الى الخريطة ، لم يكن لدى قائد اللواء خريطة للجبهة ،
كان الموضع المشار اليه قرية « قيطه » ، قال القائد السورى : امامك لواء
سورى ، ستحتل هنا ، عاد القائد العراقي الى شوارع دمشق ، امام النادي
العسكرى لمح سيارة قائد الفرقة العراقية ، طلع الى النادي ، كان لقاء حارا ،
مضى بعده قائد اللواء الى معسكرات الجلاء بدأ الحركة فى اتجاه دير العدى
لم يصحبه ضابط ارتباط سورى ، لهذا راح يتوقف بين الحين والحين
ليسأل افراد الجرش السورى الشعبى .
— ين دير العدى ؟

فيشسرون الى الاتجاه ، وعلى الطريق تناثرت دبابات محترقة ،
وعربات ، وعجلات ، كان القصف المدفعى الاسرائيلى قريبا ، استطاع تمييز
القصف المدفعى السورى من القصف المعادى ، تقدم الى الامام بصحبة
ضابط عراقى كردى الاصل ، كانا عند مفرق ترابى يتبعد عن دمشق حوالى
٢٥ كيلو مترا ، بدءا استطلاع الارض والمواقع ، تساءل الضابط المرافق :
— اين اللواء السورى ؟ هذا قصف عنيف يا سيدى ، المفروض ان
هناك لواء سوريا امامنا .. لكن ..

بدت الحيرة على قائد اللواء الثامن ، قال الضابط :

سيدى ، اللواء الثامن برقبتهك .

امر القائد بتوقف الكتيبة التى تقدمت ، كانت ملامح الموقف العصيب
الذى تمر به الجبهة السورية قد تجسدت تماما ، عاد الى مقر قيادة اللواء ،
حاول الاتصال بالقائد العراقي فى دمشق ، لكنه كان يتفقد القوات العراقية
فى غابغ ، قرر قائد اللواء الثامن ان يتصرف ، امر الرجال بالانتشار يمينا
ويسارا بمركباتهم المدرعة ، تقدم برفقة حرسه الخاص فى اتجاه الصنمين ،
راى احد الضباط السوريين يحمل مدفعا ، آر . بي . جى — مضاد للدبابات
— ابن مقر اللواء الموجود هنا ؟

اشار الضابط السورى الى قرية (قيطه) ، فى قيطه التقى بقائد اللواء
السورى ، كان مرهقا ، عيناه حمراوان ، لحيته طويلة ، التأثر باد عليه قال
قائد اللواء الثامن :

— العراق صار معكم .

لثم قائد اللواء السورى شارب زميله العراقي :

— الموقف عصيب .. اللواء دمر ، لم يبق منه الا دبابتان .

– اللواء السادس المدرع فى الطريق والباقي يجيء من كل مكان فى العراق .

من مقر قيادة اللواء السورى بقيطة ، اتصل قائد اللواء الثامن بأحد أمرى الكتائب ، أمره بالدخول الى المنطقة التى تقع بين قيطه ، والصنمين ، اثناء دخول الكتيبة ، اغارت عليها اربع طائرات من طراز ميسستر ، بدأ القصف ، فتح الجنود العراقيون النار ، هللاوا – الله اكبر – وكانت هذه اول مرة يطلقون فيها النار منذ وصول اللواء ، فى نفس الوقت جرت محاولة اختراق اسرائيلية ، فى دير العدس اصدر قائد اللواء اوامره بمنع اختراق الجبهة بأى ثمن ، تحركت كتيبة دبابات من قيطه باتجاه كفر شمس . اشتبكت مع الدروع الاسرائيلية ، دمر عددا من الدبابات الاسرائيلية، اشتعلت خمس دبابات عراقية ، فى قرية قيطه التقى عدد من ضباط اللواء الثامن مشاة الى ، بعدد من ضباط لواء خالد بن الوليد ، شرح قائد لواء خالد بن الوليد تفاصيل المعركة الاخيرة التى تمت باتجاه كفر شمس . اثناء حديثهما وصل جنديان الى مبنى المدرسة التى تم فيها اللقاء يحملان احد زملائهما المصاب بحرق ، تجمع بعض المقاتلين حوله ، انصرفوا الى مواقعهم ، عاد ضابط اللواء الثامن الى وحداتهم ، اختلفت حالتهم النفسية . الآن فى الطريق بدلوا اقصى ما فى وسعهم ليلحقوا الحرب قبل ان تنتهى ، الآن تتبدل واجباتهم القتالية ، اصبح من المهم الا يحدث أى خرق اسرائيلى هنا أو هنالك ، هكذا الحرب تتغير فيها الظروف بسرعة ، والاضاع التى تستمر سنوات تتبدل فى لحظات ، ويلعب عنصر المفاجأة دوره ، وتمضى الامور ، ليس كما يقدر أو يتمنى الانسان ، تتبدل ، تتغير ، وعليه مقاومة تغييرها ومحاولة توجيهها كما يريد ، تبدو المواقف الصغيرة لحظات حدوثها وكان كل شىء أصبح متعلقا بها . ان الواجب القتالى المحدود الذى قد يبدو ضئيلا بعد مرور زمن على القتال يكون وقت حدوثه مصير الحرب كلها ، فى ليلة ١٣ اكتوبر وصلت الكتيبة الثالثة الاولى فى جدبة وقيطة ، اما الكتيبة الثانية فأنضمت الى لواء خالد بن الوليد ، صباح ١٣ اكتوبر بدأ توزيع وحدات اللواء اكثر وضوحا ، اذ تم تمركزه على القطاع الممتد من تل شمس الى قرية المسطاح ، وكان المقاتلون السوريون قد وفروا لزملائهم العراقيين خرائط واضحة للمنطقة ، بحيث اصبح قادة الواحدات على معرفة بطبيعة الارض التى يحاربون فوقها ، اعتبارا من السبت ١٣ اكتوبر ، بدأ العدو يركز هجماته ضد جدبة وقيطة ، كان يحاول قصف الواحدات العراقية ، وبعض قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، المنتشرة فى المنطقة ، كان العدو يحاول الوصول الى جديده ، وقيطة ، ثم قطع طريق درعا – دمشق ، فى منطقة الصنمين ، تركزت وحدات اللواء على امتداد حوالى ٢٥ كيلو مترا من تل المال الى الصنمين ، وتعتبر هذه المساحة اكبر من طاقة اللواء وخاصة ان احدى كتائبه ملتحقة بلواء خالد بن الوليد ، وعندما وصل اللواء المدرع السادس الى الجبهة التحقت الكتيبة الثانية باللواء مرة اخرى ، ومنذ يوم ١٣ اكتوبر وحتى وقف اطلاق النار وجه العدو هجمات مركزة وعنيفة ضد هذا القاطع الذى احتله اللواء الثامن مشاة ميكانيكى لعراقى ، الواقع بين

تل المال وحتى لصنمين ، لم ينفذ جندي اسرائيلي واحد ، لم تنجح دبابة معادية في تحقيق أى اختراق ، لاية مسافة ، وخلال تلك المعارك أبدى المقاتلون العراقيون على المستوى الجماعى والفردى ، بطولات رائعة .



• ، ويمضى الطريق بنا الى كركوك ، نمر بالقرب من بلدة « بيات » التى تسكنها عشائر « بيات » العربية ، من وقت الى آخر يظهر راع صغير يقود عشرات الأغنام وأذكر قطعان الماشية التى كانت تجرى وتتفرق فى خطوط منتظمة ودائرية لحظة مرور الهيلوكبتر على ارتفاع منخفض فوق جبال حميرين ، والمناطق القريبة من دربندى خان ، الى الشرق تقع بلدة كبرى ، احدى المدن الصغيرة ، المشهورة فى الشمال ، تقع على السفح الغربى لقمة جبل (بامه شاسوار) سميت كبرى بسبب وجود شجرة الكفر التى يستعملها الناس حطباً للوقود ، كانت كبرى فى قديم الزمان تقع فوق تل يشرف على سهل واسع فى المكان المسمى حالياً باسكى كبرى أو كبرى القديمة ، ويمر من بين أطلالها خط بغداد - كركوك الحديدى ، كان للمدينة القديمة أسوار مرتفعة وأربعة أبواب : باب السليمانية ، وباب كركو ، وباب بغداد ، وباب دوانزه امام ، او الائمة الاثنا عشر ، وهم اثنا عشر مسلماً استشهدوا فى معركة جرت بين الجيش الاسلامى بقيادة عقبة بن فرقد والجيش الفارسى فى السهول المحيطة بكبرى سنة ٢١ هجرية ، فى كبرى ، أيضاً ، نشبت ثورة ضد الانجليز سنة ١٩٢٠ ، كانت مواكبة للثورة التى انطلقت من الفرات الاوسط ، فى تلك الثورة ، سال الدم العربى والكردى معا .

(كان الاكراد يتبارون مع اخوانهم العرب فى الشعبية ، الا انه كان ينقصهم جميعاً كل عدد القتال الحديثة ، فى الوقت الذى كان الانجليز يمتطرونهم فيه بحمم المدافع ، كان العرب والاکراد يقاتلون ببنادقهم القديمة ، وعتادهم القليل ، والاکراد لم يألفوا القتال فى المناطق الصحراوية والشمس المحرقة ، ولئن لم تتمكن الشجاعة ضد قنابل المدافع الثقيلة آنئذ ، فان الكفاح الموحّد هذا قد رسخ أسس النضال المشترك والتآخى فى السلاح بين العرب والاکراد أتاح لهم فيما بعد ، توجيه ضربات أخرى الى الغاصب المحتل ، الا أن رمال الشعبية ضمت رفات العديد من الفرسان الاكراد ، وعليها سال الدم العربى والكردى ، فلا يزال المسنون العرب ، يذكرون بطولات الاكراد فى الشعبية ، وفى الدواوين والمجالس الكردية يتحدثون باعجاب عن بسالة فرسان العرب وكرم الضيافة عندهم (١) . .

ويتوالى ظهور الرعاة ، فى هذه المنطقة القريبة من كركوك قبائل عربية منذ قرون عديدة ، عشائر الجبور واللهيب والكروى ، وعشائر بيات ، والعبير والجحيس ، والبوحمدان ، والنعيم ، والكروية ، وحرب ، وبنوزيد ، والعزه والسعيدات ، والصارع ، والاکراد ، والترکمان .
كركوك ، ٤ كيار مترا .

(١) ابراهيم خان - تأليف مكرم الطالبانى ص ٥١

اذن سنصل بعد نصف ساعة ، يثير الاسم احساسا بالتاريخ ، لماذا ؟ لا أدري ، ربما لاننى قرأت الاسم كثيرا خلال كتب الرحالة ، وبعد لحظات أتجول فى شوارع البلدة ، أرى المكان والناس ، اللقاء الأول بالمدن فيه بكاره الاكتشاف ، متعة المعرفة ، يذكر الاسم ايضا بأحد المحاور الرئيسية التى دارت حولها مناورات القيادة الرجعية فى الحركة الكردية ، منذ اعلان بيان آذار ١٩٧٠ ، وحتى بدء تنفيذ قانون الحكم الذاتى ١٩٧٤ ، احتلت كركوك واجهة بارزة فى المحادثات والمناقشات والرسائل التى تم تبادلها فى الحوار الذى استغرق أربع سنوات ، كانت القيادة الرجعية تعارض الحكم الذاتى ، وتقدم المطالب التعجيزية ، وغير الموضوعية ، طلبوا ضم كركوك الى منطقة الحكم الذاتى ، ان تخصص كل عائدات النفط للاستثمار فى كردستان ، متجاهلين الوجود التاريخى القديم للعشائر العربية ، والتركان الذين يسكنون كركوك ، اما المطالب التى تخص البترول ، فانها تقترب من موضوع التحدى ، كركوك تعنى البترول ، والبترول هو محور التحدى الثورة العراقية للاستعمار عندما قررت تأميمه ، فى عمل ثورى ونموذجى لا يمكن ان تقدم عليه امة نامية للاستفادة من ثرواتها القومية ، كان المنفذ التقليدى هو القضية الكردية ، كما قال أحد الاصدقاء ان الاستعمار يمسك بشجرة الملائ ، كلما أراد اسقاط حكومة فى العراق يهزها قليلا ، نص بيان آذار ١٩٧٠ على اجراء احصاء شامل لتحديد المناطق التى تسكنها اكثرية كردية وضمها الى منطقة الحكم الذاتى ، بشكل مبدئى تقرر اعتبار احصاء عام ١٩٥٧ هو المرجع ، وكان ممثلو الحزب الديمقراطى الكردستانى قد رفضوا الاستناد الى احصاء عام ١٩٦٥ الذى تم تحت حكم عبد السلام عارف ، لانهم يعتقدون انه وجه توجيهها عنصريا ، بعد اعلان البيان قال الملا مصطفى البرزاني ، انه ليس مستعدا للاعتراف بتأجيل الاحصاء اذا كانت تشير الى ان المناطق التى يعتبرها هو كردية ليست وفقا للاحصاء قال بالحرف الواحد ، « ان كركوك جزء من كردستان ، واذا ظهر فى الاحصاء ان اكثرية السكان ليسوا من الاكراد ، فانا لن اعترف بذلك » لم تكن كركوك الاحجة فى ايديهم لاعاقة تنفيذ الحكم الذاتى ، ولكسب الوقت حتى تتم استعداداتهم العسكرية لشن حرب اهلية ، ان سرعة التنمية والتحولات الاجتماعية وتوطيد الجبهة الوطنية التقدمية ، كل هذا جعل الامبريالية والصهيونية تدفع الملا مصطفى البرزاني ، لتنفيذ دوره الرامى الى اشغال الثورة العراقية عن تحقيق التقدم وعن اداء مهامها القومية والتحررية ، ولتعطيل الجيش العراقى عن أداء دوره فى أى مواجهة مقبلة بين العرب والعدو الصهيونى .



فى مواجهة اللواء الثامن مشاة آلى ، أصيبت بعض الدبابات العراقية تقرر الخروج لاستعادة الشهداء ، كانت الدبابات فى مواقع متقدمة ، تتداخل مع الخطوط المعادية ، تطوع للخروج سبعة مقاتلين على رأسهم ملازم ، خرجوا مع بداية الليل ، يعلمون ان الموقف وعر ، ربما أصيبوا ، عندئذ يحتاجون لمن يخرج اليهم كى يعود بهم ، ان الاصرار على استعادة جثة

شهيد ، أمر له مغزاه في الحرب ، لجثمان الانسان الذي ضحى قدسية ، يترك هذا في نفوس المحاربين الاحياء ، يقينا غامضا بأنهم لن يتركوا لو جرحوا حتى لو استشهدوا ، سيصر زملاؤهم على استعادتهم ، لن يصبحوا هياكل عظمية ملقاه بلا مدافن ، ان تتاح الفرصة للعدو كي يمثل بهم . مع ان الموتى لا يشعرون بالم ، يصبح الجسد الانساني الميت رمزا للحياة الراحلة نفسها ، واذا اطمأن الانسان بوعيه أو لا وعيه الى أن جسده لن يترك بعد موته فان هذا يمثل عاملا من عوامل اقدمه وشجاعته . اطمئنان غريب لدى المقاتل ينتابه ازاء هذا الاصرار من قائده وزملائه . مشاعر غامضة : بالتأكد ان المقاتلين السبعة لم يفكروا في كل هذه البواعث النظرية التي نتأملها ، ونجردها بعد انتهاء الموقف والحدث ، ابرز ما كانوا يشعرون به : الاحترام الكامل لهؤلاء الشهداء الذين يرقدون داخل دباباتهم أو حولها . فتحوا الدبابات ، وجدوا بعض رفاقهم مصابين اصابات مباشرة ، اثناء عودتهم بزملائهم الشهداء اشتبكوا مع دورية اسرائيلية . بدأ قتال عنيف : طوال اليوم دارت معارك عنيفة بين لواء خالد بن الوليد واللواء السادس المدرع ، وكتيبة دبابات من اللواء الثامن وبين العدو . هاهي معركة تنشب فجأة ، يقاتل الرجال ، يعو الملازم على رأس القوة التي خرج بها ليعطي تمام لقائد اللواء :

— عدت بالشهداء .. واستشهد من رجالي ثلاثة عدت بهم أيضا ، الملازم صقبان من أصغر الضباط سنا في اللواء ، عمره بالتحديد عشرون سنة : حاكم الوجه ، به آثار ذلك الشحوب الذي يبدو في سني المراهقة الاخيرة ، والذي يعكس احلاما خاصة تدور حول الحب ، وحنين غامض ، ورغبة في الرحيل الى بلاده بعيدة ، كانت لدى صقبان احلامه الخاصة ايضا التي لم ولن يعرف احد شيئا عنها ، وكان قادة التشكيل يراعونه دائما في التمارين . ربما لأنه أصغر سنا ، ربما لأن صورته تذكرهم ببداية حياتهم العسكرية . وما أعمق الاثر الذي يحدث في نفس ان يتطلع الانسان الى آخر فيذكره بسني حياته البعيدة .

كان قائد وحدته يسأل في التدريبات :

— من أحدث ضابط ؟

ويرفع صقبان يده .

— هل تستطيع ان تفعل كذا ، وكذا ..

في مواعيد تناول الطعام ، كان مقعده دائما في نهاية المساندة ، يوم الجمعة ١٦ اكتوبر ، جاءوا الى مقر القيادة اللواء .

— الملازم صقبان استشهد سيدي ..

بدأ القائد متأثرا ، في الحرب ينذر ظهور التأثير على الانسان خاصة لحظات الاشتباك ، بقدر ما يخوض الانسان النيران بذاته ، بنفس القدر يتجرد عن هذه الذات ، لكن استعادة لحظات الموت ، وخسارة الرفاق اشد مما يؤلم ، لاتبرز المشاعر الحزينة على الوجوه ، الا اذا ناعت النفس بحملها ، هكذا حزن القائد ، قال الضابط الشاب الذي جاء ببلغ الخبر :

— سيدى لكم نتمنى ان نستشهد مثل صقبان ، استشهد فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهر الجمعة . . ليتنى استشهد مكانه . هكذا يحاول الانسان تخفيف الاثر ، اختلف الامر لو استشهد فى ساعة تسبق الثانية عشرة أو تليها ؟ لكنه العقل البشرى يحاول تخفيف الموقف ، والخسارة . فى شمال العراق ، كان بعض الضابط يحاربون فى الجبل ، معظمهم شبان ، يصغون الى الأخبار التى تتردد فى الحرب ، فلان استشهد فلان أصيب ، لحظة سماع الخبر لا تؤلم ، لكن عندما يجيء وقت الطعام ، يجدون مكانا معيناً قد خلا . يتحرك الشجن الانسانى كأوعر ما يكون ، لحظة استلام المرتبات ، ينظرون فى الكشوف ، يجدون خطأ أحمر أمام بعض الأسماء ، خط أحمر يلفى كل الشهور التالية ، والسنين ، والأيام ، والآمال ، يلخص المعنى القاس ، ان انسان عشنا معه ، ربطته بنا ذكريات ومواقف عديدة ، هذا الانسان رحل الى الأبد : ابدى قائد اللواء تأثرا : فى نفس اليوم كان ضابط التوجيه السياسى قد أصر على الاشتراك فى دورية قتال كانت متوجهة للاغارة على بعض المدرعات الاسرائيلية . قالوا له ان واجبك لا يدخل ضمن نطاق القتال ، أصر ، مضى ، حارب واستشهد ، فقد لفتزة من الوقت ، عندما عاد المقاتلون بجثث زملائهم ، كانت بينهم جثة بدون رأس ، مصصابة بضربة مباشرة فى البطن : كان يرتدى الزى العسكرى العراقى ، وكانت السترة الخارجية ذات شكل مختلف : وقف أحد الجنود وكان يعمل اصلا حائكا للثياب ، صاح :

« هذا ملازم عصام حسن من الحلة » . .

جثا على ركبتيه .

« انا الذى خيطة له البدلة ، اراد الياقة بهذا الشكل » .

ظل يرد :

« انا الذى خيطة له الياقة هكذا . . »

وبكى .



ركز الاسرائيليون القصف على مواقع اللواء الأماكن التى يربط فيها المشاة بصورة خاصة ، يستخدمون القذائف شديدة الانفجار ، ويركض أحد الجنود ، تصيبه شظية ساخنة حادة ، كأنه ذبح بخنجر ، استمر اندفاع الجسد لحظات ، ثم . . لحظات ثم هوى مبللا التراب بالدم ، هل للموت قانون فى الحرب ؟ أم ان عمر الانسان يخضع لقانون الصدفة ، يتجاوز اثنان ، تجيء شظية ، تصيب أحدهما دون الآخر ، اذا تحدثنا بلغة العلم قلنا ان الموت يخضع لقانون الصدفة فى الحرب ، الانسان البسيط يقول بلا تعقيد « الأعمار بيد الله » واذا جاءت اصابة مباشرة لجندى يقول زملاؤه ، « كان اسمه مكتوب على الشظية » ، من اغرب الأحاديث التى سمعتها وقت الحرب ما دار بين عدد من المقاتلين حول الطرق المختلفة المؤدية الى الموت . بالقصف المدفعى المباشر ، الموت كنتيجة لتفريغ الهواء ، الموت بالشظايا ، الموت بالسلاح الأبيض ، لكن الآراء اختلفت حول الطريقة التى لا يعانى منها الانسان

قط ، وهي اصابتها المباشرة بقنبلة زنة ألف رطل . عبوة رهيبه لا تبقى أثرًا إذا جاءت في الصميم ، غير أن الانسان لحظات القتال لا يرى الموت . . . أبعد شيء عن ذهنه وقتئذ التفكير في الموت ، لحظات التعرض للفصف المباشرة . آخر ما يفكر فيه الانسان الموت ، ربما يتوقع استشهاد زميله ، وا آخر بجواره ، لكن في حدود ذاته هو لا يتوقع الموت ، قد يخاف بعد انتهاء الخطر . عندما يستعيد ما جرى بينه وبين نفسه ، لكن لحظه الاشتباك نفسها يحدث انفصال بين الانسان والواقع . في القتال تسمع المحاربين يصرخون صرخات عالية ، وحشية البدائية لكن هذه الصرخات تعم أذني المقاتل نفسه عن سماع الهول حوله بقدر ما تلقى الرعب في نوس أعدائه ، صرخات تحجيه نفسه عن نفسه ، تحدث من الانفصال المؤقت بين المقاتل والواقع المحيط به بكل ما يحويه من احتمالات الخطر ، وابعاد مفزعة ، ان مواجهة الموت مرة تشجع على مقابله مرات تالية ، حدث أن تعرضت خلال عملي كراسل حربي الى مواقف كثيرة كان خطر الموت خلالها وشيكا ، في إحدى الغارات الجوية أثناء حرب الاستنزاف ، عام ١٩٧٠ على الجبهة المصرية ، كنا نستقل سيارة جيب على الطريق المحاذي لقناة السويس ، فجأة رأينا جنديا يسرع ليختبئ تحت شجرة قصيرة ، قبل اختفائه اشار بيده الى اعلى ، يعني ان هناك طيران ، وصوت الطيران لا يسمعه من يركب سيارة بسهولة ، نرانا ، انبطحنا ، انفجرت قنبلة زنة . . . ٥ رطل على بعد قليل منا ، كانت تستهدف أحد الكباري ان وعيي كان حادا جدا ، يلتقط أدق التفاصيل . أعى حتى الآن درجة اللون الأخضر للحشائش القصيرة القريبة من التربة التي انبطحنا بجانب ضفتها ، لون المبنى الرمادي المواجه ، الحفر الدائرية في أسفل الطريق ، مياه التربة الراكدة ، حشائش صفراء أشبه بالشوك ، سماء حادة صافية لا تخفى جسم الطائرة الذي بدأ نقطة بيضاء تميل في خط منحني لتلقى حمولتها من الهلاك ، وتصعد من جديد ، في السماء استعدت التوقف ورجت أتخيل ماذا كان سيصير اليه حال جثمانى ، أصداء موتى عند الأهل ، والأصدقاء ، في الأيام التالية كنت أمضى الى مواقع وسط الانفجارات ، لا أثر عندي لخوف أو تردد ، يحكمنى شعور غريب ، ألم يكن من المقروض ان أموت يوم الأحد الماضى الساعة الواحدة والنصف ؟ أذن فالوقت الذى عشته خلال اليومين التاليين ليوم الأحد يعد أكثر مما يجب ، انه الوقت الضائع ، لايهم الموت اذن ، وحتى الآن كلما استعدت هذا الموقف أو ما يشابهه ، أرى نفسى بعينين محايدتين ، أو بذاكرة أخرى تعنى موتى . أرى نفسى تائها في الزمن ، ان البشرية في استمرارها تطمس ملامح الأعمام الصغيرة ، وكلما ذهبت الى جبهة القتال ، لا يعينى كيف سارت المعركة أو تطورت ، بقدر ما يؤرقنى ، تصور الآلام التى عاناها جندى لا أعرفه ، لحظة استشهاده ، أو الصور الأخيرة التى تداعت في ذهنه المحتضر . وعندما أسمع الأرقام الصماء تعلق (ونخسرنا أربعة شهداء . . .) أتساءل عن حياة كل منهم ، ان موت انسان يعنى نهاية عالم قائم بذاته ، كما ان الخطيئ يشمل الجميع ، ويجعل للمشاعر أحاسيس موحدة ، في احد المواقف فقد قائد عراقى كبير الى أقصى المواقع الامامية ، تحدث الى الجنود والضباط .

توجيء ، بهجوم من ثماني دبابات اسرائيلية ، كانت الدبابات العراقية في مكان آخر .

— ما هو الحل يا سيدي ؟

ويجيب القائد :

— لن ينسحب أحد ، أما ان نخرج ، او نستشهد ، او نبقي احياء .
وبقدر ما أحس الجنود بالقلق لوجوده معهم خوفا عليه ، بقدر ما أحسوا بدفعة معنوية عالية ، جعلتهم — وهم المشاة — يتصدون للدبابات ، يصرخون منها ، يردون الهجوم ، نفس القائد يقول :

((أنا شخصيا زراني كبار المسؤولين العراقيين سالوني عن احتياجاتي العامة والشخصية ، ذهبوا معي الى المستشفيات ، تصدثوا الى الجرحى والجنود الذين أدوا أعمالا بطولية اهتمت بهم أعلى المستويات القيادية في العراق ، بعضهم رقى الى رتبة ضابط))

يأسأله :

— هل تذكر لنا نموذجا معينا ؟

— نعم . . هناك الملازم عارف علي حسين ، كان ضابط صف خلال الحرب ، ضرب بالمدفعية المضادة للدبابات دبابتين اسرائيليتين ، انه الآن بأحد المواقع العسكرية القريبة من الموصل . .

وأدون الاسم ، ملازم عارف علي حسين ، لعنا نلقاه .
موقف آخر . . أصيب ضابط عراقي برتبة كبيرة ، استقرت شظية في ذراعه ، نزلت دماؤه بغزارة ، نقل الى المستشفى الميداني المتقدم ، أسرع جنوده يتطوعون بدمائهم من أجل انقاذه ، لولا دماؤهم لما استمرت حياته ، ويقول هذا الضابط منفعلا :

— انني أحمل دماء جنودي في عروقي ، أعيش به .

كان الضباط في التشكيلات العراقية يتقدمون من جنودهم ، أحد ملامح الشجاعة العربية التي برزت خلال حرب تشرين ، على جبهة القتال كان الضباط المصريون يتقدمون جنودهم صائحين (اتبعونا) ، نفس الصيحة أطلقها الضباط العراقيون والسوريون أثناء هجومهم على العدو ، هناك لحظات أيضا خلال القتال يستمد فيها القائد معنوياته من جنوده ، التأثير متبادل ومتصل ، أثناء المعركة في الجولان استشهد بعض قادة الوحدات ، بسرعة كان يتقدم مقاتل ويتسلم القيادة ، وفي مواقف أخرى قاتل الرجال قتالاميرا للعودة بجثث الشهداء من الضباط والجنود .
« كركوك » .

أخيرا ، لم نقرأ لافتة ، لكن ظهرت شعلة برتقالية ، نار صريحة واضحة ، لا يسبقها دخان ، نار قريبة من الطريق ، نار ثرية المصدر فهي مستمرة أبدا ، كالبقع البرتقالية على ضوء النهار الأزرق الصافي ، ينحني الطريق عدة مرات ، أخيرا تبدو المدينة ، في السهل خارجها خطوط نارية تتصاعد نحو السماء ، أنها الغازات الطبيعية المشتعلة ، انها حقول البترول .

يتأكد الأحساس بظلال التاريخ عند الولوج الى طرقات المدينة . فوق
قل كبير مستطيل بعض مواضعه مغطى بحشائش غميقة الخضرة ، تقبـح
كركوك القديمة ، يرتفع التل عما يجاوره حوالي ٢٢٠ قدما ، بعض سقوف
المنازل من طين يحوى خصوبة ، مع الزمن نبتت فيه تلك الحشائش الخضراء
التي تشبه الطحالب ، بقية المدينة تحت التل على ضفتى مجرى واسع رأينا
غير ممتلىء بالماء تماما ، انه مجرى (خاسه جاي) ، يقسم المدينة الى نصفين ،
يفصل بين عصرين ، الى الشرق كركوك القديمة فوق التل ، يقول التاريخ
ان الذى أنشأها الملك (سردبنال) أحد ملوك الاشوريين ، ولما انتقل حكم
العراق الى الاسكندر الأكبر ، أصبحت ضمن اجزاء مملكته ، بعد وفاته
وتقسيم ملكه بين قواده الثلاثة (بطليموس وسلوقس وأنطيفونس) .
كانت كركوك من نصيب سلوقس ، هدم مبانيها القديمة ، أقام مبان جديدة
أحاطها بسور فوقه ٦٥ برجاً ، بابان كبيران ، سعى الشمالى منها (باب
طوطى) ودعى الآخر (باب الملك) وكان (طوطى) هذا حاكما عليها جاء بقبائل
كثيرة أسكنها حول السور الذى أقامه ، وصارت تدعى (كرخ سلوك) وهى
تطوير للكلمة الآرامية (كرخاديت سلوك) أى مدينة سلوقس ، ثم انتقلت
الى الفرثيين عام ٢٢٦ ق م بكركوك وبقيت سيطرة الفرس حتى
حرر العرب العراق ، ذكرها المؤرخون العرب والرحالة ، أمثال ابن عبد
الحق (المتوفى سنة ٧٧٩ هـ - ١٣٣٨ م) فى كتابه (مرصد الاطلاع على
أسماء الامكنة والبقاع) ذكرها أيضا ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ -
١٢٢٨ م) ذكرها فى معجمية . تلك هى كركوك القديمة القابعة فوق
التل ، أما المباني الحديثة المنشرة فى السهل ، معظمها شيد بعد تدفق
النفط بكميات كبيرة من جوف الأرض ، اعتبارا من نوفمبر ١٩٢٧ ، نرى
فى السهل بعض المنازل مبنية من الجبس والحجارة غير المنتظمة ، الفضاء
هنا منطلق صريح ، كانت كركوك مركزا اداريا هاما أيام الدولة العثمانية ،
والآن تعتبر من أهم المواقع الاقتصادية بالعراق ، حيث توجد بها منشآت
شركة النفط العراقية الوطنية ، عبرنا شوارع المدينة التى يميل بعضها ،
ويرتفع البعض الآخر ، مما يدل على عدم استواء الأرض ، بعد عام ١٩٦٨ ،
انجزت الثورة العراقية خطوات عميقة ، أبرزها تأميم البترول ، التى تمثل
تحديا للقوى الامبريالية العالمية بدأ الاستعمار يحاول الاستفادة من القضية
الكردية ، كان الاستعمار يسعى طول السنوات الماضية لخلق الفرقة وبت
الشكوك ، والعمل على عرقلة أى جهد حتى لا يعيد الاطمئنان والثقة بين العرب
والاكرد . يريدون فتح هذا الجرح فى جسد العراق وابقائه فى حالة تزيق
مستمرة ، ونلاحظ ان الاستعمار كانت له سياسة ثابتة وان تغيرت ملامحها
فى الفترات التاريخية المختلفة بالنسبة للمشكلة الكردية ، تهدف الى
أضعاف العراق وابقائه متخنا بالجراح ، وذلك منذ العشرينات عندما قامت
بريطانيا بمساندة الشيخ محمود وتنصيبه ملكا على الاكرد فى السليمانية ،
وذلك بهدف ارباب العناصر الوطنية التى برزت خلال ثورة العشرين ،
وحتى السنوات الأخيرة ، عندما قامت الدول الرجعية المحيطة والتى تقهر
أى حركة للاكرد داخل أراضيها بمساندة حركاتهم داخل العراق ، ومدت

عام ١٩٦٨ ، اتسم تعامل الثورة العراقية مع القضية الكردية بالنضج ، وتضمن بعدا آخر ، ولأول مرة تحثك القومية العربية بقومية أخرى تتعايش معها في بلد واحد . وأرض واحدة . مر هذا الاحتكاك بظروف متعددة ، ابرزها التحالف العربي الكردي في مواجهة الاستعمار ، وتحالف القوى الوطنية العربية - الكردية ، ضد أنظمة الحكم الرجعية في العراق والفردية ، وبعد عام ١٩٦٨ ، بدا أن ثورة العراق حريصة على الطابع الانساني لحركتها مع القضية الكردية ، مما يبرز البعد الانساني للقومية العربية ، أثناء تعاملها مع قومية مختلفة ، وهذه الظروف انفرد بها العراق بين كل الاقطار العربية نتيجة لظروف التاريخية ، ويبرز بيان الحادي عشر من (مارس) عام ١٩٧٠ الاطار النظري لهذا الطابع الانساني ، ويتضمن - برغم اعتباره بيانا سياسيا - عددا من الخطوات الهامة التي تعكس الواقع العملي لهذه النظرة ، كإبراز التراث الثقافي الكردي وانشاء جامعة كردية بالسليمانية ، ومجمع علمي كردي ، وتدریس اللغة الكردية في المدارس ، وتعميم الكؤلفات الكردية ، واقامة اتحاد للادباء الاكراد ، واعتبار عيد الدورز عيدا وطنيا في الجمهورية العراقية ، واصدار عفو شامل عن المدنيين والعسكريين الذين اشتركوا في أعمال العنف بالشمال واعادة الطلبة الذين فصلوا أو اضطروا الى ترك الدراسة بسبب ظروف القتال في المناطق الشمالية الى مدارسهم بغض النظر عن أعمارهم ، أو ايجاد علاج ملائم لمشكلاتهم ، واعادة العمال والموظفين والمستخدمين من المدنيين والعسكريين الى الخدمة وتخصيص رواتب تقاعدية لعائلات الذين استشهدوا في ظروف القتال المؤسفة من رجال الحركة الكردية المسلحة ، وللعجزة والمشوهين ، والعمل السريع لاغاثة المتضررين والمعوزين عن طريق انجاز مشاريع سكنية وغيرها تؤمن العمل للعاطلين ، وتقديم معونات عينية مناسبة واعطاء تعويض معقول للمتضررين الذين يحتاجون المساعدة ، واعادة سكان القرى العربية والكردية الى اماكنهم السابقة ، والاسراع بتطبيق قانون الاصلاح الزراعي في المنطقة الكردية وتعديله بشكل يضمن تصفية العلاقات الاقطاعية وحصول جميع الفلاحين على قطع مناسبة من الأرض ، واعفائهم من الضرائب الزراعية المتراكمة عليهم خلال سني القتال المؤسفة . ان الحكم الذاتي للاكراد الذي أعلنته ثورة العراق في بيان مارس ١٩٧٠ ، يجب أن يفهم اطار موقعه من تاريخ النضال الكردي . لقد كانت الحركة الوطنية الكردية التقدمية ، تعتبر (الحكم الذاتي) مطلبها أساسيا طوال تاريخها ، ومحور كفاحها . وفي بعض الفترات كانت تطالب بالاستقلال الاداري ، ومنذ الحرب العالمية الثانية كانت الحركة التحريرية الكردية قد وضعت جانبا شعار دولة كردية مستقلة منفصلة عن العراق ، وحملت بديلا عنه شعار الحكم الذاتي للشعب الكردي ، وطالبت الاحزاب التقدمية العراقية طوال تاريخها بالحكم الذاتي للاكراد . وجاء في التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي :



- ان الحركة القومية الكردية في العراق برغم بعض الملاحظات التاريخية التي رافقتها وما تحتويه من شوائب واتجاهات انعزالية رجعية بعضها على صلات مفضوحة بالدوائر الاستعمارية والرجعية . فهي من حيث الجوهر والاساس حركة قومية تمتلك في حدود مطالبتها بالحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي في اطار لجمهوروية العراقية وعلى رأسها الحكم الثاني . مبررات مبدئية وواقعية ، وانها في هذا الاطار ، جزء اساسي من الحركة الوطنية في القطر العراقي .
 - ان حزب البعث العربي الاشتراكي حزب قومي انساني واشتراكي وديمقراطي العقيدة لذلك فان من الطبيعي تماما ان يتفهم الحقوق المشروعة للجماهير الكردية ، وان يناضل في سبيل تأمينها وضمانها ، ولما كان الحزب يقود السلطة الثورية في البلاد منذ ٣٠/١٧ تموز ١٩٦٨ ، فانه يتحمل المسؤولية الاساسية في ضمان هذه الحقوق في ضيق دستورية وقانونية واجرائية .
 - ان المنهج الاساسي والثابت الذي يعتمد عليه حزب البعث العربي الاشتراكي في الوصول الى تأمين هذه الحقوق وضمانها ، هو المنهج السلمي والديمقراطي عن طريق التعاون المخلص والايجابي مع القوى الخيرة الوطنية والتقدمية في صفوف الجماهير الكردية . وفي اطار العمل الوطني المشترك المتمثل بالجبهة الوطنية والقومية التقدمية .
- ويمضي التقرير السياسي في عرضة للمشكلة التقدمية :
- ولتلك الاعتبارات سعى حزب البعث العربي الاشتراكي بكل الطرق المتاحة ومنذ ١٧ - ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، لحل المسألة الكردية التي كانت قد بلغت درجة كبيرة من التعقيد والتشابك بسبب التدخلات المتعددة التي طرأت عليها وبخاصة التدخلات الاجنبية ، والدكتاتورية من الجماهير الكردية وتطلعاتها المشروعة ، واستمرار القتال سنوات طويلة ، وبسبب اوضاع الحركة الكردية ذاتها وعوامل عديدة اخرى . وفي الواقع كانت المسألة الكردية اكثر المعضلات التي واجهت حزب البعث العربي الاشتراكي والثورة خلال السنوات الماضية صعوبة وتعقيدا ، فقد كان عليه ان يبلور صيغة نظرية وعملية تنسجم مع طموحات جماهيرنا الكردية القومية ووحدة البلاد ، ووحدة حركتها الوطنية والتقدمية ولا تتعارض مع اهداف النضال العربي . وقد استطاع الحزب ان يجد الصيغة الصائبة والمتكاملة من النواحي النظرية والسياسية والعملية وان يسجدها في الوثيقة التاريخية العظيمة - بيان الحادي عشر من (آذار) سنة ١٩٧٠ - الذي يعد نقطة تحول تاريخية في نضال جماهيرنا الكردية وتطلعاتها القومية المشروعة ، وفي نضال شعبنا في القطر العراقي بأسرة من أجل بناء مجتمع ديمقراطي تقدمي مزدهر .

« غير أن مسيرة بيان الحادي عشر من آذار ، لم تجر بالشكل الذي كان يأمله حزب البعث العربي الاشتراكي ، فلقد ارتكبت في ميدان التعامل مع الحزب الديمقراطي الكردستاني بعض الأخطاء من جانب أجهزة الحزب والسلطة ، ولعل في مقدمة تلك الأخطاء تعدد الأجهزة والمراكز التي كانت تتعامل معها . وبدون تنسيق في غالب الأحيان مع مختلف شئون المسألة الكردية ، وقد أدى ذلك وخلال فترة طويلة الى فقدان السيطرة المركزية على الأحداث والتطورات والى الضياع في المسائل والمشاكل الثانوية والتفصيلية على حساب القضايا الأساسية ، والتصورات المأزوية » .

((وفي الجانب الآخر ، فإن قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني لم تتصرف في أغلب الأحيان مع منطلق الوحدة الوطنية والتحالف الصادق مع حزب البعث العربي الاشتراكي ، والذي كان يفترض انه نشأ بعد اعلان بيان آذار)) .
((وخلال الفترة الماضية (١) لم تضعف العناصر والتيارات الرجعية والعميلة والمشبوهة والانفصالية النافذة في قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني ، وبالدرجة التي كانت متوقعة قبل اعلان بيان آذار وبعده ، وقد ارتكبت هذه العناصر أعمالاً تخريبية واسعة النطاق . وقامت بنشاطات اعلامية معادية للحزب والثورة على الداخل والخارج ، وكانت خلال المرحلة الماضية وما تزال مركز استقطاب لكل القوى المعادية للحزب والثورة من عرب وأكراد ، وتعاونت مع المتآمرين على الحزب والثورة ، ومنحتهم الحماية في المناطق التي تسيطر عليها ، وهي ما تزال حتى اليوم تتعاون مع الدول الرجعية في المنطقة والقوى الاستعمارية وبشكل مكشوف تماما ، لاضعاف الحزب والثورة ، بل للتآمر عليها . وان هذه التيارات والعناصر تشكل اليوم ، الاحتياطي الأول لقوى الاستعمار والردة داخل القطر العراقي)) .

((وبعد أربع سنوات من النضال المثابر على طريق الجبل السلمي والديمقراطي للمسألة الكردية ، لم تعد الاتجاهات السياسية والاقتصادية والنفسية العامة للجماهير الكردية كما كانت عليه قبل بيان الحادي عشر من آذار ، أن قطاعات واسعة من جماهيرنا الكردية تجد الآن من عناصر الأمن والاطمئنان في حياتها ، أكثر مما كانت تجد في أي وقت مضى ، كما تلمس بصورة مباشرة نتائج سياسة الثورة في تلبية حقوقها المشروعة وفي تحسين مستوى حياتها في سائر الميادين . وفي الوقت نفسه ، فإن استمرار حالة السلام خلال السنوات الأربع الماضية ، قد خلق ظروفًا اقتصادية

(١) المقصود الفترة السابقة على كانون الثاني ١٩٧٤ ، والتي سبقت المعارك العسكرية في

جديدة في المنطقة الشمالية ، وأصبح عدد المواطنين الاكراذالذين يرتبطون بالانتاج الزراعي والصناعي وبالفعاليات التجارية المتصلة هي الأخرى وبدرجات متفاوتة بالحياة الاقتصادية الوطنية للبلاد أكثر من ذي قبل ، كما أن استقرار النظام وتوطده ونجاحه في انجاز الكثير من المشاريع الصناعية والزراعية والاروائية والسياحية ومشاريع الخدمات في المناطق الشمالية ، قد خلق ظروفًا موضوعية لصالح السلام في النهاية ، وأصبحت مهمة العناصر المحرّضة على التمرد والتخريب أصعب من ذي قبل بكثير، بل أن محاولات هذه العناصر غالبًا ما تصطدم بالمواقف السلبية من جانب جماهيرنا الكردية ، برغم ما تستخدمه من وسائل التحريض والأرهاب » .

حرصت ثورة العراق على الأسلوب السلمي في معالجة المشكلة ، لكن القوى الرجعية في الحركة الكردية بدأت في تأزيم المواقف ، وخلال انسنوات الأربع الواقعة بين صدور بيان آذار ١٩٧٠ ، وقانون الحكم الذاتي في آذار ١٩٧٤ ، تمت جهود دؤبة من ثورة العراق لتجنب الصراع المسلح، ولكن قى نفس الوقت ، كانت القوى الرجعية تقابل كل خطوة تقدمية تخطوها الثورة ، تقابل بزيادة المسافة التي تفصل بين القوى الرجعية والثورة . وفي سنة ١٩٧٢، بدأ من الواضح أن الدول الأجنبية والرجعية ، قد بدأت تكثف مساعداتها للقوى الرجعية ، وكما يتضح من تاريخ الحركة الوطنية الكردية فإن أبعد القوى عن الحرص على مصالح الشعب الكردي ، وادري أعدائه القوى الاستعمارية، والرجعية المحلية والطبقات الاستقلالية . ولهذا الموقف أسباب موضوعية عديدة ، منها الأهمية الاستراتيجية والتي تتركز في منطقة الحكم الذاتي بالعراق حيث تعتبر الجبال الشاهقة حزامًا طبيعيًا يفضل الاتحاد السوفييتي عن الشرق الأوسط ، ومن الخطط العسكرية لحلف الناتو ، الاستيلاء على هذه الجبال ، وتلقيم مهراتها بالغام نووية ، ورغبة الدول الاستعمارية في استثمار حالة التفتت ، وعدم حل المشكلة حلا عهليا عادلا وإنسانيا ، لأزيم هذا سيؤدي الى ترسيخ الوحدة الوطنية العراقية ، ويسد منفذا هاما بوجه المؤامرات السياسية والعسكرية والاستعمارية ، وركيزة الاستعمار في المنطقة ، هي القوى اليمينية والعشائرية ، التي يحركها حينما تتطلب مصالح الاحتكارات النفطية ، أو الاحلاف الاستعمارية والمؤامرات ، العدوانية من جهة أخرى ، بريطانيا في الاستفادة من حركة الشيخ محمود ، هاجمته بكل قسوة ، عاملت الحركة الحركة بعنف دموي ، وعنما قامت جمهورية مهاباد في إيران ، قمعت بقوة وقسوة ووحشية ، وساعدت الجيوش البريطانية ، والأمريكية ، الجيش الإيراني في العمليات العسكرية التي أدت الى قمع الجمهورية الجديدة ، كان الاستعمار يبحث ، باستمرار ، عن ركائز له في المنطقة .

اذن ، يتضح الهدف الحقيقي من تدفق المساعدات الأجنبية على القوى الرجعية في الحركة الكردية ، خلال السنوات الأربع (١٩٧٠ - ١٩٧٤)

والتي كان يهدف فيها ، للحرب ضد السلطة الثورية في العراق . ان قوى الاستعمار هي آخر من يحرص على حقوق الشعب الكردي ، لان هذا مناف لمنطق التاريخ .

ومن المثير ، ان بعض الدول التي يعيش فيها اكراد ، كانت تقدم الدعم العسكري المباشر والاقتصادي والمعنوي للقوى الرجعية بقيادة الملا مصطفى البرزاني ، بينما تنكر على الاكراد المقيمين بها ، حقوقهم البسيطة وتضطهدهم ، هناك عوامل متداخلة تحكم هذه الدول الرجعية ، منها النياية عن أميركا في التدخل المباشر بالحركة الكردية ، الى جانب الخوف من نجاح تجربة الحكم الذاتي في العراق ، مما يدفع الاكراد بها ، الى المطالبة بالمثل ، من ناحية أخرى كان التمرد المسلح في الشمال يرمى من وجهة نظر الدول الاستعمارية ، الى هدف آخر ، وهو انهك الجيش العراقي ، واستنزاف موارده ، وطاقاته القتالية ومعداته ، بعد اعلان بيان مارس ١٩٧٠ ، قالت صحيفة معاريف الاسرائيلية في عددها الصادر بتاريخ ١٢ مارس ١٩٧٠ :

« ان اعلان الحل السلمي للمشكلة الكردية في العراق ، سيمكن الحكومة العراقية من توجيه إمكانياتها العسكرية للوقوف بقوة وثبات ، على الجبهة الشرقية » .

ثم أثارنا صحيفتنا (معاريف) و (دافار) الموضوع ، عندما أعلنتنا أن « بيان ١١ مارس » الذي يكفل للاكراد حقوقهم القومية في اطار الجمهورية العراقية المدحلة ، يعني أمرين بالنسبة لاسرائيل :

- امكانية قيام العراق بدور أكبر في المواجهة ضد اسرائيل ، وذلك بتحويل ٢٠ ألف جندي الى الجبهة الشرقية ، فضلا عن توفير ٩٠ مليون دولار كانت تستهلكها الحرب مع الاكراد .
- انضمام بعض المحاربين الاكراد ، وهم متمرسون على حرب العصابات ، الى المنظمات الفدائية الفلسطينية ، بكل خبراتهم في القتال وطاقاتهم عليه .

لقد أثبتت التجربة ، ان الجيش العراقي قوة يعمل لها حساب كبير في الصراع الآخر الدائر في المنطقة ضد الصهيونية ، ولولا تدخله في أكتوبر ١٩٧٣ ، سواء على مستوى التدريب ، أو التسليح ، أو من ناحية العديده ، حيث أصبح يعبر من حيث الحجم ، الجيش الثاني في المنطقة بعد الجيش المصري ، وبالتالي فان اشغاله في الشمال ، سوف يؤدي الى عدم تدخله ، أو الى تدخل محدود في حالة نشوب الصراع المسلح من جديد ضد الصهيونية . كتطبيق عملي للمنطلق الانساني الذي اتبعته ثورة ١٧ يوليو ، في معالجة القضية الكردية ، حرصت قيادة الثورة على تجنب الصدام المسلح مع الجيب اليميني في الحركة الكردية ، لهذا استمر الحوار أربع سنوات كاملة ، من سنة ١٩٧٠ حتى ١٩٧٤ ، غير أن هذه السنوات ، كان لها جانبها الايجابي ، شهد العراق عدة مشاريع هامة ، قامت الثورة بتنفيذها ، ويوما بعد يوم كانت الهوة تزداد اتساعا بين قيادة القوى الرجعية ، وبين الشعب الكردي ، ان الشعارات التي رفعتها الحركة الكردية ، وأبرزها

الحكم الذاتي قد بدأت الثورة تطبيقها فعلا ، اذن ماذا يريدون ؟ صفوف الثورة ، وتحمل السلاح معها ، فى نفس الوقت ، بدأت المساعدات تتدفق على الملا من الدول الاستعمارية واسرائيل ، وذلك لتحقيق ثلاث خطوات :

أولا : رفض الحكم الذاتى رفضا تاما .

ثانيا : تصعيد المشاكل الى أقصى حد ، وأشعال الحرب .

ثالثا : الانفصال عن العراق .

وخلال السنوات التى سبقت بدء التمرد المسلح ، استهدفت جميع الخطوات التى تتخذ من جانب الملا ، والجناح الرجعى ، تحقيق الانفصال التام ، وندمير الوحدة الوطنية للشعب العراقى ، ولتنفيذ هذا بدأ على المستوى العسكرى يعد قواته لتحقيق المخطط ، بدأ فى تشكيل عدة ألوية نظامية ، لقد نبذوا أسلوب حرب العصابات الذى كان متبعاً خلال فترات الصراع المسلح الماضية .

خلال تلك المراحل ، كان السلاح السائد لدى الاكراد الذين يقاتلون الجيش ، البندقية ، مع تطور الزمن ، بدأوا يستعينون بأسلحة أكثر تقدماً ، يقول أحد ضباط المدفعية الذين حاربوا فى الشمال سنوات طويلة :

« كان سقف الموقع الذى ننام فيه ، يعكس تسليح الجانب الآخر فى البداية كان عاديا يكفى لصد طلقات البنادق ، وعندما تسلحوا بالرشاشات الثقيلة والمتوسطة ، اضطررنا ، الى إضافة سمك آخر اليه من الأحجار ، وبعض أكياس الرمل ، وعندما تسلحوا بالهاون وبعض أنواع المدفعية المتوسطة ، اضطررنا الى تدعيم السقف بالخرسانة ، والقضبان الحديدية » .

خلال هذه الفترات ، كان الاكراد ، يحاربون حكومات دكتاتورية ، ورجعية تحكم العراق ، واشترك معهم الكثير من المناضلين العرب فى العراق الذين وقفوا ضد الحكم الرجعى والفاشى ، لكن عندما بدأت القوى الرجعية تتصدى للثورة والقوة الثورية اختلف الأمر ، تدفق العتاد والأسلحة الحديث من معسكر الرجعية العالمية ، أصبح التسليح متطورا ، أحدث أنواع المدفعية المضادة للطائرات ، أحدث أنواع الألغام المضادة للدبابات ، والأفراد ، كميات كبيرة من العتاد ، أما التنظيم العسكرى فقد اختلف ليتفق مع الهدف الجديد الانفصال « هذا يعنى ضرورة التمسك بالأرض ، لهذا ، انتشرت التشكيلات النظامية لتغطى المناطق المزمع الانفصال بها ، وأصبح التنظيم العسكرى يضم عدة هيئات « الهيز » كلمة كردية تعنى وحدة عسكرية نظامية يبلغ تعدادها من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ محارب وتقارب اللواء ، ويقسم الهيز الى ثلاثة (بتاليون) أى ما يوازى كتيبة ، ويوجد تنظيم أصغر (الق) ويعنى السرية ، (سربل) أى الفضيحة ، ويوجد تنظيم أكبر من الهيز ، وهو (الاشكر) ويقارب مع تكوينه وعدده ، الفرقة . كان لدى العصاة فى الشمال ، حوالى ١٥ هيز ، وزعوا على المناطق المختلفة ، وبلغ عدد هذه الهيئات ، حوالى ثمانين ألف مسلح ، وقوة من المدربين تدريباً خاصاً كانت تتبع قيادة الملا مباشرة ، كانوا فى السنوات الماضية ، يتجمعون ، ويضربون

ثم ينسحبون . لكنهم في هذه المرة ، قرروا الاحتفاظ بالأرض ، التشييب
بها . وفيما بعد وخلال المعارك العسكرية ، كانت قيادة الملا ، ترسل
برقيات الى تشكيلاتها في المناطق التي يدور فيها القتال :

« نطلب منكم التمسك بالأرض حتى آخر .. »

« تمسكوا بكلى على بك حتى آخر .. »

« تمسكوا بزوزاك حتى آخر .. »

زودت هذه القوات أيضا ، بأسلحة ثقيلة ، في نفس الوقت ، وعد
التدخل الاجنبي ، بتقديم الدعم العسكري للتمردين ، وذلك عن طريق
الأسناد المدفعي من خارج الحدود العراقية ، بواسطة المدافع بعيدة المدى
من طراز ١٧٥ مللى ، والتي لم تزود بها الا اسرائيل في المنطقة واستخدمتها
على الجبهة المصرية ، خلال حرب أكتوبر . من ناحية أخرى ، فان المدفعية
الثقيلة الاجنبية ، تدخل الى المناطق التي يسيطر عليها المتمردون ، وتعمل
من داخل هذه الأراضي مع أخذ احتياطات معينة ، وهي ارتداء الجنود
الاجانب ، ملابس كردية وغالبا ما يكون هؤلاء الجنود من أفراد إيران .
وكانت إيران تدفع عددا من أفرادها أيران للالتحاق بالتمرد الرجعي في
العراق ، وسوف يكون هذا أحد الأسباب التي أدت الى تغيير موقف إيران ،
فيما بعد . وأرسلت أميركا ، بعض مستشاريها العسكريين الى قيادة الملا
لمساعدته ، ويقول عبد الله البرزاني ، ابن الملا مصطفى ، والذي انضم الى
الثورة العراقية ، أنه رأى خبراء أجانب ، أميركيين وصهاينة في مقر
والده ، كانت قوات التمرد تعتبر المنطقة المحصورة بين صلاح الدين ،
وامتدادها شرقا وجنوبا مع حافة بازيان ، تدخل ضمنها منطقة دربندى خان
الى جلولاء ، تتجه شمال غرب الى دهوك رزاخو على الحدود التركية -
العراقية ، هذا الخط الهلالي ، مهيا للدفاع بتلك السلسلة الجبلية الوعرة
المتحكمة ، والتي تتخلها مضائق جبلية صعبة تعتبر أوعر الممرات في العالم ،
كان للجيش العراقي خلف هذا القوس ١١ كتيبة موزعة على كل المنطقة ،
وترابط في مواقع متفرقة فوق قمم الجبال ، قدر الخبراء العسكريون
الأميركيون والاجانب ، مدة ثلاثة شهور لحصار هذه الكتائب ، ثم استسلامها ،
وخلال هذه الفترة ، تقوم قوات التمرد بصد جميع الهجمات الرئيسية التي
سيقوم بها الجيش العراقي في محاولة الوصول الى مواقع هذه الكتائب
لفك الحصار عنها ، ولكن الملا مصطفى البرزاني ، قدر المدة بستة شهور ،
سيحكم خلالها الحصار ، وسيقاتلون خلالها بأسلوب نظامي ، يمنع تقدم
الجيش على جميع المحاور ، والطرق ، الممرات الجبلية الوعرة ، وبعد أن
يتم تسليم جميع كتائب الجيش العراقي في المنطقة ، تقوم أميركا والقوى
الاستعمارية الرجعية ، حملة دعائية مكثفة ، يتم خلالها ، طرح القضية على
الأمم المتحدة ، وتبدأ الخطوات العملية لتحقيق الانفصال الكامل .
هل كانت الثورة العراقية ، تعلم بهذا المخطط ؟ أن تفاصيل الخطة
العسكرية ، أدلى بها الأسرى فيما بعد ، واثبتتها الوثائق ، لكن قبل مارس
١٩٧٤ . هل كانت الثورة تعلم بنية القيادة اليمينية ، بتنفيذ هذا المخطط .

خلال الفترة السابقة على ١١ مارس ، كان كثير من الاكراد ، يطلعون الجبل ، ويمرون عبر مخافر الجيش التي ستحاصر طبقا للخطة الموضوعة . ونجد دارا توفيق رئيس تحرير جريدة (التآخي) وهو من الرجال المقربين الى الملا ، وقد أغلق مكاتب الجريدة وقتئذ ، وجاءت عربات نقل لتحمل الاثاث والكتب من قلب بغداد لتمضي الى الجبل ، وفي احدى الادارات بالحكومية ، جاء صباح أحد الأيام مهندس كردي يعمل بهذه المصلحة ، فتح ادراج مكتبه ، أحرق بعض أوراقه الخاصة ، ثم أخذ الباقي ، ومر على زملائه مصافحا ، وقال لكل منهم ، انه قرر أن يطلع الجبل ، بل أن (ادريس البرزاني) ابن الملا مصطفى وقائده العسكري كان قد زار بغداد ، قبل أيام قليلة من ١١ مارس ١٩٧٤ .

هل كانت الثورة العراقية ، عاجزة عن التصدي لهؤلاء ، منعهم من الطلوع الى الجبل ؟ بالتأكيد ، لو حدث هذا في زمن أي حكومة سابقة ، لكان أسهل الأمور هو الاسراع بالقاء القبض عليهم ، والمبادرة بشن الهجوم العسكري بأسلوب تقليدي ، لقد كانت التحليلات السياسية للثورة ، تثبت وتؤكد ، ان القوى الرجعية ، سوف تبدأ القتال ، لكن النضج الثوري كان يقطع الطريق على أي خطوات تشنعية أو عصبية ، كانت القوى الرجعية تزداد عن الشعب الكردي ، مما اضطرهم الى استخدام أساليب أرهابية لضم مقاتلين اكراد اليهم ، كمحاصرة قرى بأكملها ، وترحيل عائلاتها الى إيران ، وبهذا يضمن وجود رب الأسرة الى جانب التمرد ، كان إخلاء القرى أيضا عملا عسكريا من جانبهم ، يعكس الهوة بينهم وبين الشعب ، ومع بدء الحرب ، تحول الى سلاح ضدهم .

وفي الجانب الآخر ، كان العمل السياسي الدؤوب الناضج الذي تقوم به الثورة ، والذي استمر ، في الواقع ، لمدة أربع سنوات ، يتحول بسبب مواقف المتمردون ، الى المجال العسكري ، فبعد ١١ مارس ١٩٧٤ ، تقدمت قوات المتمردون بقطع الطرق ، ومنع المرور عليها ، ونفذوا حركة اغتيالات واسعة للعناصر التقدمية الكردية ، وتعود بحصار كتائب الجيش .

تلاحظن

باختصار ..

بدأوا الحرب ..
بثع كثرب تنفم غففض
ونعود مرة أخرى الى كركوك ، المسافة بين قيادة القطاع والمدينة ليست كبيرة ، عدة ساعات قضيناها هناك ، يبدو السهل منبسطا ، وآخر ما تبقى من ضوء الشمس ينسحب من السماء بسرعة ، نحن في بدايات مارس ١٩٧٥ ، المناخ بين بين ، لكنه في السماء ينطفئ . يميل الى برودة . حقول النفط وشعلات النار تزداد توهجا ، تبدو من الطريق ، متلاحمة ، متجاورة ، وأذكر وصف آدموندز أحلام الحكام الانجليز ، لهذه الشعلات عام ١٩٢٥ . ربما انطفأت الشعلات التي رآها آدموندز ، ربما هي تلك التي نراها الآن ، نار أزلية لم تهدأ ، لم تنطفئ عند الغروب يبدو التاريخ في المدينة فوق المرتفع ، تبدو البيوت القديمة أكثر اتساقا مع درجات الضوء الضعيفة ، الصفراء وكأنها رائحة التاريخ البعيد . ثمة عرب واکراد

يجلسون على اجزاء من سور حجري قديم ، ولقاهي الصغيرة مطلية جدرانها باللون الأبيض ، لاتوجد مقاعد ، انما كك خشبية بيضاء . يجلس عليها الرجال متجاورين ، بعكس المقهى المصرى الذى يضم مناخذ يجلس اليها الرواد متواجهين ، يكثر من المزارات والمساجد والأماكن الاثرية ذات الطابع المميز ، من أبرز الاماكن ، القبر المعروف بقبر (دانيال) وتروى حوله أسطورة ، يبدو انها مستوحاة من النيران الأزلية للغاز الطبيعى ، كانت هذه النيران مشتعلة دائما حتى قبل ان تعمل شركة النفط فى استخراج البترول على نطاق واسع ، فى هذه الاماكن ، كانت آبار نفط بدائية حفرت بأدوات يدوية ، وكانت هذه الطرق تستخدم لاستخراج البترول منذ قديم الزمان ، ويوجد قبر آخر ، اقيم تخليدا لسيدة نبيلة ، اسمها بغدادى هانم ويعنوه برج مثنى الاضلاع ، وقبر آخر لأحد مشايخ الصوفية المنتمين للطريقة النقادرية ، ويقال أن السلطان العثمانى عبد الحميد . كان يرأسه بشجرة خاصة يسأله الراى والمشورة ، ان الطرقات الضيقة فى الأحياء الشعبية من المدينة ، والحوارى التى تذكرنا بجوارى ألف ليلة ، والوكالات ذات الأبواب الضخمة ، تضى على المدينة ذلك الطابع التاريخى الخاص ونمضى فى المدينة المزدحمة ، وتمضى الحياة من حولنا ، وحوالى العاشرة ليلا . يخف الزحام من الطرقات ، وتغلق المتاجر ، ولايبقى ساهرا حتى ساعة متأخرة الاصيدليات الخضرة وحائكى الثياب ، نعود الى الفندق فى ساعة مبكرة ، فى الغد سنكب الهيلو كبتنر مرة أخرى ، رأسا الى الجبال التى لاتزال تشهد بعض المعارك ضد العصاة ، الاتجاه الى مواقع الخطر ، الأحساس الغامض الذى يشعر به الانسان ، أين سأكون غدا فى مثل هذا الوقت تماما ؟ كيف ستكون رحلتنا فى الجبل ، مجرد خواطر تعبر سريعة ، ثم يعود الذهن الى ترتيب ماسنقوم به ، والتفكير فى المشروعات المؤجلة . ونمر ساعات الليل ، بينما المدينة ملفوفة بوهج نارى دائم . أن السماء فوق البيوت تبدو حمراء ، متوهجة وكأن حريقا هائلا قد اشتعل فى الكون ، أن شعلات النار الأزلية التى رأيناها مرسومة فوق ضوء النهار ، تنفرد بالمدينة فى الليل ، تتوهج السماء والطرقات وتوارى النجوم البعيدة ، أنظر الى السماء أصغى الى الهدوء المستتب ، وصيحات بعض الدرك هنا وهناك ، (كركوك) لم قرأت الاسم وهانذا أنام تحت النادى المتأجج بالضوء ، وأقلب أوراقى ، غدا سألتقى بمقاتلين اشتراكوا فى حرب تشرين ، ويحاربون الآن من أجل وحدة وطنهم ، أعود مع الأيام الى حرب أكتوبر ، الى معارك اللواء المدرع ١٢ ، أو لواء خالد بن الوليد ، أول لواء مدرع عراقى يصل الى الجبهة السورية ، أول لواء عراقى يصطدم بإسرائيل فى حرب تشرين ، سمعت الكثير عن بطولات هذا اللواء ، وعن جنوده وضباطه ، فى الجيوش الوطنية ذات التقاليد العريقة ، يسمع الصحفى أو الكاتب ، أثناء تجواله سره بين وحدات الجيش ، أو المواطنين عن وحدة معينة ، أو ضابط معين . وجندى معين ، يتحدث أكثر من طرف عن دور معين أداء مقاتلون أو مقاتل انها البطولة ، لكل جيش وطنى أبطاله الذين يتحدث عنهم ، وتروى

أعمالهم وتصبح جزءا من تراث الامة .



قرأت وسمعت عن دور اللواء المدرع ١٢ ، (لواء خالد بن الوليد) ، وأقلب أوراقى ، ان معركة هذا التشكيل العربى من أهم المعارك التى جرت على الجبهة السورية خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

الساعة الرابعة والنصف من فجر يوم الجمعة ١٢ أكتوبر ، اتصلت القيادة السورية بقائد عام القوات العراقية وأخبروه ان المهمة القتالية التى كان قد كلف بها اللواء المدرع ١٢ ، (خالد بن الوليد) قد تغيرت ، وطلبوا منه أن يحضر الى مقر غرفة العمليات ، ومضى القائد العراقى الى غرفة العمليات ، حيث شرحت له المهمة القتالية الجديدة ، وأعطى خريطة توضح المكان ، والمواقع والمهام القتالية المطلوب تنفيذها الى اللواء الذى وصل لتوه الى الجبهة السورية ومع خيوط الضوء الأولى من يوم الجمعة ١٢ أكتوبر ، كانت سيارة القائد العراقى تتوقف عند المقر الميدانى لقيادة اللواء ، شرح المهمة الجديدة لقائد اللواء وضباطه وعندما سئل قائد اللواء عما اذا كان لواءه مستعدا لتنفيذ المهمة ، أجاب بالحرف الواحد (. . ان الامر لم يعد ما اذا كنت مستعدا أم لا ، فالعدو قد اندفع نحوى وما على الآن سوى الاسراع بملاقاته ، وأنا لا اضمن تنفيذ الواجب فقط ، بل تقرر . وفى الساعة الثانية ظهرا ، بدأ لواء (خالد بن الوليد) يتقدم الوصول الى قرية دير العدس - كفر شمس - تل العوسج) أى أكثر مما لتحقيق المهمة المطلوبة ، غير انه عند بدء التحرك جاء ضابط الاتصال السورى الى قائد عام القوات العراقية ، وأخبره ان ثمة ظروفًا جديدة ، قد طرأت ، وطبقا لها ، فقد قررت القيادة السورية ، تغيير المهمة القتالية اللواء ، وطلب القائد العراقى الاتصال الفورى بقائد لواء (خالد بن الوليد) ليوقف مكانه ، اذ أن الدبابات بدأت التحرك بالفعل ، ولكى يتأكد بنفسه ، فقد استقل سيارته الجيب ، ومضى بها مسرعا الى دبابة القيادة فى اللواء ، طلب منه ألا يتقدم الى كفر ناسج - تل المال ، كما هو موضح بالمهمة التى أبلغت ، وبالفعل ، اتجهت الدبابات العراقية لاتباع المحور الجديد ، كان اللواء يتقدم على رتلين ، وتل أيمن ، وهدفه كفر ناسج ، ورتل أيسر ، وهدفه قرية عقربا ، وتوجيه ضربة الى القوات المعادية فى المنطقة التى كانت تتقدم على محور « جبعا » - كفر ناسج ، بدأت المدفعية الاسرائيلية ، تحاول قصف المدرعات العراقية المتقدمة ، وكانت مدفعية العدو تتمركز فى الساعة الرابعة والنصف من اجتياز تل عنتر ، واستأنف تقدمه ، فدمر قوة العدو ، فى تل حمد ، دار قتال عنيف حول قرية كفر ناسج ، تم خلاله دخول القوات العراقية الى القرية حوالى الساعة الرابعة والنصف ، أى أن اللواء خاض معركة متصلة استمرت ساعتين ونصف الساعة تمكن خلالها من تدمير قوات العدو فى المنطقة ، بعد هجومه المضاد الناجح ، وتحرير قرية كفر ناسج ، فرت قوات العدو فى حالة اضطراب وذعر ، وفى القرية استولى .

المقاتلون العراقيون على ثمانى دبابات اسرائيلية سليمة ، من طراز سنتوريون .
كان رجال المدرعات العراقيون ، يعرفون هذه الدبابات جيدا ، اذ عملوا عليها
من قبل ، عندما كانت تدخل ضمن تسليح الجيش العراقي ، اداروها بسرعة
واستدارت الأبراج بمدافعها لتصب قذائفها ، القذائف الخاصة بالدبابات ،
نفس الذخيرة الاسرائيلية تساقطت فوق العدو بعد لحظات من استيلاء الجنود
العراقيين عليها ، وكان لهذا أثر معنوي سيء في الجانب المعادي .
وخلال الهجوم كانت دبابة قادة احدى كتائب اللواء تتقدم الرتل الذي
اقتحم كفر ناسج ، وأصيبت أصابة مباشرة في المواجهة ، وبترت ساقا القائد
العراقي ، بدأت الدبابة تحترق ، تهتز ، وبعد لحظات ستنفجر ، نظر جنود
الطاقم الى قائد دبابتهم وكتيبتهم في نفس الوقت ، بدأوا يحاولون مساعدته
للخروج من هذا الجحيم المصغر الذي سينفجر بعد لحظات ، غير أن القائد
الذي غرق في بركة من دماء سالت بغزارة ، أصدر أمره الأخير :

— غادروا الدبابة بالأمر .

وعندما أصر أحد الجنود على القيام بواجبهم تجاه قائدهم ، جمع كل
ما تبقى لديه من طاقة وجهده ليصب حزما في أمره :

غادروا الدبابة بالأمر .

ومال صدره على رأسه ، كان كقائد السفينة ، آخر من يغادرها قبل أن
تغرق ، واذا أصيب وفقد الأمل ، فليبق معها ، يتحد المصير الانساني بمصير
الحدبد والبارود الصامت ، واحتراما للأمر الأخير ، قفز الجنود . وعندما
انفجرت الدبابة تلاشى كيان البطل مع دبابته ، لكن لىبقى نورا وسطورا
تضاف الى تراث الأمة العربية ، وحتى ذلك الحين بلغت خسائر لواء خالد بن
الوليد ، تدمير خمس دبابات ، استشهاد قائد الكتيبة ، وخمسة عشر ضابطا
وجنديان ، فقدان ضابط وخمس رتب أخرى مختلفة ، وفي المساء صرخت
الأوامر بانسحاب الوحدات الى التلؤل المشرفة على كفر ناسج لمشاغلة العدو
وايقاف تغلغل قواته .



في الساعة الثالثة والربع ، كان الرتل الايسر من لواء خالد بن الوليد،
يتقدم باتجاه قرية « عقربا » ، شكل الرتل من كتيبة الدبابات،
وكتيبة مشاة الى ، عند وصوله الى (عقربا) هوجم من الطائرات الاسرائيلية
المعادية ، الا أن الرتل واصل تقدمه داخل قرية تل المال ، وكانت المعلومات
التي وردت من القيادة السورية تفيد بأن الجناح الايسر للرتل سيكون محميا
بالوحدات السورية الا أن ظروف طرأت حالت دون ذلك ، وهنا اتصل قائد
عام القوات العراقية بقائد لواء خالد بن الوليد ، وطلب منه أن يكون مسئولاً
عن تغطية جناحه الايسر ، بعد أن تجاوزت الوحدات قرية تل المال اشتدت
مقاومة العدو ، أصيبت دبابتان من الرتل ، دمرتا ، وفي المقابل تمكن الجنود
العراقيون من الاستيلاء على ثلاث دبابات سنتوريون ، ومرة أخرى أداروا
مدافعها في اتجاه القوات المعادية ، في هذه الأثناء ، حل الظلام ، لكن الرتل
تمكن من تمييز هدفه النهائي وهو تل الشعار ، واستمر في اندفاعه ، حيث

أحتلت القوات تل البراق برغم الكثافة النارية المعادية ، وأستولت على أربع دبابات أخرى معادية سليمة واستطاعت قوة أخرى من انرتل الوصول الى سفوح تل الشعار والاستيلاء على دبابة أخرى . مع الضياء الاول ليوم ١٣ أكتوبر واصل الرتل التقدم صوب تل الشعار ، واصيبت دبابة قائد الرتل وبهذا فقد الاتصال مع قائد اللواء . في نفس الوقت ، دعم العدو قواته ، وهاجمت طائراته في موجات متلاحقة ، أصدر قائد الرتل أمرا بأخلاء تل الشعار ، والانسحاب الى قرية الطيحة في قتال تراجعى ، ثم صدر أمر بالانسحاب الى قرية شمس لاعادة تنظيم القوات ، وكان مجموع خسائر الرتل حوالى ١٦ دبابة ، وفي الليلة السابقة ، ليلة ١٣ أكتوبر ، قامت الوحدات العراقية الخاصة ، فانتشرت في المنطقة ، تهاجم مرابض المدفعية المعادية والدبابات ، ومواقع الجنود ، وهكذا يكون أهم انجاز قد تم يوم ١٢ ، هو الهجوم المضاد الناجح للقوات العراقية الذي تمكنت بواسطته من دحر العدو مسافات كبيرة الى الوراء ، على محور غباغب - كفر ناسج وتكبيد العدو خسائر كبيرة في المعدات والأرواح ، وأسر عدد من ضباطه وجنوده .

مع الضياء الأول ليوم ١٣ أكتوبر ، كان العدو ينسحب ، باتجاه ماعص ، لقد أدخل اشتراك القوات العراقية ، عاملا جديدا في الموقف ، زاد من تعقيد الأمور أمام القيادة الاسرائيلية ، اذ أصبح واضحا ، ان معدل النيران القوي في المدرعات والمدفعية ، لايعطى اسرائيل القدرة على أحداث ثغرة في الخطوط السورية . كما تريد القيادة الاسرائيلية ، وكلما طالت المعركة ، دخلت عليها عناصر جديدة ليست في صالح الجيش الاسرائيلى ، أما الوضع العربى فقد تحسن مع وصول التعزيزات ولم يعد بإمكان القوات الاسرائيلية عندئذ ، تطبيق أسلوب وتكتيك المطاردة والتطويق بسهولة .



صباح السبت ١٣ أكتوبر :

أستأنفت المجموعات المهاجمة تقدمها ، ركز العدو نيرانه الشديدة ضد لواء خالد بن الوليد العراقى ، غير أن دقة تصويب جنود اللواء وكفاءة القوات العراقية فى الرد ، قللت من الخسائر الى حد كبير . بعد قتال استمر ثلاث ساعات ، تمكن الرتل الايسر من اجتياز تل البراق ، والسيطرة على السفح الايسر لتل الشعار ، وبدأ يشتبك مع دبابات العدو عند سفوحه ، فى نفس الوقت استمر العدو فى الضغط على الجناح الايمن ، وقاتلت الوحدات العراقية ، قتالا تراجعيا من كفر ناسج الى تل عنتر ، الا أن اللواء شن هجوما مضادا ، وتمكن من اعادة احتلال كفر ناسج ثانية وايقاف العدو ، ثم تقدمت مجموعة قتال أخرى من اللواء ، باتجاه تل أبويه ، فأحتلته ، ودحرت القوات الاسرائيلية فيه . ووصلت الى طريق دمشق - القنيطرة العام ، فى هذا اليوم انعكس انزعج القيادة الاسرائيلية ، بشكل واضح عندما أعلن العدو أن مجموعة من الكوماندوز الاسرائيلية قامت بمهمة خاصة خلف الخطوط العربية فى ليلة ١٣ أكتوبر ، مستهدفة مهاجمة القوات العراقية التى كانت تتدفق من الحدود العراقية الى الجبهة السورية ، وقد توغلت هذه القوة - وفقا للمصادر -

الاسرائيلية - الى مسافة ١٠٠ كيلو مترا الى الشمال الشرقي من العاصمة دمشق ، وهاجمت رتلا عراقيا ، ونسفت جسرا .
ويبدو أن القيادة الاسرائيلية ، قد اذاعت هذا البيان بقصد رفع الروح المعنوية لرجالها ، أو أن قوة من الكوماندوز الاسرائيلية حاولت بالفعل ، القيام بمهمة ضد القوات العراقية خلف الخطوط وفشلت ، لأنني لم ألق أي أثر لهذا الحادث ، لم تسجله يوميات القتال ، أو ذاكرة معظم الضباط والجنود ، ما حدث تلك الليلة هو استمرار تدفق القوات العراقية بمعدل كبير الى جبهة القتال .

وكانت الطائرات الاسرائيلية من طراز فانتوم ، قد أغارت عدة مرات على خزانات النفط في مناطق مختلفة من سوريا ، وركزت على منشآت تصدير النفط العراقي المؤم في بانياس على الساحل السوري ، ويبدو أن هذه الغارات كانت تتضمن ابعادا أخرى بالاضافة الى أهدافها العسكرية ، وعلقت جريدة الثورة العراقية في افتتاحيتها يوم ١٣ أكتوبر على هذه الهجمات الاسرائيلية :

« هل كان ضرب منشآت تصدير النفط العراقي المؤم في بانياس على الساحل السوري ، عملا اسرائيليا ، ومن تلك الأعمال الغادرة ، التي ارتكبتها العدو ، في الأيام الأخيرة نتيجة ما أصابه في المعركة من ارتباك وفشل ، أم كان عملا اميركيا ، أراد به سادة البيت الأبيض ، الانتقام ، وبواسطة اداتهم الشهيرة اسرائيل ، من القطر الذي عاقبهم في ٧ تشرين (تاريخ تأميم حصة أميركافي النفط العراقي) فأمم مصالحهم النفطية ، وفتح المعركة السياسية - النفطية ، ضدهم على أوسع وأخطر نطاق » .

وتنمضي « الثورة » .

« واننا لنعتقد اعتقادا جازما أن ضرب المنشآت النفطية في بانياس ، كان (خدمة خاصة) « أبدتها اسرائيل لسادة البيت الأبيض الخائفين من اشهار سلاح النفط بوجههم ، والغاضبين أشد الغضب من هذا العراق المشاكس ، الذي يقرب في وجههم (قدر الماء الساخن) ، كلما حاولوا الألتفاف عليه ، والخلص منه . هناك أشياء لا تعرفها أميركا ، التي تحاول الانتقام بهذه الطريقة اليائسة ، نحن عندما أقدمنا على التأميم في حزيران ١٩٧٢ ، كنا نعرف سلفا ، ان المعركة التي فتحناها ، معركة حعبة وطويلة وباهظة التكاليف ، وكنا نعرف سلفا أيضا أن الامبرياليين ، لن يقفوا مكتوفي الأيدي ، وسيحاولون الانتقام بشكل أو بآخر ، ومع معرفتنا بكل ذلك ، أقدمنا على التأميم ، لأننا كثوريين نؤمن أن الدفاع عن الحقوق المشروعة ، لا يكون الا بالهجوم الشجاع على مقتنصي تلك الحقوق » .



الأحد ١٤ أكتوبر :

حشد العدو نيران مدفيعته ودباباته وأسلحته المدرعة ، في محاولة لتتصدى لقوات اللواء المدرع ١٢ ، وصلت قوات العدو الى خط تل قربن - كفر ناسج - تل المال ، وبدأت توجه قصفات مركزة الى وحدات اللواء التي

تمركزت في كفر شمس ، وفي تمام الساعة الخامسة والثلاث صباحاً ، بدأ لواء خالد بن الوليد ، في تطبيق أسلوب الاسناد الناري ، لارباك هجومي العدو المضاد المتوقع شنه ، والذي بدأ بالفعل ، بقصد الاستيلاء على تل عنتر ، وأمكن بالفعل ، إيقاف الهجوم المعادي بعد تدمير خمس دبابات معادية ، وخسر لواء خالد بن الوليد ٨ دبابات ، دمر هجوم العدو عند السفوح الشمالية لتل عنتر ، وفي تمام الساعة التاسعة تمت السيطرة على تل حمد ، والاشتباك مع دبابات العدو في كفر ناسج ، في هذا اليوم طرأ تغيير أساسي على الجانب الاسرائيلي ، بدأت قوات العدو تأخذ مواقع دفاعية في مواجهة الهجمات المركزة للقوات العربية ، ولوحظ ان الجزء الرئيسي من الطيران الاسرائيلي ، غائب من سماء المعركة ، بسبب اشتراكه في مواجهة الهجوم الشامل الذي بدأت القوات المصرية على جبهة سيناء صباح اليوم ، وربما كان تخفيف حدة الهجمات راجعاً الى نقل الجزء الأكبر من القوات الاسرائيلية ، الى الجبهة الجنوبية لمواجهة تطورات الوضع ، واقتناع القيادة الاسرائيلية بأنه توسيع الجيب سكون له نتائج خطيرة ، كما أن مزيداً من الوحدات العراقية لم يعد في مقدرة الجيش الاسرائيلي ، القيام بعمليات هجومية خاصة ، وان كانت في طريقها الى الجبهة مما يجعل اختراق الخطوط على الجبهة السورية عملاً بالغ الصعوبة .



الاثنين ١٥ أكتوبر :

بدأت مدفعية العدو تقصف الوحدات العراقية من لواء خالد بن الوليد لمدة نصف ساعة ، وشوهدت بعدها ، تحركات لمجموعات من المدرعات المعادية تحاول التقدم نحو تل قرين وكفر ناسج وتل المال ، اشتبكت مع دبابات خالد بن الوليد ، التي صمدت وصدت الهجوم المعادي ، في نفس اليوم ، حاول العدو عدة مرات احتلال تل عنتر ولم يحقق أي نجاح ، وفي الساعة الواحدة ظهراً ، هاجم بثلاث مجموعات قتال ، واسناد جوي كثيف ، واستطاعت قوات العدو تحقيق تقدم في تل عنتر ، وتجمعت وحدات لواء خالد بن الوليد في قرية شمس وذلك لتشكيل قاعدة أمينة لدعم لواء مدرع آخر كان قد بدأ الوصول الى الجبهة ، بهدف الاستعداد لشن هجوم واسع على تل عنتر . في ذلك اليوم تكاملت وحدات اللواءين العراقيين السادس المدرع ، والثامن مشاة آلي ، الذي استعرضنا بعض معاركه من قبل .

وحتى الساعة الثامنة وخمسين دقيقة من صباح يوم الثلاثاء ١٦ أكتوبر ، لم تتوقف الاشتباكات بين العدو ولواء خالد بن الوليد ، وهكذا يكون لواء خالد بن الوليد قد قاتل لمدة أربعة أيام متصلة بدون راحة بدون نوم ، بعد رحلة طويلة قطع خلالها أكثر من ألف وثلاثمائة كيلو متر ثم دخل سلسلة من المعارك المتصلة في وقت زمني قصير ، معركة التنقل ومشاقها ، ثم معركة الصدمة الأولى ، ثم المعارك التي خاضها ضد العدو ، واجباره على التراجع منها بذلك قدرة العدو على تحقيق أي خرق في هذا

القضاء باتجاه دمشق ، كان لواء خالد بن الوليد ، يحارب في ظروف صعبة ، لقد اشتبك فور وصوله الى الجبهة بدون أى فرصة للراحة أو لتقاط الانفاس ، معظم المقاتلين ليست لديهم خبرة بالمعالم الأرضية ، لم يتعرفوا بالقدر الكافى على ميدان القتال ، كما ان المهام القتالية التى كلف بها تغيرت أكثر من مرة فى ميدان ، وأثناء تحركة ، وتغير المهمة القتالية أثناء التحرك أو عند الشروع فى الهجوم من الأمور الخطيرة التى تؤثر سلبا على مجريات الأمور ، الا اذا كان الجنود والضباط ، دربوا من قبل على أكثر من خطة بديلة ، وبالتأكيد فان الكفاءة القتالية العالية ، والمستوى القتالى الجيد ، والمهمة العالية التى يتمتع بها المقاتلون العراقيون ، هى الأسباب والعوامل التى أدت بهم الى النتائج الايجابية التى حققوها على الجبهة السورية ، ولنا أن نتخيل ما كان يمكن ان يقدمه هؤلاء المقاتلون العرب الأشداء الى جانب مقاتلى الجيش السورى الشجعان ، لو انهم اشتركوا منذ اللحظة الأولى فى القتال ، لو انهم تمركزوا فى الأرض قبل بدء المعركة بوقت كاف ، تعرفوا خلاله على التضاريس وعلى رفاق السلاح السوريين ، لو ٠٠٠ ماذا كان يجرى ؟ كيف كانت ستصير الأحداث ؟ فى التاريخ لا يصح استخدام كلمة (و) ، ما حدث حدث ، لكن التأمل يجبرنا على التفكير من أجل ضرورة استيعاب هذا الدرس ، ضرورة دخول ثقل الجيش العراقى الى المعركة منذ اللحظات الأولى فى أى مواجهة مقبلة ، بهذا نوفر كثيرا من الجهد والعناء ، والدماء .

● ● ●
فى شمال العراق واجه الجيش العراقى ، حالة خاصة معقدة ، من أصعب الأمور ، وأشقها على المقاتل أن يوفق بين دوافع القتال والرحمة تجاه الطرف الذى يحاربه ، يتطلب هذا درجة وعى كبيرة ، واتزاناً نفسياً دقيقاً ، وهذا لا يتوفر الا بعمل سياسى دؤوب ووعر ، عندما بدأ العصيان المسلح ، بدأت اللجنة العليا لشئون الشمال التى رأسها صدام حسين تتابع ما يتم من أحداث فى الشمال ، أدق تفاصيل العمل العسكرى والسياسى ، كانت المركزية شديدة جدا خلال ادارة المعركة ضد القوى الرجعية فى بداية العمليات ، ووقع حادث اعتداء من جانب جماعة من حرس الحدود الاكراد ضد أفراد قرية كردية ، وقام صدام حسين شخصياً ، بتعميم بيان يستنكر فيه الحادث ويشدد على ضرورة عدم تكراره ، وهذا هو الحادث الوحيد الذى وقع طيلة عام كامل استغرقتها الحرب ، نصت توجيهات اللجنة على عدم قيام الجيش بواجبات أجهزة الشرطة فى الأماكن التى يتم تطهيرها ، فى الماضى ، كان ضابط الجيش يعتبر حاكماً عسكرياً فى القرية أو المدينة ، من حقه ان يعتقل أى انسان ، وأعدام أى انسان ، كان الجيش لا يقيم فارقا دقيقا بين العمل العسكرى والواجب الانسانى ، كان المقاتلون غير مقتنعين بالأسلوب الذى تعالج به الحكومات الرجعية أو الدكتاتوريات المشكلة الكردية ، بالاضافة الى ان الجيش كان خلوا من العمل السياسى الواعى ، لكن الأمر الآن كان يختلف ، فى الواقع يبدو حرص الثورة على مصالح

الاکراد . حجم العمل أكبر من كل ما ينشر ، سواء المشروعات الانتاجية التي تقام في مناطق الشمال ، أو اجراءات الاصلاح الزراعي ، أو عمليات التعمير ، وتعويض ضحايا الحركات المسلحة ، أو أسلوب معالجة المشكلة ، والقدرة الكبيرة على ضبط النفس ازاء تصرفات قيادة القوى الرجعية . قبل بداية العمليات المسلحة ، أصبح لدى كل ضابط « جندي » سواء كان عربيا أو كرديا - فالجيش العراقي ، يضم عددا كبيرا من الاكراذ في مختلف الرتب ومختلف مستويات القيادة ، وسلم الترقى مفتوح الى أعلى المستويات ، ليس هناك أي حظر على نسبة قبولهم بالكليات العسكرية ، ويوجد حاليا قائد فرقة كردي ، وعدد كبير من الضباط في رتبة عميد فما فوق ، وفي أقصى الجبال الشمالية التقيت برئيس أركان حرب فرقة مدرعة كردي ، ضابط أهله من السليمانية ، وجنود اكراد في جميع الوحدات التي زرتها في الجبال ، حيث تقاتل المتمردين ، كل مقاتل في الجيش العراقي أصبح مقتنعا بواجبه في الدفاع عن وحدة العراق الوطنية ، واعيا أبعاد التمرد وأهداف الاستعمار الكاملة ورائه ، وكان هذا الوعي ، ينعكس في تعبيرات الضباط والجنود ، المثقفين والبسطاء ، نفس المضمون ، وان اختلف شكل التعبير ، ويرجع هذا الى العمل السياسي الدؤوب المثابر الذي بذلته ثورة العراق في صفوف القوات المسلحة منذ ١٩٦٨ ، والذي شمل تطوير الكفاءة القتالية ، والسلاح ، الوعي بالقضايا الوطنية والقومية ، لم يحارب أحد المقاتلين بهدف تحقيق مكاسب معينة ، وليسوا أدوات في أيدي حكومات هم لا يؤمنون بأهدافها ، ان الثورة هي التي توجه وتقود ، كان الواجب الوطني واضح الأهداف ، يقاتل الجيش بعربه وأكراذه ، الى جانب قواته توجد قوات حرس الحدود الكردية وفصائل الانصار التابعة للحزب الشيوعي سياسيا ، ومقاتلين من حركة التقدميين الاكراذ ، والحزب الديمقراطي الكردستاني كردية محاربة معادية للملا ، ان الجيش هو الذي يتولى المهام الرئيسية ، بينما تتلخص واجبات العناصر الكردية التقدمية في حماية أماكن محددة ، والاشتراك في بعض العمليات ذات الطبيعة الخاصة ، لقد قررت الثورة منذ بدء القتال ، ان تحارب العصيان حتى يتم رفع الراية البيضاء نهائيا ، كانت توجد أكثر من معادلة صعبة تعمل الثورة على تحقيقها ، الحزم الشديد في مواجهة العصيان ، والمعاملة الانسانية ، بعد بدء القتال أصبحت المناطق الشمالية موزعة الى ثلاثة أقسام :

- مناطق حمراء حيث يدور فيها القتال .
 - مناطق صفراء حيث توجد قوى تندس فيها بعض العناصر المسلحة التابعة للعصاة بحكم صلات القربى ، والعشائرية .
 - مناطق خضراء ، وهي التي يسودها الاستقرار وتوجد بها جميع أجهزة الخدمات والمشروعات التي تنفذها الثورة .
- في الجانب المقابل ، كان العصاة ، ومن ورائهم أجهزة الدعاية الاستعمارية التي تعمل على مستوى محلي ، ومستوى عالمي ، يبشون الدعايات ضد الجيش ، يقولون للقرويين ، ان الجيش اذا وصل فانه ، سيجدع

أنفوسكم ، ويفنطح أذنانكم ، ويعدم أطفالكم ، ويحرق الزرع ، ويبيد القرى ، ويبتك أعراض نساتكم ، وتحت تأثير هذه الدعاية في البداية ، كانوا يقومون بترحيل كثير من العائلات الى المعسكرات التي أقيمت في إيران لايواء هؤلاء اللاجئين ، وبالطبع كلما تزايد عددهم أصبح للمشكلة جانب عالمي ، يمكن استغلاله للدعاية المضادة للثورة ، ومن ناحية أخرى يتم تجنيد شباب ورجال هذه العائلات في صفوف التمرد ، وربطهم تماما ، بالقوات المتمردة نتيجة وجود عائلاتهم في إيران .

مع بداية الحرب ، وبدء العمليات ، بدأ واضحا لأهالي المناطق التي دار فيها القتال حرص الجيش على التعامل الانساني معهم ، لم تحرق قرية واحدة ، ولم يهتك عرض امرأة ، ولم يعدم طفل ، وجرت عدة حوادث ذات دلالة ، حدث في إحدى الليالي ، ان فاجأ المخاض سيدة كردية ، اشتدت آلامها في ليلة بلغ فيها التوتر اشده حتى ليعجز العصفور عن الطيران ، تزايدت آلام السيدة ، وبدأت معزولة عن أية مساعدة يمكن ان تأتيها من العالم ، عام قائد التشكيل المسلح العراقي في المنطقة بالأمر ، طلب حضور طائرة هيليوكبتير صغيرة ، وبرغم الخطورة المترتبة على طيران الهيلوكبتير في الليل ، الا أن الطائرة جاءت ، وتم نقل السيدة الى المستشفى القريب ، حيث تمت ولادتها بيسر ، في منطقة أخرى كان بعض المتمردين في مغارة عميقة من هذه المغارات التي تمتلئ بها جبال الشمال ، سقطت بعض القنابل أمام المغارة واحترقت الحشائش الجبلية ، تدفق الدخان الى المغارة ، علت أصوات استغاثاتهم ، وتقدم جنود الجيش ، واتخذوا الاجراءات اللازمة لانقاذهم . في منطقة أخرى ترك العصاة خلفهم بعض الأفراد المصابين أصابات خطيرة ، وكانت حياتهم مهددة ، ومن الضروري اجراء بعض العمليات الجراحية العاجلة في نفس مكان اصابتهم ، وسارع القائد العسكري العراقي بارسال فصيلة طبية تضم بعض الاطباء والمرضيين ، وأجروا للمصابين عمليات جراحية عاجلة ، برغم خطورة المنطقة ، وتوتر الموقف فيها ، ثم نقل المصابين جنبا الى جنب على نقالات وضعت في طائرة هيلوكبتير مجهزة لاختلاء الجرحى الى المستشفى الميداني القريب .

كانت الثورة شديدة الحسم في محاربة العصاة . شديدة الرحمة مع من يستسلم منهم ، بعد صدور أول قرار عفو عام تقاطر الموظفون والعمال والفلاحون المغرر بهم ، يجيئون الى أقرب القطاعات العسكرية ، يرفعون الراية البيضاء ، ويستقبلون ، تقدم لكل منهم مساعدة مالية ، يعود الموظف الى وظيفته فوراً بدون أي مساءلة أو استجواب ، لم يتعرض أحدهم لاستجواب ، وفي هذه الحالة ، كانوا هم الذين يبادرون بالادلاء بالمعلومات التي لديهم . ويعود العمال الى مصانعهم والفلاحون الى قرابهم ، وفي الموصل حيث مصنع الغزل والنسيج كان به ستة عشر عاملاً كردياً التحقوا بالعصاة ، عادوا بعد صدور قانون العفو العام ، استلموا أعمالهم فوراً ، والطريف ان ادارة المصنع صرفت لهم مرتباتهم عن الفترة التي تغيبوا فيها وكانوا يحاربون خلالها الثورة ، بل ان قسماً كبيراً من الاكراد الذين لجأوا تحت الضغط

التي ايران قطعوا ما يقرب من ثلاثة آلاف كيلو مترا ليدخلوا من ناحية الحدود التركية . العراقية تمت اعادتهم فورا الى قراهم بواسطة عربات الجيش وقامت القوات المسلحة بدفع أجورهم وأجور انتقالهم التي تكلفوها أثناء رحيلهم من ايران وحتى الحدود التركية العراقية .

كان الجيش يسعى لاعادة كل السكان الى القرى ، ولان الظروف التي كان يحارب فيها الجيش قد اختلفت فأصبحت القرية المزدحمة بالسكان أكثر أمنا بالنسبة للجيش من القرية المهجورة ، القرية المليئة بالسكان لا يمكن ايواء العصاة بها الا في حدود ضيقة جدا ، وفردية جدا ، بعكس القرى المهجورة ، ثم ان تواجد الأهالي في قراهم يتيح للجيش تقديم الخدمات واقامة المشروعات التي تثبت جدية الثورة وحسن نواياها في خطواتها من أجل التغيير الجذري في الموقع الكردي ، وكان الجيش يوزع على الأهالي أسلحة لحماية أنفسهم وعارض البعض ، ربما انضم عدد من العصاة بذلك السلاح ، ولكن نظرة الثورة كانت ابعده ، أن اعطاء السلاح يعنى الثقة من جانب الثورة ، وفعلا هرب البعض الى الجبل بالسلاح ، ولكنهم كانوا قلة لاتوازي الأثر الكبير الذي أحدثته هذه الخطوة والتي ادت الى نتائج ايجابية في المجالين السياسي والعسكري .

هذه المواقف كان لها تأثيرها الايجابي ، ولا شيء يخفى في المناطق الشمالية بالعراق ، ما يحدث يتناقض الجميع ، مهما بعدت المسافات أو اختلفت وجهات النظر ، ومواقف الناس ، بدأ الكثيرون يتوافدون عائدين بعضهم ترك عائلته في ايران والتحق بصفوف الثورة . وكثيرا ما كان الجيش هو الذي يتولى ادارة الأعمال الخاصة بالخدمات ، كتقديم الطعام ومواد الاعاشة ، والاعطية والمعونات العاجلة للذين أضيروا في القتال ، بمجرد دخول الوحدات العسكرية الى قرية كان يحتلها العصاة ، تبدأ على الفور اجراءات تأمين استمرار الحياة وتطبيق كافة قوانين الثورة بما فيها قانون الاصلاح الزراعي الذي يربط الفلاحين بالأرض ، ويضرب النظام الاقطاعي في الصميم ، في الجانب المقابل كان العصاة يرتكبون أعمالا تضر بمصالح الجماهير الكردية ، لقد طبقوا أسلوب الأرهاب في التعامل مع المواطنين وخلال السنوات الأربع الممتدة من ١٩٧٠ وحتى ١٩٧٤ ارتكب العصاة (٣٧٩) حادثة قتل ضد العناصر التقدمية الكردية ، و (٢١٩) حادثة خطف ، و (١٥٧) حادثة اغتصاب ، و (٢٩) حادثة سلب و (١١) حادثة تخريب في السكك والقطارات و (٦) حوادث تخريب في منشآت الكهرباء و (٣) حوادث تخريب في القناطر والجسور ، والطرق ، بخلاف حوادث تخريب أخرى مختلفة ، ومحاولة نسف خطوط أنابيب البترول خلال الفترة التي وجهت فيها الثورة اندازها الى شركات النفط الاستعمارية سنة ١٩٧٢ قبل التأميم . وحرقت القرى الكردية الموالية للثورة ، وضرب المواطنين في هذه القرى بالمدافع ، تشريد المواطنين الاكراد من قراهم ، القاء المتفجرات والقنابل على بيوت بعض العناصر الكردية التقدمية ، وقد قام الرجعيون بوضع العراقيل المتعددة لتعطيل تنفيذ قانون الاصلاح الزراعي ، وتصد العصاة

انتفيذ القانون حتى ان الأجهزة الادارية لم تستطع تنفيذ أحكام القانون بالمناطق المتاخمة للحدود الايرانية ووصل الأمر الى حد اختطاف بعض موظفي الاصلاح الزراعي واجراء التحقيق معهم من أجل أرهابهم وتمرير الأمور التي يريدونها أثناء التطبيق ، وعدم مساعدة لجان البحث في معرفة شخصيات الفلاحين المراد توزيع الأراضي عليهم بهدف وضع العقبات أمام لجان التوزيع ، وتركزت هذه الاجراءات في محافظة دهوك .
يقول قادة أحد التشكيلات المسلحة في الشمال :

- هناك مبادئ يجب أن يتحلى بها الثائر ، أولها التعامل بخلق الفرسان ، بخلق نضالي ، هؤلاء بدأوا تعاملهم اليومي مع أخوانهم الأكراد أكثر بشاعة ، كانوا يعملون ضد مصلحة الشعب ، ومن هنا كان لابد لاجراءاتهم أن تتسم بالارهاب والاغتيالات ، وبالتالي تتزايد عزلتهم عن الجماهير الكردية .



ويصل الليل الى ساعة متأخرة وغدا في بدايات الصباح الباكر سنتوجه الى خليفان ، الى راوندوز ، الى حسنان ، الى أقصى منطقة تقدم اليها الجيش خلال العمليات الأخيرة ، وعندما عبرت بنا السيارة شوارع كركوك رحمت أرقب سماءها المتوهجة بنيران أزلية ، وعقلي يسرح الى الجبال البعيدة وما تحفل به من خطر ، انفجارات ، وصراع .

المحور الثالث

حسنان - الجولان - كلى على بك

خليفةان - الجولان

جبهة القتال :

نحن الآن على الطريق المارة بقرية خليفان التي تقع في الوادي ، الى اليمين منا ينتصب جبل كورك الصخري المرتفع الى حد انه يقيم ما يشبه السد الصخري فيحجب انطلاقة السماء ، يواجهها باستدارة فكأنه بطن الحامل . ارتفاعه ٢١٢٧ مترا ، والصعود الى قمته يستغرق ثماني ساعات على الأقدام أو بالبغال بدون قتال ، سخوره جيرية مقددة تبدو كأنها تطلق كل السبل . المدخل والمخرج من والى الوادي الذي نزلنا فيه ، بل يبدو كأنه يتحدى طائرات الهيلوكبتر التي كانت تنزل وتطلع باستمرار وعندما تصل فوق (كورك) تبدو كأنها في صراع صامت معه ، ثم تختفي فوق مضيق (كلى على بك) ، ان ثلوجا قليلة تغطي قمة الجبل الذي رصعته أشعة الشمس الواهنة بدرجات عديدة من الظلال ، يبدو الجبل اصم لا يفصح عن نفسه ، عبوسا خطيرا في وجه من يحاول اقتحامه ، ولكن هذا السد الصخري الجبار الذي يبدو لنا واجهته من الوادي فقط مليء بالدروب التي يعرفها البشر ، يحفظون التواءاتها وانحناءاتها ، ويستغلون منعطفاتها لتحقيق المفاجأة في القتال ويقتلون حولها حتى الموت ليستولوا على هذه المنعطفات والزوايا ، ويحذرون منها عند صعودهم ، في هذا الصخر العظيم ممرات سرية ايضا ، وقم كاذبة تخفي قمما اعلى ونخفي معها الخطر ، رحلت اتطلع الى موقع ميداني منصوب باتجاه الجبل وكأنه تهديد صامت في مواجهة الخطر الكامن غير المرئي ، في الوادي رايت الحرب ، تلك لعلامات التي تميز المكان الذي يدور فيه قتال ، او يجري به قتال ، يشبه الوادي تلك المناطق الخلفية القريبة من الخطوط الامامية حيث الاشتباك ، غير ان ما يميز به المكان هنا من حيث الخطر هو اشراف تلك الجبال على الوادي ، كورك الى اليمين بيخال الى اليسار ، بيخال اقل ارتفاعا ، والاثنان يتقاربان من بعضهما البعض عندما يكونان الجدارين الرهيبيين لكلى على بك ، هذا الممر الصخري العجيب الذي نتج عن مجموعة زلازل شقت الجبل لا تراها الا في ميدان قتال ، عربات النقل العسكرية تحمل صناديق الدخيرة ذات اللون الزيتوني الغامق ، والبطاطين ، وآلات حفر ، ان حركة سيارة النقل او السيارة العسكرية تكتسب في الميدان دلالة خاصة ، يصبح لحركتها مغزى يختلف عما لو رايناها في المدينة ، تبدو بالوانها الكاكية ، واطاراتها الضخمة في الجبهة اكثر منطقية مع الواقع المحيط بها ، انها في المجال الذي خلقت من اجله تؤدى المهمة التي تنتظر القيام بها فترات طويلة ، ربما تنقل هذه السيارات ذخائر ستستخدم بعد قليل ، ربما تنقل جرحى ربما تنقل طعاما للمقاتلين في المواقع الامامية ، انها حركة الحرب ، على الطريق المرصوف ، يتحرك أيضا عدد من الأكراد المسلحين ، وعمال عرب وعمال اكراد يعملون في اصلاح بعض آثار القصف على الطريق ، في الاسفلت حفر دائرية ناتجة عن قذائف الهاون ، من الواضح انها آثار قديمة ، اذ ان القتال العنيف للسيطرة على هذه المنطقة انتهى في العام الماضي ، من خلال عيني المنظار المقرب الذي وجهته الى أعلى

قمة كورك ، رايت حركة بعض الجنود فى الاعالى ، اذن فقد روضوا الجبل الصخرى الوعر ، ركبوه ، ولكن يستمر الظل الصخرى جاثما فوق النفوس حاملا معه احساسا ثقيل بالزمن ، والحرب ، والخطر ، وخواطر عن مائتوا فوقه ، عاد الينا احد المقاتلين الذى صحبنا من كركوك ، كان قد اندفع الى بقعة من الأرض تحت منفع (بيخال) ، حيث رابطت سرية مدفعيته يوما ، ان حنينه القوى الى الاماكن التى شهد فيها الخطر ، والقتال ، والليالى التى تملؤها رهبة (كورك) والموت ، دفعته الى ان يعرد ، وهو يصيح بانفعال ، (هنا كان مرقدى) (هنا كانت المدافع) (هنا .. هنا) وتمنيت لو ان رجاله الذين حاربوا معه كانوا باقين ، أى لقاء حار سنشاهده ؟ لا شيء يثير الانسان مثلما تثيره علاقته بالمكان الذى ارتبط بحقبة من حياته ، كحجارة أو شارع نشأ فيه طويلا ، أو منزل ارتبط بقصة حب ، أو حادثة معينة فما بالك عندما ترتبط حقبة بمكان شهد فيه الصراع الانسانى ، مضت عليه الليالى وهو يصد الخطر ويدفعه ، ويجيء الليل ليمسى بدون زميل له أو صديق ، عندئذ يمضى الزمن وكل دقيقة تضم حياة بأكملها ، وتمر الأيام والشهور ، ويحدث اللقاء بين الانسان والمكان ، وتتداعى الصور ، والمعانى ، وتخفق المشاعر ، نوجهها عبر قرية خليفان الى المكان الذى سنطلق منه الى أقصى الخطوط الامامية حيث القتال ، غاصت اقدامنا فى وحل غطى احديتنا تماما ، انه طين أرض خصبة تنادى شرهة من يزرعها ، وتلتفت فى (خليفان) ، فى البداية لم اشعر ان هناك قرية . كل ما رايتهم مجموعة من جدران قصيرة تتفاوت فى الطول ظننتها بعض الجدران التى بنيت لأغراض مختلفة غير السكنى ، وخاصة ان الطوب من حجارة الجبل . بدت وكأنها بنيت من الصخر ، عندما مررت بينها اكتشفت انها بقايا قرية احرقها العصاة قبل وصول الجيش خلال العام الماضى عند انسحابهم ، وانتابتنى رغبة فى تفقد بقايا الانسان ، دخلت بيوتا ، رأيت أكوابا زجاجية مكسورة شرب فيها الشماى يوما ، وقطعا من ثياب اختلفى لونها تماما ، وقش ، وكسرات خبز أصبح لونها أسود أو رماديا وثمة أوراق فوقها كلمات بالكرديّة أو العربية ، لقد احرقوا القرية وأجبروا جميع سكانها على الرحيل معهم الى ايران حيث معسكرات الايواء ، وفى بناء من الاسمنت كانت النوافذ مخلوطة ، والسقف مغطى بالدخان الأسود اللزج ، كانت ماكينة توليد الكهرباء فى هذا البناء المربع ، فكوها معهم ، واحرقوا المبنى ، أما صهرج الماء الذى يقوم عند أعلى نقطة فى القرية فقد دمر تماما ، بعد لحظات كنا تستقل الهيلو كبتز (من - ٨) السوفيتية الصنع ، وبدأ الجبل يتحرك ونحن نتحرك باتجاهاته ، محاولين تخطيه ، وخيل لى ان الصخر يستخر ، (ان ارتفاعكم مؤقت وبعد لحظات تنزلون ، أما ارتفاعى أنا فباق وخالد) .



بعد ١١ آذار ١٩٧٤ بدأ الملا مصطفى البرزاني فى تنفيذ مخططه الرامى الى الانفصال ، تقدمت فصائل العصاة المسلحة ، منعوا المرور على الطريق والمحاور الرئيسية ، بدأوا برصون الألغام فى المدقات الترابية والطرق الفرعية ، وقامت تشكيلاتهم العسكرية بالهجوم على مواقع الكتائب العراقية

المنتشرة في المناطق الشمالية ، بدأ الحصار الذي حدد لاستمراره ستة شهور ، ولأن الثورة العراقية كانت تؤمن منذ فترة طبعا للتحليلات السياسية ان الملا مصطفى البرازني يتجه الى العصيان المسلح ، فقد انعكس هذا بالتالي على الجيش العراقي ، وخطته التي تم وضعها لبدء التحرك العسكري لانتهاء التمرد يوم - ٦ - ابريل نيسان / ١٩٧٤ ، تحركت وحدات القوات المسلحة على عدة محاور رئيسية في وقت واحد لاعادة الأمن والنظام الى المواطنين ، ولتطبيق قانون الحكم الذاتي ، على محور الموصل تم اندفاع الجيش حتى (زاخو) على الحدود التركية ، حررت جميع المناطق بسرعة ، واستمر قتال متقطع على محور (دهوك - عقرة) حيث رابط بعض العصاة في مناطق جبلية وعرة . واعطيت الأولوية لتحرير الطرق الرئيسية وتأمين اجنابها ، وتحرير العوارض (المرتفعات) الرئيسية وتأمين المضائق .

●● المحور الثاني هو ابريل - رواندوز ، نظير فوqe الآن وعلى هذا المحور تم انقاذ كتائب الجيش العراقي المحاصرة في شقلاوة ، وصلاح الدين ، وحتى ١١ ابريل - ١٩٧٤ تم فك الحصار عن جميع الكتائب ، وتحرير مساحات واسعة من الأرض ، لقد تم انهاء حالة الحصار اذن في عشرين يوما ولم يستغرق الأمر ستة شهور كما قدر الملا مصطفى البرزاني وقيادته العسكرية . في نفس الوقت وصل الجيش الى دربندى خان ، ودهوك ، ورسنك ، انهارت القاعدة العسكرية التي كان الملا والدوائر الاستعمارية وضعوا على أساسها مشروع الانفصال ، كانوا يأملون تعويق وصول الجيش حتى تتم اثاره القضية عالميا ، ثم طرح امريكا مشروعها في الامم المتحدة لانفصال كردستان ، وضرب الوحدة الوطنية العراقية في الصميم . بعد ذلك يمكن القول أن الحرب دخلت منذ ١١ ابريل وحتى مارس ١٩٧٥ في مرحلة حرب استنزاف منظمة من جانب العصاة ، تراجعوا حتى شريط ضيق من الأرض محاذ للحدود الايرانية ، حاول العصاة اطالة مدة القتال الى اقصى حد ممكن ، منذ شهر اكتوبر ١٩٧٤ بدأ نزول الثلوج ، تصبح الحركة صعبة في المناطق الشمالية ، سطح الأرض لا يساعد على التقدم بالمشاة . . أو المدرعات ، ومن ناحية أخرى كان من المفروض أن تنشط قوات العصاة في مواجهة وحدات الجيش ، ولكن يبدو أن روحهم المعنوية قد ضعفت ، بالإضافة الى الأسلوب الذي اتبعه الجيش العراقي وهو القتال بواسطة مفارز صغيرة كمجموعات متنقلة ، سريعة ، خفيفة الحركة مما يساعد على سرعة الحركة في المناطق الوعرة ، في الشتاء ، يبدأ السبات ، تبدو هذه المناطق الجبلية وكأنها دخلت ثلاجة كونية ضخمة ، وفي مثل هذه الظروف يصبح من الصعب على الجيش التحرك بواحدات كبيرة على المحاور الرئيسية ، ويغلب على الحرب طابع الاشتباكات المتصلة بالدفعية ، وكثيرا ما استمرت هذه الاشتباكات ليالي بأكملها . وبلغت حدا من العنف ، لاشتراك المدفعية الثقيلة التي تدعم العصاة واستخدام المدافع ١٧٥ ملى الأمريكية الصنع ، البعيدة المدى ، مع بداية هذا العام تقرر تغيير ظروف القتال ، وتحقيق مبدا المفاجأة ، ويعتبر هذا المبدأ اصعب الأمور في

المناطق الجبلية نظرا لعناصر الملاحظة الجيدة التي تعمل في اطار طبيعة تساعدنا على اتقان عملها ، وبالتالي يمكن رصد الحركات العسكرية كلها ، ويتطلب هذا المبدأ بذل جهد كبير في إخفاء الحركة ، و الاندفاع بأقصى سرعة . في نهاية فبراير ١٩٧٥ بدأ الجيش العراقي تقدمه على كاهه المجاور الرئيسية ، كان الخبراء العسكريون الأجانب في الجانب الآخر يقدرون ان الجيش لن يتحرك قبل بدايات ابريل ، مع ذوبان الثلوج ، ومجيء الربيع الى المنطقة ، وكنتيجة للتحرك المفاجيء الذي قام به الجيش سقطت على هذا المحور أربعة عوارض هامة ، هي جبل زوزاك ، وجبل هندرين وجبل تاتان والجبل المعروف بظهر السمكة ، وهو جبل يشرف على حوض راوندوز ، ارتفاعه حوالي ١٥٠٠ متر ، استطاعته مقوسة تماما كظهر سمكة من عصر الزواحف الضخمة ، تحجرت في هذا المكان ، سلكت الدبابات أوعر الطرق التي لا يمكن لأي خبير عسكري أن يتوقع استخدام الدبابات بها ، اعتمد الجيش على خبرته العريضة في استخدام المدرعات بالمناطق الجبلية ، وعلى عنصر الأقدام الذي لا بد منه في حالة الحرص على تحقيق المفاجأة . وانهارت معنويات العصاة ، تراجعوا بسرعة وفي طريقهم دمروا كل ما يمكن ان يقع عليه بصر الجيش ، القرى ، المنشآت ، الجسور الخشبية القديمة . ووصول الجيش الى ان هذا المحور : الى جبل تاتان : وحسنان ، يكون قد حقق بذلك هدفا أبعد من الهدف العسكري ، إذ ان هذه المنطقة التي وصلت اليها القوات تفصل بين قسمين رئيسيين من أقسام العصاة ، وهم البهدياتيون والسورانيون ، في الشمال الغربي يعيش البهدياتيون ، ويتكلمون لهجة كرية تختلف عن لهجة السورانيين الذين يعيشون في الشمال الشرقي الذي تعتبر السلیمانية مركزا له ، والملا مصطفى البرزاني ينتمى الى قبائل بارزان التي تقع في منطقة البهدياتيين ، ولانه زعيم عشائري فقد اسند قيادته تشكيلاته العسكرية الى قادة كلهم من البهدياتيين ، وفي المعارك الهامة كان يقدم السورانيين في المعارك ويجعل البهدياتيين في المؤخرة ، وهذا أسوأ شكل للقيادة يمكن ان يصاحب الزعامة العشائرية ، وأدى هذا الى اضعاف الروح المعنوية للمقاتلين ، السورانيين على وجه الخصوص ، هكذا فصل الجيش بوصوله الى حسنان بين المنطقتين ، وأصبح مرابطا على مشارف (كلاله) معقل الملا البرزاني طوال السنوات الماضية ، أصبحت المنطقة التي تفصل الواحدات العسكرية عن (كلاله) والمدينة نفسها مغطاة بنيران المدفعية المتوسطة ونيران الأسلحة الصغيرة ، أشرف الجيش على (كلاله) ، وكان هذا يوم ٧ مارس ١٩٧٥ .



واستمرت الهليكوبتر تعبر بنا جبل كورك ، ومن أسفل ، بدأ مضيق (كلى على بك) .

الى اليمين واليسار منا ارتفعت الصخور الازلية (كورك) يكشف لنا ابعادا أخرى بعد ان رأينا واجهته من (خليفان) ، تتداخل الالوان ، الصخور الحمراء القاتمة والبيضاء والسوداء ، واللون الأخضر للحشائش الجبلية

التي قاومت الشتاء وبقيت كطلائح للربيع المقبل ، تطير الطائرة والى اليمين كورك ، الى اليسار بيخال ، الجبل يعلو علينا ويميل بجوارنا ، وينسحب تحتنا ، وكثيرا ما يبدو على بعد امتار منا ، فى متناول الذراع ، ونشعر اننا نحلق قرب فوهة بئر صخرية فى كوكب آخر ، بئر ضخمة جدا ، جدرانها من الصخور ، غير مستوية ، فوق هذا الارتفاع الضخم رأيت دبابات ، وتذكرت الدبابات العراقية فوق مرتفعات حميرين التي تعتبر بمثابة الدرجة الأولى فى سلم صخرى وعمر ينتهى بعد العديد من الدرجات الى كورك ، تاتان ، سر حسن بك ، وتدور مراوح الطائرة وكأنها عبثا تحاول الصعود الى فوهة هذا البئر ، الى اسفل ، يتلوى شريط ضيق من الأسفلت داخل الجبل ، هذا مضيق (كلى على بك) تعرفنا عليه فى البداية من الأعلى ، ارتال السيارات تتلوى ، يبدو الطريق محفوقا بالهاوية ، لقد جرت فى هذا الممر اصعب المعارك واشرسها ، كان الواجب العسكى الملقى على وحدات الجيش للاستيلاء على هذا المضيق الرهيب صعبا ودقيقا ، فالمضيق يعتبر هو المفتاح الوحيد الى حوض راوندوز ، وكل جزء فيه كان الطبيعة أوجدته ليكون حصنا للمدافع وعقبة فى وجه المهاجم ، لكن لنؤجل الحديث عنه عندما نعبه سيرا على الأقدام ، ان المنظر من أعلى يشعرك بالرهبة ، ولكورك حضور قوى فى المنطقة ، بقممه المتراسة فو بعضها البعض ، وسفوحه لكم يبدو الانسان ضئيلا وعظيما فوقه فى نفس الوقت ، ضئيلا بالقياس الى حجمه وعظيما بالنسبة لامكانياته التي تجعله يمتطى ظاهرا الجبل ، ليس بقدميه ، انما بدباباته أيضا ، تلك التي يبدو صعودها الى هذه الارتفاعات الشاهقة نوعا من الاعجاز العسكى . عبرنا بالطائرة مضيق (كلى على بك) نظير فوق حوض راوندوز السهل الأخضر الخصب الذي يرقد مستسلما تحت صخور الجبال العظيمة المحيطة به ، كورك ، بيخال ، هندرين زوزاك والقمم الأخرى فى الأفق الشرقى التي تعكس بثلوجها البيضاء نهارا براقا صافيا ، له رهبة بقدر جماله ، تدور الطائرة فوق (زوزاك) حيث يختلط اللون الأبيض بالأخضر ، أهى بشائر الربيع أم الخضرة التي لا تموت بقاياها التي تصمد فى وجه الشتاء يوحى زوزاك بالخصوبة ، بعكس زمناكو العجوز الأجرد ، أو كورك الذي يبعث الرهبة بصخوره الجيرية (زوزاك) سفوحه تزرع فى الربيع والصيف ، وتجلله ثلوج جميلة تختلط بالنبات ، فتقدم لوحه ألوان رائعة تبدو من الطائرة بديعة فى بدايتها ، عنيفة فى علاقاتها مع الجبال الأخرى فى المنطقة ، لا أدري لماذا خيل الى أن (زوزاك) جبل شاب ، ربما كان من الناحية الجيولوجية فى نفس عمر البقية أو أقدم ، لكن ما يشيره من انطباع فى النفس هو الالفة والرغبة فى الاسراع الى لقائه ، وعندما تذكرت الحرب تذكرت اسطورة النيرفانا والحسناوات اللواتى ينادين الانسان حتى يذهلنه عن طريقه ، ومدينة النحاس والتحذير الذى وجه الى موسى بن نصير ، حذار أن يلتفت الى الخلف مهما سمع من أصوات جميلة تغريه وتناديه ، (زوزاك) ربما تخفى رفته الخطر كله ، والموت كله منا

يعيد الانسان النظر الى جماله ، ترى ماذا تخفى في ذروبك السرية؟ ومفاراتك العميقة ، وهذه النباتات الكثيفة ، كم من الألفام رصت في مدقاتك الرخوة ؟ ويبدو البخار معلقا في الهواء كأنه نبع من صخوره ولم يتكون في الفراغ ، ويشير المنظر رغم جماله ذكرى سحببات الدخان التي تظل عالقة بعد انفجار دناة الهاون ، البخار ، عالق بطيء الحركة ، الضوء يتخلله ، تبدو الطائرة وكأنها تمشي على مدرج من الخضرة والصخور ، الملح خيوطا نحيلة من المياه تنساب فوق (زوزاك) ، خيوط رفيعة جدا ، خيطان ، ينزل احدهما من يمين ، وآخر من شمال ، عند نقطة معينة يلتقيان ، نقطة يحددها استواء الأرض ، أو قانون الجاذبية أو دوران كوكبنا حول نفسه ، أو قوانين خفية تحكم كوكبنا لا ندرى عنها شيئا . يكونان خيطا أغلظ ، يعبر صخورا ، يملأ حفرا ثم يفيض ويمضي من جديد ، ليلتقى بخط مائي غليظ قادم من اتجاه آخر ، يتحدان ، يصبحا مجرى مائيا نحيلًا ، يستمر ، يحفر لنفسه طريقا وسط الصخور ، ويدور حول مرتفع من الأرض ويعبر مدقا ، ويلتقى هنا بمجرى نحيل قادم من اتجاه آخر ، يتكون مجرى أكبر ، تصبح السرعة أشد ، والتدفق أسرع ، تتحدى المجارى ، وهكذا تتكون الأنهار الصغيرة ، الزاب ، خسروان ديالى ، ثم تتدفق الأنهار الكبيرة ، دجلة . الفرات ، النيل ، وتصب الأنهار في البحار وتصب البحار في المحيطات ، نظام رائع وترتيب أروع ، من يرى الأنهار في بداياتها ، تلك الخيوط المائية النحيلة الناتجة من ذوبان الثلوج والعيون الجوفية ، لا يستطيع أن يتخيل انها نفس المجارى التي تؤدي الى تكوين تلك الأنهار العريضة الهائلة التدفق ، من أعلى تابعت حركة الماء الدعوبية العجيبة ، الصابرة ، لا شيء يوقف المياه عن اتخاذ طريقها ، وعن نحت الجبل وشق الصخور ، اذا صادفها مرتفع فانها تتجمع ، تعلو ، تعلو لتغمره ثم تتخذ طريقا جديدا ، واذا لاقت خضرة فانها تتدفق اليها حتى تفيض ، وتستمر ، اكتشفت أن المياه السائلة اقوى عناصر الطبيعة واكثرها دقة في تنظيم نفسها واكتساح كل ما تواجهه ، وكما روض الانسان كورك وزمناكو ، وغيرهما من جبال ، فانه يحاول ترويض المياه ، سواء بتلك الحفر المربعة الصغيرة التي تجمع ماء المطر لاستخدامه في الري ، أو انشاء القنوات الصناعية التي تستضيف المياه في طريق صنعها الانسان ، أو اقامة السدود عند مناطق معينة من الأنهار وحتى في هذه الحالة تغرض المياه ظروفًا جديدة عندما تنشئ تلك البحيرات الصناعية الضخمة ، كبحيرة دوكان على السد المقام على نهر الزاب في قاطع السليمانية . أن مساحة تلك البحيرة ٥٠ كيلو مترا ، مربعا وتكفي لارواء ٣٥.٠٠٠ هكتار من الأراضي ، الى جانب بحيرة ربندي خان التي طرنا فوقها من قبل ، واذكر بحيرة ناصر الممتدة الى مئات الكيلومترات من الأرض جنوب أسوان ، ولكن مهما بلغت محاولات الانسان تظل المياه قوة هائلة منظمة ، ومن المنابع والأنهار والبحيرات والتدفق المستمر تبرز الأفكار ، والدلائل ، هذه الخطوط الصغيرة تخلق انهارا كبيرة ، وهذا الاصرار العظيم في التدفق والسيولة المستمرة مهما بلغ ضعف الماء ، هذا الضعف يتحول شيئا فشيئا عند مناطق معينة الى شلالات هادرة شقت طريقا في الصخر القاسي ،

وتجرف في اندفاعها كل ما تواجه ، فيما بعد رايت دجلة وغد اخترق جبال
حمرين في الغرب ، وعندما توسطت النهر رأيت حواف الصخور مفصولة
كان سكيننا هائلة نزلت على الجبل فقطعتة ، وتدفت المياه ، قوبة ، هادرة ،
لا توقفها قوة ، ولا يعوقها عائق .
تبدأ الطائرة في الهبوط ، وتقرب الأرض ، هل يمكن ان نطلق
(الأرض) على تلك المنطقة التي تقرب منها ؟ ماذا اذن ؟
هذه التكوينات الغربية من الصخور والجبال والأرض المتربة والثلوج
الناصعة البياض ، لقد وصلنا الى منطقة (حسنان) .



للهمة الأولى في (حسنان) يخيل إليك ان الكرة الأرضية قد مالت
قليلا الى الخلف عن وضعها الطبيعي ، لا أرض مستوية ، المكان كله مقعر ،
تحفه من الجانبين مرتفعات جبلية تقوم كجناحين فردا الى اعلى بميل
خفيف ، الى اليمين جبل تاتان يشهق الى اعلى ، تغطيه تلوج بيضاء كالرذء
الأبيض والى اليسار جبل اقل ارتفاعا مغطى بالطين والوحل . والحركة فوقه
دؤوبة ، مستمرة طوابير من البغال بنية اللون تصعد الى اعلى . وطوابير
أخرى تنزل الى اسفل ، وجنود يحملون الاثقال او الاسلحة بينما يتطلع
آخرون شاهري السلاح الى الجبل والطرقات . دارت معركة كبيرة هنا
منذ ساعات ، والى اعلى جهة اليسار يرتفع جبل (سر حسن بك) . وكأنه
الأخ الأكبر والأطول قامة من تاتان ، انه يصل الى قلب السماء ، قمته مدبية
كسنام الجمل او قمة هرم ، تغطيه الثلوج تماما ، ترقب . وتحصى ، وربما
أذان تسمع أيضا ، واضح اننا اقتربنا من الشرق ، كلما ازداد ارتفاع القمم ،
واقترنا من السماء ، ان جبل هندرين الذي رايناه في حوض راوندوز
وارتفاعه (٥٩٦) مترا ليبدو قزما بالنسبة لسر حسن بك ، الصخور هنا
مغطاة باستمرار ، مما تحت الحشائش التي تنمو في الربيع والصيف ،
او الثلج ، او الوحل في الشتاء ، وتتوالى العوامل الطبيعية من امطار ،
وجليد ، وبرد ، وحرارة ، وبرودة ، وتبدل الطبيعة ثيابها أكثر من مرة
خلال العام الواحد ، ولكن تبقى المنطقة كلها وكأنها لازالت في بداية خلق
العالم ، يخيل لى ان الانسان الأول كان يرى نفس ما نشاهده : الانسان لم
يقرب كثيرا من هذه البقاع ، فلا اعمدة تلغراف تلوح ، ولا مباني من
الاسمنت او سقوف منازل كردية متدرجة ، مكان قاوم الزمن . والتأثيرات
المتعاقبة ولم يستوفتبدو الأرض مائلة ، ويقوم على جانبيه تاتان ، وسر
حسن بك فكاننا في قاع العالم مع اننا فوق قمة حسنان ، النقطة التي
تقف فوقها لا يقل ارتفاعها عن سطح البحر عن ٢٥٠٠ متر .
يتناقض مع ابدية الصمت في حسنان ، تستمر الضجة ثوان ، ثم تبتعد ،
ونشعر ان صلتنا بالمدن والدنيا قد انقطعت . تنطبق علينا الجبال ،
عند اقدام (سر حسن بك) الشامخ . (حسن بك) أحد شيوخ القبائل في
زمن بعيد ، لماذا اطلق اسمه على تلك القمة العالية ، وماذا تعنى كلمة
سر ؟ ربما تحفل الحكاية الكردية بتفاصيل غير ان كل ما عرفته عنه : انه دبر

مكيدة ليقذف بأحد أعدائه الى الهاوية من فوق احدى هذه القمم . ويبدو من الحكاية أن سبب ذلك اكتشاف عدوه لطريق سرى كانت تسلكه قبيلة حسن بك ، أثناء تحركها بين الجبال .



ان الثلوج فوق قمته الهرمية تضيء ، تعكس أشعة شمس لا تستطيع الوصول اليها ، وبالعين المجردة لا نستطيع أن نرى أى حركة فوقه . ولكن من خلال عيني منظار مقرب نلمح نقطا صغيرة بيضاء تتحرك ، وكأنها أنبجاح تطير فى السحب ، أو آدميون نراهم من بعيد يمشون فوق الغمام والضباب ، انهم بعض جنود الجيش العراقى ، لقد تم تحرير قمة (سر حسن بك) ورد العصاة عنها ليلة أمس ، أو بالتحديد فى الساعات الأولى من النهار . نفس الوقت الذى جرت فيه المعركة فى حسنان ، ان (كلاله) المدينة التى يعتبرها الملا مصطفى البرزاني قلعته ، تقع عند السفح الآخر لسر حسن بك . وتبدو من أعلى ، وفى الليل قامت طائرات الهليكوبتر بانزال مجموعات من رجال الصاعقة العراقية ، والمغاوير ، دارت معركة قاسية بالسلاح الأبيض فوق هذه القمة الهرمية الشديدة الارتفاع ، معركة تحت سقف السماء مباشرة وفى درجة حرارة تنخفض كثيرا عن الصفر . كان الجنود العراقيون لا يرتدون الثياب الخاصة بالجليد ، وبعد أن سيطروا على الموقع جاء صوت التائد ، قائد القطاع من مقره المتقدم :

— كيف الحال ؟

— زين سيدى .

— فى الصباح ستصلكم الثياب الخاصة بالجليد . لحظة صمت ، تتداخل فيها أصوات غامضة تعبر ليل الجبال الغامض

ثم يجيء صوت أحد المقاتلين .

— سيدى نحن نتدفا بالثلج . .

أهى روح السخرية لدى المقاتل الذى يتحدى الليل والطبيعة والسماء المظلمة ، وتلك القمم الوحشية ؟ معظمهم جاءوا من البصرة والكوت والحلة وبعضهم رأى الثلج لأول مرة فى حياته ، عندما طلعت الشمس عليهم أثر الليل البارد الطويل . معهم اكراد من جنود الجيش . ولكن لتخيل هذا الجندى الذى جاء من البصرة حيث درجة الحرارة مرتفعة جدا . ليحارب فى ليل جليدى ، وفى ظروف تتطلبها الحرب على الجليد ، حيث تصعب الرؤية ، بسبب الضباب الثقيل القوام كاللبن مما يستدعى استعمال نظارات خاصة ، فى الصباح كانت طائرات الهليكوبتر مع خيوط الضياء الأولى تنقل التجهيزات اللازمة للقوات ، قضاوا الليلة الأولى بملابس عادية ، يكتسب هذا المقاتل العراقى خبرة قتال فريدة ، مما يمكن له أن يسهم بهذه الخبرة فيما بعد فى مناطق تكثر فيها الثلوج — وان كانت أقل ارتفاعا — مثل جبل الشيخ بسورية ، أو الأجزاء المرتفعة من الجولان ، وتستمر حركة البغال على الجبل الراقد تحت سر حسن بك ، فوق ظهورها معدات القتال التى تنقل للرجال فى الاعالى ، يجب تزويد جنسدى المشاة بزحافات

ومساقات ، وملابس ثقيلة مجهزة بأساليب تحميه من قسوة الطبيعة الحارقة ، اما المعدات الحربية فترتكز على عمل الزحافات وتلك لها اشكال عديدة . فمنها الزحافات الفردية التي يستخدمها الافراد في سيرهم وتنقلاتهم على الاقدام ومنها الزحافات الخفيفة التي تحمل الرشاشات الآلية وجماعات المشاة المرافقة لها ، يضاف الى ذلك اعداد بعض انواع المدفعية المزودة بمزالق بدلا من العجل ليتسنى فعها للامام الى المواقع المناسبة بواسطة جرارات خاصة ، هذا وتستخدم القوة البشرية نفسها في سحب أو دفع زحافات ، احيانا لاسيما في المناطق التي يتأثر فيها الثلج بشكل هش غير متماسك ، اما الايواء فيسبب مشكله اخرى نظرا لعدم ثبات الثلج في مناطق محددة ، ويتطلب ذلك استعمال خيام خاصة مغطاة من جميع الجوانب ، ويسهل تطبيقها ونقلها بمعرفة الافراد ، كما انها محكمة الغلق بحيث لا توجد عند استعمالها أي ثغرات يمكن ان تنفذ منها حبيبات الثلج ، لقد واجهت القوات العراقية عدة صعوبات في مهاجمة هذه القمم العالية ، حيث تمتاز صعوبات حرب الجبال ، بظروف الصراع فوق ثلجات الجليد ، والتعرف على المكان ، ان القتال فوق ثلجات الجليد الأبدية تلك أمر مخيف بلا شك ، ونعود الى حسنان ، هل للاسم علاقة بحسن بك أيضا؟ كم عمر المنطقة الجيولوجية ، ما هي طبيعة تركيبها ، أسئلة كثيرة لا تجد اجابة سريعة ، لأن الواقع مشحون بما هو أهم ، فالقتال لازال دائرا ، والجبل المرتفع الى اليسر ، به مغارات كثيرة ، وكهوف شديدة الغور ، ومن المحتمل وجود بعض القناصة ، ان الخطر لا يكمن في الجليد ، والوحشية والصقيع فقط ، ولكن الحرب مندلعة ، نفس الخطر الذي يواجهه الانسان لحظة الاشتباك سواء في الصحراء ، أو البحر ، أو الجو ، ولكن تفرض الظروف نفسها على الخطر فتلونه وتغيره ، يظل الجوهر واحدا ، لكن الاطار الذي يدور فيه الصراع يفرض شكلا متغيرا ، ثلاثة انفجارات متعاقبة توالت ، ثلاث قذائف هاون ، ان الهاون بغيض ، يعادل في تأثير الطيران اذ تجيء القذيفة من اعلى رأسية ، صغیرها ، وتأثيرها النفسي أخطر ، تحمل في طياتها عنصر المباغته ، حيث يمكن اطلاقه من خلف مرتفع ، أو تل ، ويبدو الانفجار متصلا بصداه الذي تردد بين الجبال ، وفي الهواء يتجمد الدخان الرمادي كقطن أبيض واختفت الفروع التي تحمله ، يظل عالقا ، وتعلو العبارة التي تقال عند القصف ، يصبح أحد الضباط :

ممنوع التجمع . .

ويحمل جندي شظية ساخنة ، مديبة مشرشرة الحواف كأسنان حيوان غامض تم انتزاعها ، أو العثور عليها في حفريات ، ولا يمنع الذهن تصورا . ماذا لو وجدت طريقها الى رقبة أو ذراع . انفجار آخر ، نحاسي الرنين ، لم نر المصدر ، ولكنه أحد المدافع الجبلية للجيش العراقي ، ان صدى الانفجار يأتي بعيدا ، نائيا ، أشد غموضا ، وأقل وضوحا ، فلا ندري أين سقطت القنبلة ، أو من اصابت ؟ لكل مدفع صوت ، ولكل انفجار لغة ، تتنوع المصادر ، من دبابة الى هاون الى مدفع جبلي ، الى هارتزبر الى ٢٥ رطلا و ١٧٥ مللي في الجانب المقابل ، ولكن تتداخل الطبيعة

وتضفي على هذه الانفجارات رهبة في وعورة الصخور والتنقل ورسوخ الجبال ، بينما تظل منابع الأنهار نحيلة في بداياتها تتدفق فوق الجبال خضراء السفوح ، تتلاقى وتتدافع ، وربما ، أثر سقوط القنابل فوق الثلوج في ذوبان الجليد ، عندئذ يسرع تدفق المياه قليلا في العروق والشرايين التي تجري فوق الجبال ، أو المحفورة فيه ، تسرع قليلا لتعود المياه الى أيقاعها الهادئ المتحدى المشحون باصرار ازلي وكأنها الحياة تبدأ لتمضي السنوات الى المصيب .

عبر الايام الثلاثة الماضية سقطت فوق جبل تاتان الذي نقف الآن قرب منتصفه حوالي ٥٠٠٠ قنبلة دانه مدفع مما أدى الى ذوبان الجليد في بعض المواضع ، سكت القصف ، وهدأت الانفجارات ، وعادت الثلوج تتجمع من الجديد ، تتسرب في ميعادها الازلي المحدد ، تهب الرياح الباردة ، مسنونة الحواف ، وبلا أي مقدمات تتساقط زخات مطر وتستمر حركة الجنود فوق حسنان ، يصعدون وينزلون ، وكلما طغنا بالبصر فوق تاتان نلمح الكتل البيضاء الصغيرة المتحركة ، جنود الجيش العراقي . تتوالى انفجارات بعيدة الى الامام ، ويهتز رسوخ سر حسن بك (ممنوع التجمع) ، وتتوالى تكتكات صغير متقطع ، وصوت معدني آت من بعيد ، وأنظر الى عربة قيادة مدرعة ترابط عند منحدر شديد من الجبل ، ان جندي اللاسلكي يرد بداخلها ، ويبدو ايرياك الجهاز النحيل تائها بلونة الاسود الداكن فوق هذا البياض الشاهق ، ويتقطع الصغير ويتصل ، ويبدو الصوت الانساني المغلف بالسلك والمعدن ، أن مناطق الجليد تعتبر من انسب المناطق للموجات اللاسلكية . وعلى هذا يتم استخدام الاجهزة اللاسلكية الخفيفة لربط الجماعات البعيدة والمتناثرة ، ورأيت كوابل ميدانية خاصة لا تتأثر لو القيت تحت الثلج ، وهذه الكوابل مكسوة بطبقة من المطاط السميك ، ولان الجبال مشرقة ومهيمنة فان الموجات اللاسلكية تتعرض لما يسمى بالحجاب ، او الحاجز ، نظرا للمنخفضات والمرتفعات المتوالية ، وتستعمل آلات الازدواج الهوائي التي تسمح بوضع هوائي الجهاز اللاسلكي في مكان مناسب بعيدا عن الجهاز الذي يوضع في محل مختفيا بين التعاريج الارضية ، وأجهزة لاسلكية حديثة أخرى ، وكثيرا ما يحدث أن تتداخل الموجات اللاسلكية في بعضها البعض ، ويتم التصنت ، أو يتم شكل آخر من القتال على الهواء ، اذ يبدأ تبادل العبارات العنيفة بين جنود الاشارة في هذا الجانب ، والجانب الآخر تتوالى الانفجارات وينطلق مدفع وشاش سريع في تتابع متصل ، بدا في الصقيع كما كينة خياطة يديرها مخلوق خرافي لا يمت الى كوكبنا ، أن الانفجارات تسكن حيننا وتتتابع حيننا آخر ، وفوقنا يمتد تاتان ، والى اليسار يتظر الينا (سر حسن بك) من ارتفاع قصي ، وربما ينظرنا قناص حي يكمن في مكان ما من هذه الصخور المغطاة بالطحالب أو الجليد ، عناصر عديدة تتضافر لتجسد الخطر ، والقتال ، ولكن يظل للمكان تأثيره الاسمي ، بوحشيته ، وجماله ، وكل ما يضمه من ألوان تتداخل ، تتعاقب ، تفترق ، ألوان تمت الى الشتاء ، الى الربيع ، الى النبات ، الى الصخور ، الى الجليد ، الى

الصنيع ، المياه ، ومنابع الأنهار ، ومكامن الدبابات والقناصة . ورنين الانفجارات . يظل المكان مستوليا عليك ، يشدك الى عصور العالم الأولى ، ويبدو القتال عنصرا عامضا يضيف الى الرهبة بعدا ، وحسا ، ومعنى .



فوق حسنان ، قاع العالم ، بئر الدنيا ، تقف الدبابات العراقية ، وفي حركة دائرية لا تهدأ تتحرك المجنزرات من ناقلات الجنود الآلية ، تحترق فوق الوحل آثار الجنزير التي تشبه سلسلة ضخمة تطوق الأرض ، تمسك بحركتها ، ولكن الأماكن التي رأينا فيها الدبابات العراقية ، أو المركبات الآلية لا بد أن تثير الفضول ، كيف صعدت تلك الدبابات الى الاعلى ؟ . سواء فوق جبال حميرين أو كورك أو حسنان ، وتاتان ، يتجسد أمامنا عنصر الجراءة في التخطيط والتنفيذ ، وهذا يؤدي الى تحقيق المفاجأة ، أثناء معركة رد العصاة عن مضيق (كلى على بك) ، قرر القائد العراقي استخدام الدبابات في تطويق الممر ، وذلك بدفعها فوق جبل (كورك) الذي التقينا به عند خليفان وعبرناه بالهيلو كبتير ، ان درجة ميل السفوح المواجهة لخليفان تبلغ حوالي ٤٧ درجة . وتقدمت وحدات الهندسة الميدانية العراقية ، وحفرت طريقا فوق الصخور ، وعندما بلغ الطريق قمة الجبل ، بدأت البولذرات في شق الطريق المائل والمتجه الى حوض راوندوز ، حيث المدخل الثاني ، أو مخرج المضيق الرهيب ، استمرت البولذرات في شق الطريق . كان البولذر يمكنه أن يتحرك الى الامام أو الخلف لتوسيع الطريق . فكان الجزء الذي يهدى يأتي بولودوزر آخر ليتمه ، أي أن الآليات كانت تتقدم باستمرار الى الامام لتجهيد الطريق ، والبولودوزر الذي يتقدم لا يعود ، لأنه من الممكن التخكم في الاندفاع على الميل ، أما العودة فأمر صعب . وعندما بدأت الدبابات في التحرك كانت تواجه نفس الموقف ، الوصول الى حوض راوندوز وتطويق المضيق من الناحية الأخرى وهكذا محاصرته ، في نفس الوقت الذي تقوم فيه وحدات القوات الخاصة ، ولغاوير ، بالنزول بالهيلو كبتير فوق قمم كورك المشرفة على المضيق ، كان أمام الدبابات أن تتقدم فقط ولا سبيل الى التراجع ، وفوجيء العصاة بالدبابات من خلفهم ، نفس الأمر حدث هنا في حسنان نهار أمس الثلاثاء ، ولم يتوقع العصاة وصول الدبابات الى هذه المنطقة ، وبرغم وعورتها فانهم رصوا حتولا كثيفة من الألغام المضادة للأفراد والمدرعات والسيارات ، واحتلوا مواقع حاکمة . غير أن الدبابات واستخدامها الجريء الذي يتم على العزم والقدرة والابتكار ليست السبب الرئيسي في تراجع العصاة السريع وقتئذ كان في جانبهم أسلحة حديثة مضادة للدروع مثل صواريخ (المولوتكا) السوفيتية ، و (التاو) الأمريكية (١) وهما من أحدث الصواريخ المضادة للدبابات في العالم ، ولعب (المولوتكا) السوفيتي دورا حاسما في معارك أكتوبر خاصة على الجبهة المصرية عندما استطاع مقاتل مصري

() لم تزود به أمريكا إلا اسراير ضمن حقائقها واستعمل في الايام الأخيرة من حرب أكتوبر .

بمفرده تدمير ٢٢ دبابة وعربتين مجنزرتين ، كان من الواضح أن العصاة قد هزموا سياسيا منذ وقت مبكر ، ان آثار المعركة في حسنان تعكس الصورة بوضوح ، فهذه أسلحة أمريكية ، ومعدات من مختلف أنحاء العالم ، وعذب كرتونية مكتوب عليها بالفارسيه .
• نان جنكي - جيره عملياتي يكتفاه .
• وزن خالص - ٥٠٠ كرم .
• تاتاريخ . قابل استفاده است .

وبين الحين والآخر يحضر الجنود عبواتهم متفجرة لدانات مدافع الميدان التي يستخدمها العصاة ، حيث يوجد بها بقايا بارود ، يضعونه فوق الأرض ، يشعلونه ، عندئذ يشتعل البارود بنيران لها وشيش ، لكنها قصيرة الأجل سرعان ما تنفطىء مخلقة رائحة حادة يطويها الصقيع والمكان . وفوق الأرض رحنا نمشي بمحاذاة الجدار الصخري ذي الغطاء الأبيض الناصع لتاتان ، بينما ساد صمت مريب اذ كفت الانفجارات ، والصمت يثير قلقا في مثل هذه الحالات ، لانه ليس الصمت النهائي ، ربما يتفجر في أي لحظة ، ربما هنا ، ربما هناك ، ربما فوقنا مباشرة ، تجيء دانه كتبت اسماؤنا عليها لحظة اطلاقها كما يقول الجنود عند استشهاد بعض رفاقهم باصابات مباشرة . ولكن يظل لدى الانسان يقين غامض انه لن يصاب ابدا وانه سيتفادى الانفجار ، وهذا ما يمنحه القدرة والاستمرار على الحياة في جوف الخطر ، ما لفت نظري ثياب بعض المقاتلين ، فأنه صوف كاكية اللون ، فوق قميص صيفي ، ملابس ميدان عادية لا تتفق مع الصقيع ، هذه الثلجة الطبيعية التي نقف فيها ، وتذكرت قدرة الانسان اللامحدودة على التحمل ، ان الاندفاع في لحظات القتال يدفع بعيد من الاشياء الى خط الاهتمام الخلفي بالنسبة له يوما واحدا ، لحظة متصلة ، لا يشعر بتعب الا بعد انتهاء القتال ، قد يضطر الى المشي مئات الكيلو مترات ولا يدرك الارهاق قديمة الا بعد الوصول ، ان قدرة الانسان بلا حدود ، وطاقته لا نهاية لها ، ويبتسم وجه أحد الضباط .

— عندما تكون مشغولا بشيء لاتهم الظروف ، مادمت في حركة ، في تتبع لما يجري لا أشعر بالبرد ، لو لجأت الى الركود سأشعر بالبرد .
لاشك ان الحرب لها قوانينها الخاصة التي تغير بها طبيعة الزمان والمكان .

في الحرب يصبح للزمن ايحاء خاص ، يمضي النهار بسرعة ، يصبح الانسان مشغولا طوال يومه ، ما هو حجم الانفجارات ؟ أين سقطت الدانة التي انفجرت منذ قليل ، من أصيب ، صديق أو زميل ؟ أما لحظات الاشتباك نفسها عندما يلتحم الانسان بالانسان يتدغم كل شيء ، كل العناصر ، الثواني والساعات والأيام والسنين والآمال والهموم ، ويبقى (سر حسن بك) مظلا علينا من أعلى كأنه الزمن لا توجد حوض الموقع ، التجهيزات الهندسية أعدت على عجل ، تتناسب مع ظروف الهجوم لا الدفاع حيث تتخذ العمليات العسكرية للجيش العراقي طابعا هجوميا ، لا تزال المدافع الرشاشة تنطلق في الأمام ، لا أحد يستطيع أن يدلي بمعلومات عما سيصبح عليه الطقس في هذه المنطقة الجبلية ، نتطلع الى أعلى جبل تاتان ، القمة

تسمى العش الصخري ، تبرز بعض اطراف الصخور التي لم تكسها الثلوج وكأنها أنوف للجبل يحاول من خلالها استنشاق الفراغ ، أو تبدو كرؤس أسرى تحاول الأفلات لكن عبثا ، القيد الجليدي محكم وشديد ، يهطل المطر ، قطرات غليظة ، مثلجة ، تتوالى الانفجارات ، يتردد صداها الجبلي الوحشي ، كأنها صرخات الانسان في بداية خلق العالم ، اذ يتهدده خطر او حيف . وتتوالى صفارات أجهزة اللاسلكي غاهضة ، مثيرة ، وكأنها صفير القدر ، ونصعد الصخور ، في تلك المواضع عشرات الضباط والجنود الذين اشتركوا في القتال على الجبهة السورية عام ٦٩٧٣ ، كانوا ضمن تشكيل اللواء المدرع السادس ، نفس التشكيل الذي يحارب في هذه المنطقة الآن ، في يوم ٢١ أكتوبر منح اللواء المدرع السادس وسام الرافيدين مع اللواء ١٢ ، (لواء خالد بن الوليد) من قبل القائد العام للقوات المسلحة العراقية ورئيس الجمهورية أحمد حسن البكر .



أكتوبر ١٩٧٣ :

اللواء السادس المدرع مرابط في منطقة صخرية وعرة بأقصى الشمال العراقي ، منطقة بعيدة جدا عن الحدود السورية العراقية ، يعتبر أبعده التشكيلات العراقية ، بعد وصول أمر التحرك بدا منذ اللحظة الأولى أن اللواء مجابه بمعركتين ، معركة الانتقال الى الجبهة والمعركة الثانية الاشتباك ذاته ، بدأت المعركة الأولى منذ وصول الأمر ، تدفقت الدبابات واحدة اثر الأخرى على طريقاً طويل محدود ، فوقه أكثر من لواء متناوب ، وصل التشكيل الى منطقة الصمينين في القطاع الأوسط من الجبهة السورية ، احتلت المدرعات مواقعها ، واجه اللواء السادس صعوبة تعرضت لها جميع التشكيلات العراقية ، وهي عدم التعرف المسبق على الأرض ، قام قائد اللواء وقادة الكتائب باستطلاع سريع للمنطقة ، استوعبوا معالم الأرض التي يحاربون فوقها ، وساهمت عوامل ايجابية أخرى في تخفيف المصاعب ، مثل الروح المعنوية العالية للجنود ، كما أن طريقة التعبئة التي يتبعها اجليش العراقي تتبع العقيدة الغربية ، وهذا جعل المقاتلين أكثر فهما للعقيدة التعبوية للعدو ، ثم مصاحبة قادة الوحدات لرجالهم فترات طويلة بحيث أن كلا منهم كانوا يستوعب تماما امكانيات وحدته ، وتسليحها ، ويعرف أفرادها امكانياتهم القتالية والشخصية ، كانت الأرض التي استطلعها القادة وعرة لكنها ليست أشد وعورة من الأراضي التي يرابط فيها اللواء بالعراق ، وليست أشد وعورة من المناطق التي حارب فيها من قبل ، انضم اللواء الى القوات العراقية المتواجدة في الجبهة ، وفي يوم ١٦ أكتوبر كان متأهبا لأداء عدد من المهام القتالية .



١٦ أكتوبر ١٩٧٣ :

شهد هذا اليوم نشاطا حاسما للقوات العراقية ، عكس موقف قادة العدو قلقهم من التغيير الذي أحدثته القوات العراقية على الجبهة السورية ،

بدأت أجهزة الاعلام الصهيونية تشن حربا دعائية اشترك فيها كبار المسئولين الاسرائيليين ، فى هذا اليوم صرح الجنرال حاييم هيرتزوج : « اليوم هناك فرقة عراقية فى سوريا ، وقد جاءت من بغداد حيث يحكم جناح حزب البعث المختلف مع الجناح الحاكم فى سوريا ، ويجب أن نرى وراء هذا الدعم ليس الدوافع والفكرى الهستيرى فحسب بل أهداف ودوافع سياسية عربية داخلية لذلك فليس من المستغرب أن يكون العراقيون قد وضعوا بعيدا عن دمشق » .

كانت القيادة الاسرائيلية قد ادركت أن وصول القوات العراقية قد انهى تماما آخر احتمال لاقتربهم من دمشق أو محاولة احتلالها ، وكانت القوات العراقية قد انتقلت فى هذا اليوم الى مرحلة الهجوم النشط بعد أن خاضت قتالا عنيفا خلال الأيام السابقة تمكنت خلالها من وقف القوات الصهيونية ودحرها الخلف ، وفى منطقة جبعا ، تل الشعار ، تمكنت القوات العراقية العاملة فى هذا القطاع من ارجاع الاسرائيليين عدة كيلو مترات الى الوراء .

من ناحية أخرى بدأت القوات العراقية ومعها تشكيلات سورية وقوات عربية من الأردن والسعودية والمغرب هجوما واسعا على شكل نصف دائرة فى اتجاه الطريق العام المؤدى الى القنيطرة ، وذلك بغرض دفع الاسرائيليين الى الغرب ، واخراجهم من بعض التلال والمواقع فى المنطقة لتهيئه الأوضاع انتظارا للهجوم المضاد الشامل الذى كانت القيادات العربية تعد له ، فى هذا اليوم دارت معارك عنيفة فى منطقة كفر ناسج ، كان العدو قد وزع قواته كالاتى :

- لواء مدرع وكتيبة مظلمة و ٣ كتائب مدفعية على خط تل الشمس - أبويه .
- لواء مدرع وفوج مشاة آلى و ٣ كتائب مدفعية على كفر ناسج - تل المال .
- ٢ لواء مشاة وبقايا ٢ كتيبة مدرعة على خط وقف اطلاق النار .
- ٤٠ الى ٥٠ دبابة احتياطى فى المؤخرة .

وفى الجانب العربى تحشدت القوات التالية ق

- لواء مدرع عراقى .
 - لواء مشاة آلى عراقى .
 - لواء قوات خاصة عراقى .
 - لواء مدرع أردنى وضع تحت أمر القيادة العراقية .
- كان العدو قد حدد أهدافه بالاندفاع نحو طريق دمشق - الشيخ مسكين ، وقطعه لعزل سوريا عن الأردن ، وتضمنت الخطة العربية مهاجمة مواقع العدو بلواءين مدرعين ، أحدهما عراقى والآخر أردنى واحتلال تل المال - الطيحة - مسخرة ، وبقاء لواء مشاة آلى فى الاحتياط ، ويقوم بحماية الجناح الايمن للتشكيلات المهاجمة ، وساندت الهجوم ستة كتائب مدفعية سورية ، وثلاث كتائب مدفعية عراقية جديدة اشتركت فورا فى الهجوم، وأدى القصف المدفعى المركز الى وقوع خسائر كبيرة فى العدو ، خاصة فى مدرعاته ، التى تمركزت فى خط يمتد على شكل قوس من بيت جن فى سفح جبل الشيخ الى سعسع ، وكناكر ، وتل مرعى ، ودين العدس ، وتل

المال وقرية أم باطنة ، ونظرا لانسحاب لواء خالد بن الوليد من تل عنتر فقد عدلت أهداف اللواء السادس المدرع العراقي ، وأصبح منها استعادة التل . وضعت قيادة اللواء خطة استعادة التل على أساس مهاجمة التل من الجناحين الأيمن والأيسر ، في تمام الساعة السابعة من صباح ١٦ أكتوبر تقدمت كتيبة الدبابات المعادية ، وخلال الزحف جرح قائد سرية دبابات بتأثير نيران مدفعية العدو الشديدة ، وعند وصول الكتيبة الى أهدافها شن العدو هجوما مضادا مستخدما الدبابات والصواريخ المضادة للدروع . وتمكنت الكتيبة من تدمير ٧ دبابات معادية إلا أنها اجبرت على الانسحاب لتفوق القوات المعادية ، وخسرت ٩ دبابات واستشهد ثلاثة ضباط ، وثلاثة

عشر ضابط صف وجندي ، وجرح سبعة .

أما الكتيبة المكلفة بمهاجمة الجناح الايسر لتل عنتر فقد شرعت في الهجوم الساعة ٨ر٤٥ ، وأثناء القتال استخدم قسم منها لتعزيز هجوم الكتيبة المهاجمة على الجناح الأيمن ، وهكذا أصبح واجب الكتيبة هو محاولة التأثير على العدو القائم بمهاجمة تل عنتر ، وانسحبت الكتيبة بعد اخلاء تل عنتر ، بعد أن خسرت ٩ دبابات ، و ٩ شهداء منهم ضابط واحد ، أما اللواء المدرع الأردني فقد تقدم الى أهدافه في مسخرة ، وأثناء تقدمه اشتبك بالعدو في معركة عنيفة تكبد اللواء خلالها ١٣ دبابة ، ولم يتمكن من الوصول الى أهدافه .

احتل لواء المشاة (الثامن) العراقي المكلف بحماية الجناح الأيمن للتشكيلات المهاجمة موقعا في غباغب ودير العدس لصد اندفاع العدو من هذا الاتجاه ، هاجم العدو بدرعه هذا القطاع وتمكن من ازالة احدي كتائب اللواء من مواقعها ، الا أن اللواء تمكن بهجوم مضاد قوى من استعادة هذا الموقع (دير العدس) وتحطيم ٧ دبابات معادية . وقام العدو بمعاودة هجومه مرة ثانية ، لكن اللواء تمكن من صدده وفي الساعة الخامسة بدأ العدو في الانسحاب من المواقع المواجهة . في الليل قام أحد أفواج القوات الخاصة بمهاجمة مأوى دبابات للعدو في الساعة الرابعة من فجر ١٧ أكتوبر ، طوال الاشتباكات لم تتوقف القوات الخاصة العراقية عن القيام بالغارات ضد العدو .

انتهت معركة كفر ناسج ، يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، واستمرت حتى الساعة الخامسة يوم ١٧ أكتوبر ونتج عن القتال الحاق خسائر فادحة بالعدو ، واستنزاف طاقته الهجومية ، واحباط أهدافه التي أراد من خلالها تحقيق الوصول الى طريق دمشق - الشيخ مسكين - درعا وعزل سوريا كلها عن الأردن ، الى جانب هذا تحققت أهداف أخرى هامة خلال يوم ١٦ أكتوبر منها :

• تبديل القوات العراقية التي اشتبكت بالعدو بصورة متواصلة خلال الأيام الثلاثة المنقضية على وصولها الى الجبهة وبدون توقف .
• ستر تحشد بقية القوات العراقية التي تقاطرت على الجبهة السورية وبدأت التمرکز استعدادا للهجوم الواسع الذي كان متوقعا القيام



١٧ . ١٨ ، ١٩ ، أكتوبر :

واصلت القوات العربية استنزاف طاقة الاسرائيليين بشن العديد من الهجمات ، ومع تدفق القوات العراقية المستمر أوقفت القوات الاسرائيلية تحركاتها الهجومية تماما ، أصبحت القوات الاسرائيلية المتمركزة داخل الجيب في نهاية طريق مسدود ومهددة بالقضاء عليها في أية لحظة ، في نفس الوقت تدفقت المساعدات السوفيتية على دمشق مما دفع بأعداد جديدة من الدبابات والمدفعية الى الجبهة ، لم تعد القوات الاسرائيلية قادرة على انجاز الحسم الذي كانت تتوقعه قيادتها في البداية ، كما لم تعد قادرة على تسديد ضربة قاصمة الى هيكل الجيش السوري ، أو تهديد دمشق ، وهذا ما سعت اليه اسرائيل منذ بداية مرحلة هجومها المضاد على الجبهة الشمالية في ١٢ أكتوبر ، والذي بدأ مع وصول طلائع القوات العراقية التي تصدت للهجوم الاسرائيلي ، اوقفته ثم ردت ، محيطة بذلك الهدف الاستراتيجي للعدو ، وهو تطويق دمشق أو احتلالها ، ويجب أن نعي هنا أن حماية دمشق من الهجوم الاسرائيلي وردة عنها ، له اثاره العميقة على الحرب كلها ، تتجاوز حدود العمل العسكري ، فمن المعروف أن العدو الاسرائيلي يركز على الانتصارات والمكاسب التي تحقق دويا اعلاميا بنفس المستوى الذي يحقق منها مكاسب استراتيجية أو تكتيكية . ولا شيء يعادل هذا مثل احتلال المدن ، في سنة ١٩٦٧ كانت قواته تندفع الى العريش كهدف أساسي بينما وحدات القوات المسلحة المصرية لا تزال تقاتل في الخطوط الامامية ، وعند اعلانه احتلال مدينة يحدث هذا آثارا نفسية ومعنوية مدمرة؛ لهذا يمكن القول أن حماية دمشق من السقوط ، ودفع الهجوم المضاد الاسرائيلي ، من الخطوط الأساسية التي أثرت في مسار ونتائج حرب أكتوبر ليس على مستوى الجبهة السورية فقط ، انما على مستوى الحرب كلها ، والوطن العربي كله ، وخلال لقاءات بالمقاتلين العراقيين الذين حاربوا على الجبهة السورية ، كانوا يتحدثون عن تلك الأيام ويتوقفون كلهم ليصوغوا انفعالا متشابها في كلمات متقاربة .

أحسن أن دمشق أمانة في رقبتنا وكأنها أمانة تخصه شخصيا .

في يوم ١٨ أكتوبر ، تبدلت الأوضاع تماما على الجبهة السورية ميزان القوى أصبح في جانب الجيوش العربية ، والخطوط الدفاعية حول دمشق أصبح من المستحيل اختراقها ، في هذا اليوم جرت معركة تل عنتر، وساحة العمليات في المنطقة متموجة بها عدد من التلال المسيطرة يبعد كل منها عن الآخر مسافة من ٢ - ٥ كيلو مترا وتساعد هذه التلال على المراقبة والرصد ، وتتخلل المنطقة وديان عديدة تساعد على التسلل والمفاجأة لكنها لا تعوق تقدم الدبابات والمنجنزرات ، ويبلغ ارتفاع تل عنتر ٨٥١ قدما ، ويسيطر على المنطقة المحيطة به ، ويشرف على قرية كفر شمس ودير العدس حتى تل غشيم ، وتل غرابية ، كان العدو يحتل منطقة جديدة تقع وراء خط وقف اطلاق النار عام ١٩٦٧ ، وكانت قواته كما يلي :

- لواء مشاة آلي في منطقة تل شمس .
- لواء مدرع في منطقة تل عنتر .

- ٢ لواء مشاة على خطوط وقف اطلاق النار ، معززة بكتيبتين دبابات
- احتياطي حوالي ٥٠ دبابة •
- وركز العدو دفاعه على الأسلحة المضادة للدبابات بينما احتفظ بمدفعاته في الخلف ، بينما احتشدت القوات العربية في المواجهة ، وكانت التشكيلات العراقية عبارة عن :
 - لواء مدرع •
 - لواء مشاة آلي •
- وكان احتياطي القيادة لواء آخر يقوم باعادة التنظيم ، وكانت القيادة لواء مشاة •
- السورية قد طلبت من القائد العراقي الشروع في الهجوم الساعة السادسة من صباح ١٨ أكتوبر ، غير أن القوات العراقية كانت واصله لتوها ، ومعظم الدبابات لم تتخذ مواقعها ، كما ان قادة الوحدات لم يقوموا بأي نوع من الاستطلاع في المنطقة ، وطلب تأجيل التوقيت وجعله الساعة الثالثة من فجر ١٩ أكتوبر ، وذلك لاتاحة الفرصة أمام استطلاع جيد في نهار ١٨ أكتوبر ١٩٧٣ ، وتم الاتفاق على هذا التوقيت ، وتضمنت الخطة المراحل التالية:
 - احتلال تل عنتر بالمشاة ليلا ، واندفاع الدبابات لتعزيز الهجوم ووصولها مع المشاة لتقليل تأثير أسلحة مقاومة الدبابات وتأمين المباغته بالاستفادة من الظلام •
 - يهجم لواء مدرع على العدو في تل عنتر الساعة الثالثو من فجر يوم ١٩ ، ويدمر العدو هناك ، ويستمر في التقدم حتى تل (خرين) •
 - يقوم فوج مشاة آلي بالهجوم على مواضع العدو في تل عنتر بالجبهة في الساعة الثالثة يوم ١٩ •
 - تقوم كتيبة دبابات بالهجوم على الجانب الايسر للتل في الساعة الخامسة والنصف من صباح ١٩ أكتوبر •
 - تقوم كتيبة دبابات بحماية الجناح الأيمن للكتيبة السابقة وتصد هجمات العدو •
 - كتيبة دبابات في الاحتياط •
- في الساعة الثانية والنصف من يوم ١٨ أكتوبر ، قام اللواء الركن مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري بزيارة الى مقر القيادة العراقية ، وطلب تأجيل الهجوم حتى الساعة التاسعة من صباح ١٩ أكتوبر ، بدلا من الساعة الثانية وذلك لتنسيق هذا الهجوم مع هجوم لواء سوري على الحدود في قاطع سعسع ، وجرت مناقشة أوضح خلالها القائد العراقي وجهة نظره في عدم تأجيل الهجوم حتى الساعة التاسعة من صباح ١٩ أكتوبر ، واقتنع اللواء طلاس بما قاله القائد العراقي ، الا انه أصر على اجراء الهجوم الساعة التاسعة ، وكان هذا يعتبر أمرا نهائيا لان التشكيلات العراقية العاملة بالجبهة السورية تحت قيادته مباشرة • غير أن قرار تأجيل الهجوم على تل عنتر لم يصل في وقت مناسب الى اللواء المدرع السادس الذي وقع عليه الواجب الرئيسي للهجوم ، اذ أن قائد الفرقة العراقي تسلم برقية في تمام الساعة السادسة صباحا من اللواء المدرع تفيد بأنه تمكن

عن احتلال تل عنتر ، وأن العدو يضغط عليه بشدة وهنا عرف القائد ان أمر التأجيل لم يصل الى اللواء في الوقت المناسب . في الساعة الثانية وألثبات بدأ تقدم فوج المشاة الآلى الى الهدف وبالرغم من كشف الهجوم من قبل عناصر الاستطلاع الاسرائيلية المتمركزة فوق التل ، وتصدى المدفعية المعادية الا أن المهاجمين واصلوا تقدمهم ، وتمكنوا من احتلال أهدافهم فوق التل الساعة الرابعة والنصف ، وطلب قائد الفوج تقدم سرية دبابات ، والأسلحة المضادة للدروع للالتحاق به ، الا أن الاتصال اللاسلكى كان مقطوعا ، وهكذا لم تصل هذه المجموعات اليه في الوقت المطلوب ، بدأ العدو بتسليط نار مدفعية شديدة على التل وبدأت دباباته في الاقتراب من التل ، ولم يكن لدى فوج المشاة العراقي الا أسلحة مقاومة الدبابات تم دفعها الى النقاط المتقدمة للاستفادة من أقصى مدى لها ، الا أن ازدياد ضغط دبابات العدو ، وعدم وصول أسلحة مقاومة الدبابات والمدرعات أجبر المشاة على خوض قتال تراجعى عبر المواقع التى كسبوها فوق التل ، وكانت الخسائر أحد عشر شهيدا منهم ضابط ، وتسعة وعشرين جريحا ، وأربعة وعشرين مفقودا .

اندفعت كتيبة الدبابات المكلفة بحماية الجناح الايسر لفوج المشاة الى أهدافها ، وصلت بالقرب من تل عنتر في الساعة السادسة ، الا انها ووجهت بنيران شديدة من العدو أجبرتها على ايقاف التقدم ، وخسرت الكتيبة أربعة عشر شهيدا وسبعة وعشرين جريحا ، أما الكتيبة الأخرى المكلفة بحماية الجناح الأيمن للكتيبة السابقة فقد استمرت فى تأدية مهامها الا أن صعوبة الموقف بالنسبة للتشكيلين الآخرين ، وتعرضها لهجوم مكثف من الطيران المعادى أوقع فيها اصابات جسيمة ، غير انها صمدت فى مواقعها .

وعلى امتداد يوم ١٩ أكتوبر اشتركت جميع التشكيلات العراقية فى شن هجمات محلية ضد القوات الاسرائيلية ، خاصة فى القطاع وذلك بهدف اضعاف قوات الثغرة تمهيدا للقضاء عليها .



النهار عمره قصير فى حسنان ، والشمس هنا ضعيفة ، يبدو انها تنهك حتى وصولها الى هذا المكان الموحش النائي من عالمنا ، تقف فوق قمة جبل حسنان ، غير أن تاتان و (سر حسن بك) جعلاه أشبه بقاع البئر ، من الغرب تجيء طائرات الهيلوكبتر ، بينما يتحول الهواء الى نقطة رمادية غامقة ، بإمكاننا أن نلمح بعض السحب قرب منتصف سر حسن بك ، وكان الجبل ينفث دخانا ، وتبدو السماء البعيدة فوق القمة الهرمية صافية نائية، كأنها وعد غامض بالوصول ، يبدو ان ثمة اخبارا جديدة .

لقد تم توقيع اتفاقية بين العراق وإيران ، أثناء انعقاد مؤتمر القمة لمنظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) فى الجزائر ، أعلن الرئيس الجزائرى

هواري بومدين نبأ اتفاق ايران والعراق على تسوية المشاكل بينهما .
خاصة فيما يتعلق بالحدود ، ربما لو سمعنا الخبر في بغداد ، أو
القاهره ، لحدث صدى مختلفا ، لكن هنا في هذه البقاع الوحشية ، حيث
الجيال الأبدية ، والحرب ، يكتسب الخبر أبعادا أخرى ، وأصداء مختلفة ،
ما أعلن في الجزائر ينعكس على ما يجري حولنا ، ما نراه ونسمعه ، نلوهلة
الأولى ينطبع في الذهن مدى ما في الخطوة من براعة سياسية من جانب
العراق ، وبسرعة تبرز الأسباب التي تؤدي بإيران الى قبول تلك الاتفاقية،
بمعنى أدق انها تدخلها المسلح الى جانب الملا مصطفى البرزاني ، ولاننا
في أقصى المواقع الامامية ولاننا في الجبل ، فمن الطبيعي أن يتطرق حديثنا
عن الاتفاق الى الناحية العسكرية ، خلال الفترة الأخيرة شهدت منطقة الحدود
العراقية - الايرانية ، والمناطق التي تجري فيها معارك تزايدا ملحوظا في
عدد الجثث التي تعبر الحدود الى داخل ايران ، الجنود الايرانيون الذين
قتلوا أثناء اشتراكهم في القتال ضد الجيش العراقي ، من ناحية أخرى
ايران بدأت تشعر بالقلق نتيجة سبب آخر ، كان عدد كبير من الكراد
ايران يتم تجنيدهم وارسالهم للقتال في صفوف الملا ، ولهذا آثاره البعيدة
المدى داخل ايران نفسها ، إذ أنه بمثابة زرع العصيان سياسة مزدوجة
تجاه الاكراد ، فهي من ناحية تسمح بايواء الاكراد الذين اضطرتهم الظروف
الى النزوح من الأراضي العراقية ، ومعظمهم عائلات اما أجبرت على الرحيل
الى الأراضي الايرانية ، لا يتم أى اتصال بين الكردي القادم من العراق ، والمقيم
في أحد هذه المعسكرات ، بل ان أجهزة الدعاية راحت تبث الشائعات في
المعسكرات وفي مناطق تجمعات الاكراد الايرانيين لبث الكراهية في كل
جانب ضد الآخر ، في نفس الوقت تقوم السلطات الايرانية بتسليح الاكراد
وارسالهم لدعم التمرد الرجعي ، من ناحية أخرى بدأت الاشتباكات التي
كان الجيش الايراني يتدخل خلالها بصورة مباشرة تشكل عبئا على الجيش
ايراني واستنزافا لأرواح جنوده ومعداته .

وكانت أجهزة الدعاية العراقية تشن حملات قوية ضد النظام الايراني
مما سبب متاعب شديدة في الداخل ، كانت الاذاعة لاتبث الشعارات أو
المقالات السياسية المهيجة فحسب ، انما كانت تخصص برامج تشرح
خلالها تكتيك العمل السياسي السري والعلني ، بالنسبة للطلبة ، والعمال،
والجنود ، تشرح كيف يمكن للطالب ان يهرب من رقابة البوليس . كيف
يمكن أن يطبع منشورا ثم يوزعه ، ثم تأتي أسباب أخرى . منها ارتباط
الملايين من أبناء الشعب الايراني بالمناطق المقدسة في النجف الاشرف ،
الارتباط الذي كان يدفع بكثير من الايرانيين للحج الى هذه المراكز
وكر بلاه ، والكاظمية ، وسامراء ، حيث مراقده ومزارات أئمة الشيعة . هذا
على الأقدام ، وفي الوقت الذي قطعت فيه العلاقات بين البلدين ، كان المواطن
ايراني يرسل من ماله الخاص مبلغا كل عام لايداعه في صناديق النذور
في المساجد العراقية ، عوامل كثيرة تؤدي الى توقيع هذا الاتفاق ، المشير
بالنسبة لنا هو ان نعلم به أثناء تواجدنا هنا في حسان ، هل سنشهد

المراحل الأخيرة لتلك الحرب ؟ ويحل السلام ؟ تتوافر الظروف المناسبة لتطبيق الحكم الذاتي ، ولتنفيذ المشروعات الكثيرة التي اعدتها ثورة العراق ، وبعد ذلك يتفرغ الجيش العراقي لمواجهة القومي ، تنتهي تلك الحرب التي تستنزفه ، والتي يعي المقاتلون أحد أهدافها ، شغلهم عن اشتراكهم بشكل حاسم في أي معركة أخرى ضد اسرائيل ، ما حدث في أكتوبر ١٩٧٣ درس فيه الامبريالية والصهيونية جيدا ، تذكرت سطورا من احدي افتتاحيات جريدة الثورة أيام أكتوبر ١٩٧٣ ، في ١٢ أكتوبر تحدثت الثورة عن العلاقات بين ايران والعراق :

« من المعروف ان علاقات ايران بالعراق كانت قد تدهورت منذ عدة سنوات ، وبلغت درجة خطيرة من التفاقم ، ومعروف أيضا أن العراق ، كان مضطرا وبحكم مقتضيات الدفاع عن السيادة الوطنية الى وضع جزء كبير من قواته على طول الحدود الشرقية للعراق التي تمتد مئات الكيلو مترات ، وعندما اندرعت نيران المعارك في ٦ تشرين ، كان العراق قادرا على ارسال قدر من قواته البرية الاحتياطية الى ساحة المعركة بصيغة المشاركة الرمزية ، غير ان العراق لم يكن ينظر الى المعركة ، من زاوية التضامن العربي التي تحدد مشاركته نوعا وكما بالقدر الاعتيادي الذي تسمح به الظروف الاعتيادية ، وانما كان ينظر الى أن المعركة الدائرة رحاها ، هي معركة تحرير قومي عليه ان يشترك فيها بكل طاقاته وبصيغ استثنائية ، وان يتخذ لاجلها قرارات استثنائية ، ويقدم في سبيلها تضحيات استثنائية .»

لم يكن العراق يعامل في يوم من الأيام نوايا عدائية تجاه ايران ، وكان يرغب دائما في العيش معها بسلام ، واقامة علائق ودية من التعاون معها ، الا أن طبيعة علائق ايران مع أمريكا من ناحية وسياساتها تجاه العراق ، ومنطقة الخليج العربي من ناحية أخرى . وطيلة السنوات الماضية ، كانت تحول دون ذلك ، وقد فشلت كل المساعي التي بذلها العراق في هذا الاتجاه ، ومنها اللقاء المباشر الذي تم في جنيف ، في نيسان عام ١٩٧٣ ، بين وزيرى خارجية العراق وايران ، ذلك اللقاء الذي مهدت له زيارة مبعوثين إيرانيين الى بغداد في وقت سابق .»

ومع اصرار العراق على نهجه السلمى هذا ، ورغبته الاكيدة الآن وفي المستقبل في اقامة علاقات حسن الجوار مع ايران وحل المشكلات معها بروح التعاون ، والعلائق التاريخية العريقة ، وهو ما أكده كبار المسؤولين العراقيين للمبعوثين الايرانيين اللذين زارا بغداد في مطلع هذا العام ، فان القرار الأخير الذي اتخذه العراق والذي عبر عنه بيان مجلس قيادة الثورة في ٧ (تشرين) أكتوبر كان الدافع الأساسى والمباشر له ، هو تحرير القدرة

العسكرية العراقية كرهاً تنصرف كلياً إلى المساهمة الشاملة في
المعركة القومية ، برغم ما يحمله هذا الموقف من توضيحات على
الصعيد القطري .

ومع تأكيدنا هذه الحقيقة ، فإننا نؤكد أن القرار الذي اتخذته
العراق في ٧ تشرين ليس قراراً تكتيكياً ، يمكن أن يتغير بعد تغير
الظروف الراهنة ، فما دام هذا القرار قد اتخذ فإنه سيبقى ثانياً
مهما كانت الظروف ، أن العراق يتعهد بالتزاماته بشرف إذا قابلته
الآخرون بروح ايجابية .

ومن المعروف أن العراق هو القطر الوحيد بين أقطار المواجهة
مع العدو الذي يعاني مشكلة أمن داخلية خطيرة بسبب الأوضاع
في المنطقة الشمالية من البلاد ، وليس هنا بالطبع مجال الحديث
المفصل عن هذه المشكلة ، ولكننا برغم المساعي التي بذلت على
طريق الحل السلمي ، والديمقراطي للمسألة الكردية ، وبرغم
ثقتنا المطلقة بشعبنا الكردي ، وبقواه الخيرة ، وبرغم ثقتنا الكاملة
برسوخ الجبهة الداخلية وتكاتف كل القوى الوطنية من العرب
والأكراد والأقليات المتأخية وشعورها الكامل بالمسؤولية ،
وبخاصة في الظروف الراهنة فإننا ولظروف خارجة عن إرادتنا
وعن إدارة القوة الوطنية الخيرة من العرب والأكراد لا نستطيع
في أي ظرف تجاهل هذه المشكلة ، والاستهانة بما تحمله من
أخطار على وحدة العراق الوطنية وعلى استقراره الداخلي .

وبرغم النقطتين السابقتين وما تتطلبانه من إجراءات ، تدابير ، على
ما فيهما من اختلاف في الطبيعة وفي العناصر وفي الوسائل كان القرار
الشجاع الثوري بأشتراك القوات العراقية في المعركة . . . ويدوي انفجار ، ثم
آخر ، يتوالى الصدى النحاسي حتى يتوه في ثنايا الجبال ، لم تنته الحرب
بعد ، ومع رحيل ضوء الشمس ، يبدأ البرد ، يوخز العظام ، ليل الجبال
يبدأ .

يذيب الظلام الصخر ، يصبح وجود سر حسن بك وتاتان محسوساً
أكثر مما هو مرئي ، تلمع النجوم بشدة وتبدو قريبة جداً من الأرض وأعدادها
كثيرة جداً ، يبدو أن سماء المدن تخفي النجوم وتزيئها بالأضواء الصناعية
الواهنة ، حواف الجبل والقمم النائية تحدد الملامح ، هنا يصعدون الجبل
على ضوء النجوم ، يعرفون الطرق والممرات التي تقترب أو تنأى من الهاوية ،
يبدو كل شيء وكأنه غير حقيقي ، وكأنه انعكاس لما يدور في عالم آخر ، القمم
العالية مرسومة بدقة على خلفية سماوية معتمة الضوء والنجوم أكبر حجماً ،
وأقرب إلى متناول اليد ، فجأة يبدو من أعماق الظلام جذع أو فروع الشجرة

بلوط ، أو منظر صخرة اتخذت هيئة آدمية فكأنها شيخ عجوز يجلس القرفصاء ملتحفا بعباءته ، أو أم تحتو على طفلها ، أو وحش غامض على وشك الانقراض . وتلمع في الظلام بلورات الجليد كالعيون بتأثير انعكاس ضوء النجوم ، في مواضع معينة تهب الرياح فتبدو لغة غامضة ، ربما تتفاهم بها صخور الجبل وممراته ودروته ، ثم ينزل صمت قد يستمر لحظات قصارا ، أو فترة لا يمسح خلالها الا وقع الخطى ، وحفيف الثياب ، وأحيانا قد يصدر صوت غامض من . كان مجهول ، ربما يشبه صرخة ، أو سقوط شيء ، أو انهيار داخل الجبل ، أو اصطدام اجنحة طائر بفروع شجرة ، صوف ليلي لا يفصح عن هويته لم تتعوده آذاننا ، صوت ينتمي الى الجبل ، ويردد الصدى من بعيد طلقات نارية متتابعة ولا يتكلم أحد ، لكن التداعيات المصاحبة لاطلاق الرصاص تتوالى ، ربما بعض الجنود فوق رابية قد لمحو شيئا يتحرك في الظلام ، اطلقوا عليه النار ، ربما حيوان مرق أمامهم ، ربما بعض العصاة يشتبكون مع الجنود ، ربما اصابت احدى هذه الرصاصات انسانا في مقتل ، في الحرب وخلال الليل ، يبدو الكثير من الاصوات ملفعا بالغموض ، مجهول المصدر ، وقد يكتسب الصوت العادي دلالات وأبعادا لم تصحب صدوره ، يضيئ الليل غموضا على كل ما يحتويه الكون ، بينما يبقى وجود الجبال قويا ، مسيطرا .

أن الحرب ضد الطبيعة أكسبت الجيش العراقي خبرة قتال فريدة في هذه الاصقاع ، وجبال العراق أعلى جبال الشرق الأوسط ارتفاعا ، المناطق الجبلية في العراق تعتبر اجزاء من جبال (حكارى) ، وجبال زاغروس على الحدود العراقية/ التركية والحدود الايرانية - العراقية ، وتتصل جميع جبال الاناضول ، وجبال ايران ، وجبال العراق بعضها ببعض في اقليم آارات الذى يبلغ ارتفاعه سبعة عشر ألف قدم . وعلى قمته تتلاقى الحدود الايرانية والتركية والروسية ، فهو بمثابة نقطة العقدة بالنسبة لهذه الجبال ، ومايهمنا هو تلك الجبال التى تقضى فوقها ايامنا مع الجيش العراقي في الشمال ، أما الجبال المتوسطة فتقع في منطقة الحدود العراقية - التركية ، سوف نراها في وقت لاحق ، أعلى جبال المنطقة المحيطة بنا جبل حضاروست ، وارتفاعه (٣٦٠٧) مترا ، أى أكثر من عشرة آلاف قدم ، وأقلها ارتفاعا جبل حرير ، وارتفاعه (١٤٤١) مترا ، ويقع شرق اربيل ، والمنطقة مليئة بالمياه الغزيرة وينابيع كثيرة تجرى في وديان عميقة ومضائق وعرة ، ثم تصب في نهر الزاب الأسفل ، ومعظمها مكسو بالادغال والأشجار والأعشاب والأزهار ، تزدهم تلك الجبال بالعديد من الحيوانات ، أهمها الغزال والذئب الاغبر ، وأبن آوى ، والأرنب ، والخنزير البرى ، واذكر انه أثناء مرور الطائرة الهيلوكبتر فوق جبال حميرين أثناء اتجاهنا الى دربندى خان لمحت قطعانا كبيرة من الغزلان بنية اللون ، وكانت تجرى في حركة دائرية ، بتأثير صوت الطائرة الذى لم تعتده في هذه الأماكن ، غير أن أشهر الحيوانات في منطقة الجبال المكسوة بالثلج هو (الوعل الجبلى) ، يطلق عليه اسم (شور) ويصيده الاكراد بكثرة وذلك لآكل لحمه في الدرجة الأولى .

ولاستعمال جلوده كغطاء للسرّج ، وقد كان الوعل هدفا للكثير من الرحالة الأجانب ، الموظفين الذين عملوا في المنطقة ، ولاننى لم أره شخصيا فسوف أستعير وصف (هاملتون) له ، المهندس البريطاني الذى أشرف على بناء ذلك الطريق العظيم الذى يخترق مضيق (كلى على بك) :

« ربما عد الوعل الذكر العجوز الذى يعيش في الجبال الكردية ، أرشق وأسرع حيوان على وجه البسيطة ، بقرونه ذات العقد التى تمتد تحتقوسة فوق ظهره الأبيض المربرد ، وهو يعيش في الجدران الصخرية الشامخة التى تؤلف الأوجه شبه العمودية لجبال زاكروس ، ويكاد يتعذر على المرء أن يظفر بلمحة واحدة من هذا المخلوق المهيب الا عند حلول موسم السفاد ، ويقع في فصل الشتاء ، عندما يزيد الثلج والجليد صعوبات كثيرة الى عملية تسلق الصخور ، وخلافا لهذه الفترة من الزمن تختفى الذكور الضخمة البيضاء طوال الوقت في مواضع مجهولة لا يعرفها أحد . ولانشاهد غير الإناث الرمادية وصغار الذكور منها . الا أن (البالغين) الكبار ، تلوح للرائي في فترة من شهر يناير تقارب العشرة أيام ، فتبدو منتصبية وهي في وقفة الحراسة والتربص ، تلوح بشكل غامض وهي تقود قطعانا كبيرة من الإناث ، انها أمكر الحيوانات ، واشدها حذرا . ما ان يسمع ذكرها المتقدم السن ، اخفض صوت بشرى ، كحفيف ثوب خلف صخرة أو حركة خفيفة يأتيا صياد على بعد مئات الياردات ، حتى تراه ينفر نفارا ويتوثب فوق السفوح حيث يعرف شقوقا فيها مواطير قدم ، ويتقن مسارات سرية لا يقوى على اللحاق به من خلالها لا الانسان ولا الفهد الثلجي ، ولا البير ، انه ليتوثب كالبرق الخاطف بين الصخور ليندفع نحو أقرب جرف شاهق ، وان أصيب برصاصة صياد محظوظ مع ذلك فانه يظل بعيد المنال في موقعه المنيع ، وربما يعالج سكرات الموت ، نراه يندفع الى مكان يعتذر الوصول اليه ، ويبعد مئات الأقدام عن موضع اصابته . فهناك يسقط ليصبح وجبة طعام للمصقور ، أو ليجرف الى الأسفل مع السيول الجبلية » .

وفي الجبال توجد أنواع عديدة من الثعابين ، ويعتقد الاكراد في الجبال انك اذا قتلت حية فان أخرى من عشيرتها سوف تسعى في أثرك .

في الجبال توجد أنواع خطيرة من العناكب ، ويبلغ طول بعضها ست بوصات ، وبعض الناس يشغلون بصيد العقارب وواحد من هذه العناكب يرضعونها في صحن ليشهدوا العراك الذى ينشأ بين الطرفين ، أما العقارب فكثيرة ويوجد منها أنواع سوداء كبيرة الحجم شديدة الفتك .

في الجبال أنواع كثيرة من الطيور ، الصقر الذى يحلق على ارتفاع شاهق ، والعصافير ، والقنابر وال (فنج الذهبى) و (أبو ذريق) وهوطير ملون بالأبيض والأسود ، له ذيل طويل ، ويشاهد الغراب ، والأشجار التى تحيطنا في حسان ، أو تبدو فوق الجبال تنتمي الى أنواع (البلوط) والعرموط ، والزعرور وغيره من نجوم الشجر ، وأشجار الجنار ، والدردار ، والهور ، والتوت ، والصفصاف ، أما أنواع الزهور التى تتفتح مع الربيع فلا حصر لها .

في الجبال تتعرج الممرات ، ولا يمتد الطريق في خط مستقيم مسافة طويلة ، وتخفي الصخور ماوراءها ، وفي احشائها يمتد عدد كبير من الكهوف ، كهوف يبلغ عمقها عدة أمتار ، وكهوف لم يعرف عمقها بالضبط حتى الآن ، متداخلة ، كل قاعة فيها تؤدي الى أخرى ، تسكنها الرطاط ، والحيوانات الوحشية ، وترقد فيها هياكل عظيمة لبشر ماتوا منذ فجر الانسانية ، وتستخدم كمخابيء للسلاح والذخيرة ، والاكراد القيليون يعتبرون الكهوف التي تقع في نطاق اراضيهم من الأسرار التي يجب الا يعلمها غريب ، ولايكشفون سرها لاحد ، وكثيرا ما تأوى الدببة الى هذه الكهوف خاصة عند الارتفاعات العالية ، ومن الكهوف الشهيرة في المنطقة ، كهوف (كوسيه سيبى) ، في مضيق : (به رسرين) ، وعدد آخر من الكهوف التي تتشعب في بطن الجبل خلال ممرات ودهاليز لمسافة عدة كيلو مترات ، وكثير منها لم يكتشف حتى الآن . لكنها تظل عنصرا من العناصر التي تساعد على المفاجأة ، وتضيف بعدا الى اخطار الجبل التي لا حصر لها ، والتي يضاف اليها صراع الانسان ضد الانسان ، ومحاولته استغلال ما اختص به الجبل من ظروف وحيوانات وطبيعة لتغليب جانبه في هذا الصراع .

على مهل يخف سواد الليل ، وكان ثلوجا خفية ذابت في السماء ، وامتزج الماء الرقراق بالظلام ، النور يتبدل ، أزرق شاحب ، بأسى تتوارى النجوم ، تحنو . سماء صافية معقمة ، وتبدأ الأشياء تتحدد من جديد ، اطراف الصخور ، وقمم الجبال ، وذوائب الأشجار ، ومجارى المياه وفروع النبات والملاح ، الوجوه ، والأصوات ، يصبح اللون الأخضر صريحا ، وتتحدد التفاصيل ، باختصار يولد الكون من جديد ، ومن عل يطل علينا (سر حسن بك) ، يتبدل الليل والنهار ، والطقس ، والفصول ، والانسان ، ويبقى رسوخ الجبال ، ومع النهار الجديد يجرى حديث عن المرحلة الجديدة ويرتج النهار الوليد بانفجار .

مع الضياء الأول ، تتطاير الشظايا ، ويشتعل البارود ، لايزال القتال مستمرا .

• نعود الى (خليفان) •



مرة أخرى نرى مضيق (كلى على بك) من الجو . السيارات التي تتدفق فوق الطريق النحيل الملتوى داخل المضيق ، وأرى الدبابات مرة أخرى فوق (كورك) ، الآن سنعبّر (كلى على بك) ، سمعت عنه كثيرا ، وقرأت عنه أكثر وكان جنود الجيش العراقي اذ يتحدنون يذكرون ان كلى على بك (كمثل على وحشية الطبيعة ، وقسوة الظروف التي حاربوا فيها ، غير ان الخيال البشرى مهما بلغت حدته لا يمكن ان يتصور (كلى على بك) الا اذا تعرف اليه عن قرب ، وراه رأى العين ، ويقترب (كورك) منا ، يوشك ان يحاذى الطريق المسفلت الذي نسير فوقه ، الى اليسار . جبل أقل ارتفاعا اسمه (نواخين) ، يقترب كورك ونواخين حتى يشكلا مدخلا ضيقا ، ويستمر الطريق المسفلت محاذيا لنهر راوندوز ، أحد روافد

الزاب الأعلى ، رأينا جزءا منه عند (خليفان) وها هو يحاذي الطريق ،
قاع النهر مليء بصخور مختلفة الاحجام ، وأشجار لم تورق بعد ، وعوسج
متشابك ، واشواك ، تتدفق المياه بسرعة ، وتثير دوامات صغيرة ، أصبح
(كورك) فوقنا الى اليمين ، و (نواخين) فوقنا الى اليسار ، يعلو الطريق
بالتدريج ، يبعد مجرى النهر المتدفق السريع عنا ، وتبدو المسافة التي
تفصلنا عنه منحدره ، بلا سور هاوية .
لقد دخلنا (كلى على بك) .



يبدأ المضيق كلحن ينساب بحزم ولكنه هاديء ، مخادع ، يغري بالتقدم
وبعد انقضاء مسافة ، تتضح الوعورة ، وتتشح الجدران الصخرية بالوانها
الحمراء المتدرجة والمختلطة بلون أسود ، ويبدو ما يشبه الدرجات الطبيعية
أما الجبل فكان قوة هائلة غريبة لاتمت الى عالمنا شطرته الى قسمين فأصبح
كورك ونواخين ، يتدفق النهر في القطاع الذي أصبح بعيدا ، ونتوقف لتمر
سيارات نقل عسكرية ضخمة ، طاوور طويل يسير فوق شريط الأسفلت
النحيل تتوالى السيارات متجهة من خليفان الى حوض راوندوز . كنا نراها
من الجو ، والآن نفسح لها الطريق ، ونرى أحد رجال الانضباط العسكري
يشير بيده لسيارات قادمة من الناحية الأخرى ، لابد من تنظيم دقيق للمرور
في المضيق اذ أن الطريق يمر على ارتفاع كبير ، محفوف بهاوية تؤدي الى
قاع نهر راوندوز ، والطريق لا يستقيم ، انما يلتوى فجأة وينحدر ، ويعلو
لهذا لابد من الحذر الشديد ، وان كنت لاحظ السرعة العالية التي تمضي
بها المركبات ، وبرغم ذلك لا توجد في المضيق كله سيارة مقلوبة في القاع
أو معطلة ويرجع هذا الى دقة الانضباط العسكري داخل المضيق ، وتقفر
الذاكرة الى الطريق الصحراوي المؤدى الى الحدود السورية عندما ازدحم
بالمدرعات والناقلات العراقية ندره حوادث الاصدام .
والتفت الى الخلف .

تنتابني رهبة ، لقد أغلق المضيق علينا ، يختفي الطريق عند منحني
فكأنه لا يمتد بعده مترا واحداً ، كأن الجدار الصخري العمودي الحاد
الارتفاع أقيم فجأة ، والى الامام يختفي الطريق أيضا فكأنه يقول ، لاخطوة
بعدي ، اطبقت علينا الصخور من جميع الجهات ، والى أعلى كانت السماء
تبدو بعيدة فأنا في مكان صخري مغلق يبدأ الكون فيه وينتهي ، وتوقف
مرور السيارات فلم يسمع الا خرير المياه في النهر الذي يجري بالقاع ،
هل شق النهر له طريقا في المضيق ، أم ان الطريق أوجد بعد حدوث
هذا الشق الهائل في الجبل ، كل شبر في (الكلى) وكأنه مجهز للاستخدام
العسكري ، مصاطب صخرية ، تعلو بعضها البعض ، كهوف يبدو بعضها
صغرا ، الآخر لا تلمح نهايته . حفر ، أماكن كأنها الطبيعة أعدتها لتصبح
مقرات للكمان ، أضف الى ذلك المنحنيات ، والمستويات المختلفة الارتفاع .
فوقنا يرتفع جدار عمودي رهيب ينتهي الى ما يشبه الشرفة الصخرية المظلة
على المضيق .

قال أحد المقاتلين :

- انها قمة كذابة .

يعنى التعبير ان تلك القمة التى تبدو آخر الارتفاع الشاهق ليست
النهاية ، انما تخفى وراءها قمة أخرى أشد ارتفاعا ، وهكذا ، أى ان المهاجم
الذى يظن انه سيتحكم فى هذا الجزء من المضيق لو استطاع الوصول الى
تلك القمة . سيفاجأ عند احتلاله اياها انه مطالب بمواصلة القتال الى
أعلى مرة أخرى ، سلسلة لا تنتهى صخرة سيزيف ، ان وحشية المكان
تلقى ظللا من الرهبة على الانسان ، ويبدو (كلى على بك) ممتنعا على
الاقتراب خاصة فى وجه الهجوم ، كل تضاريسه رصيد للمدافع عنه ، أن
المكان ينبىء عن القتال العنيف الذى دار فيه واستغرق عشرة أيام خلال يوليو
من العام الماضى ، يعتبر (كلى على بك) مفتاح منطقة راوندوز ، وأكبر
عقبة طبيعية وعسكرية فى المنطقة التى تؤدى بالتالى الى (حسنان) و
(سر حسن بك) و (كلاله) و (حاج عمران) ، ثم الحدود الايرانية
العراقية ، لهذا استمات العصاة فى الدفاع عن المضيق ، وكان على قوات
الجيش العراقى ان توجد أسلوبا غير مألوف ، غير تقليدى يمكنها من اقتحام
هذا المانع الطبيعى الذى يعتبر الوحيد من نوعه فى العالم من حيث تركيبه
ومتحنياته وقممه الكاذبة ، وكهوفه ، وانهاره الصعبة ، سريعة (الجريان) ،
تم انزال القوات الخاصة العراقية فوق نقاط مختلفة من المضيق اعلاه ودخله
بواسطة الهيلو كبتير ، وسلوك ممرات خفية عبر كورك ، وعندما انطلقت
وحدات القوات الخاصة من كركوك بالطائرات الى (كلى على بك) كان
الطريق الى خليفان يتعرض لهجمات عديدة من العصاة ، فوق (كورك)
كانت توجد خمس روابى ، وعندما بدأوا هجومهم ضد وحدات الجيش
العراقى ، استطاعوا احتلال هذه الروابى التى تتمركز فيها قوات خفيفة
من الجيش ، تسلقت وحدات القوات الخاصة التابعة للجيش كورك من
خليفان خلال خمس ساعات وعند وصولهم الى القمة اندافعوا الى الرابية
الأولى ، ثم تحريرها ، وعند استئناف الهجوم ضد الربايا الأخرى قام
العصاة بحمل جثث الجنود الذين قتلوهم بعد اسرهم والقائما من قم
كورك الى قاع المضيق ، وذلك بهدف أحداث تأثيرات نفسية سيئة فى جنود
الوحدات الخاصة المهاجمة ، كان عددهم حوالى أربعمئة مسلح ، وكان
عدد الجنود حوالى التسعين ، دار القتال من صخرة الى أخرى ، بالمسدسات ،
بالأسلحة قصة المدى ، بالسونكى ، وفوق ظهر الجبل استمرت المعركة
ثمانى ساعات ، ثم خلالها السيطرة على كافة الروابى الخمس ، كان الجنود
أن يتم تشويها ، فى احدى الروابى طلب العصاة من جندى أن يصيح
متدفعين أيضا لانقاذ الجرحلأ من زملائهم ، وجثث الذين استشهدوا قبل
متأديا رجال الوحدات الخاصة يقول لهم أن الرابية محررة ، وعند اقترابهم
يفتحون النار لكن الجندى رفض فألقوه حيا ، الى المضيق ، وفى مواقع
أخرى قاموا بتلغيم بعض جثث الجنود لتنفجر عند شدها أو أمساكها ،
وهو أسلوب لم تتبعه الا القوات الاسرائيلية خلال حرب الاستنزاف على
الجبهة المصرية وبالتحديد فى معركة شدوان سنة ١٩٧٠ . تم أسر عدد من

العصاة بعد السيطرة على كورك ، وهنا يواجه المقاتل جهدا نفسيا كبيرا للتفريق بين حالة القتال التي لا تزال مسيطرة عليه ، وبين دافع الرحمة والامتثال للتعليمات الصريحة ، المحددة ، الواضحة ، ويعلم الجنود على الموقف ، لا يمثلون بجثث العصاة كما فعلواهم ، لا يلقون بها من الجبل ، بل تم نقل بعض الجرحى من العصاة الى المنطقة الطبية التابعة للقوة ، عولجوا وبعد السيطرة تماما على الموقف قام الجيش باعادتهم الى قراهم ، نفس الامر تم بالنسبة للاسرى ، ولكن سيطرة القوات الخاصة على ظهر كورك لم تكن تعنى انتهاء معركة المضيق ، لقد دار قتال رهيب فى هذا الجبل الذى يشبه غابة صخرية ، بدروبه ، وممراته ، وكهوفه ، من ناحية أخرى تم دفع الدبابات عبر (كورك) الى خلفية المضيق ، انهارت معنويات العصاة بسرعة وكان هذا هو السبب الأساسى فى احتلال المضيق ، فالكان يمكن الدفاع عنه بقوات قليلة ومحدودة ضد جيش نظامى كامل ، خاصة أن مجال استخدام الوحدات المقاتلة هنا محدود بل معدوم ، أن القتال وحالته المعنوية ، والمعنويات ليست حالة غامضة ، أو مزاجا نفسيا ، إنما داخل المضيق وعند اطرافه لا بد ان يعتمد على الامكانيات الشخصية للمقاتل ، هى مزيج من قناعة بالهدف ، الذى يحارب الانسان من أجله ، وفهم العوامل التى تسهم فى تلك الحالة العقلية المسماة بالمعنويات ، كانت سببى واضح للظروف التى يتم فيها الصراع ، بالاضافة الى العديد من معنويات العصاة داخل المضيق قد انهارت مع بدء القتال ، لقد وعدت القوى الاستعمارية الملا بعرض قضيته على الأمم المتحدة والعالم اذا صمد فى وجه الجيش العراقى ، وتقدير كل المساعدات له . فى الجانب الآخر كان هناك مقاتلون عرب واكراد يحاربون من أجل تطبيق الحكم الذاتى ، من أجل الثورة التى وجهت الضربة أثر الأخرى للاستعمار والرجعية .

هذه هى الأسباب الرئيسيه التى أدت الى اخضاع (كلى على بك) . ونمضى داخل المضيق ، انه لا يكشف نفسه لمدى بعيد ، اذ نخرج من الصخور التى اطبقت علينا نجد أنفسنا فى واد مغلق آخر ، جدرانها أشد ارتفاعا ، من الجهات الأربع ، مسافات متباعدة ، بعض أكيس رمل صفت فوق بعضها البعض كمواقع للجنود ، بينما يتسلق أحد المقاتلين الجدار الصخرى . ان الطريق فى هذه المنطقة جسر اقامته هندسة الجيش العراقى ، ان عمق الهوة لا تشعر به الا أثناء النظر من خلال العوارض الحديدية للجسر ، حيث تتدفق مياه النهر على بعد كبير أثناء القتال داخل المضيق ، قام العصاة قبل انسحابهم بنسف جميع الجسور . كان عددها ثمانية عشر جسرا فى المضيق ، وجاء الجنود العراقىون بالواح طويلة من الخشب مدرها فوق الهوة العميقة ، عبر بعضهم فوقها تحت الطلقات المتتابعة من الرصاص وقذائف المدفعية ، أمكن دفع بعض البغال المحملة بالمعدات وجاءت البغال الى الألواح الخشبية المدودة ، ورفضت عبورها تماما ، كان الموقف عصيبا ، ويتطلب دفع هذه الامدادات بسرعة للمقاتلين فوق الصخور ، وبسرعة قرر المقاتلون أن يتصرفوا ، احضروا عددا من حقن المورفين ، حقنوا بها البغال ، ثم دفعوها عبر الهوة فوق الواح الخشب ، ولو المورفين لما تقدمت

خطوة واحدة ، أثناء مشينا كنا نتوقف كثيرا لنفسح الطريق أمام بعض هذه البغال ، أنها غير مخدرة بالطبع ، طرفا المضيق موصولان الآن بعدة جسور عريضة قوية تتحمل مرور المدرعات المحمولة فوق الناقلات ، ان البغل هو حيوان النقل الرئيسي في الجبال ، رأينا في جميع المرتفعات التي وصلنا اليها وصعدنا فوقه الى (زوزاك) في حوض راوندوز ، لدى البغل دقة شديدة في اختيار مواضع أقدامه في أوعر الطرق وأشدّها خطورة ، فوق (زوزاك) كنت انظر الى أقدامه وهي تختار مواضعها ، يبدو لاختيار أداميا ، تلقائيا صبورا ، مثابر ، وعندما أصبحت الهوة الى يميني سحيقة وبدأ الوادي بعيدا ، والطريق المسفلت كالخيط الأسود الذي تفصل عن البكرة ، اغمضت عيني واستسلمت تماما لخطوات البغل الهادئة ، الذكية ، وكنت افتح عيني لحظة توقفه ، ماذا يحدث ؟ وراه يستطلع الطريق فيضطر الى التوقف ثواني لحظة توقفه ، ماذا يحدث ؟ عربة ، اغضب على لعظ على لعظهم ثم تواني ، ثم يتحسس موضع أقدامه من جديد ، البغل اسمه في شمال العراق (أبو صابر) منه أنواع ، بغال للرکوب ، بغال لتحميل المدافع ، بغال للتنقلات وبغال لتحميل صناريق الذخيرة ، والمؤونة ، لا أدري ما الذي يجعل بغلا مخصصا لهذه المهمة بخلاف تلك ، هي العادة ؟ أم النوع ؟ أو التدريب ، اعتقد انها الظروف التي يعمل فيها البغل ، هذا الحيوان الذي يتندر به حيوان شديد التحمل ، ولكن أغرب ما عرفته عنه ، أن البغل هذا الحيوان الذي يتندر به الانسان ، والذي يضرب به المثل في القوة العمياء على التحمل والغباء ، هذا البغل اذا زاد عليه العبء فإنه ينتحر ، كثيرا ما يكلف بمجهودات شاقة ، وفي لحظة معينة يزيد عليه العبء ، لا يطيق ، فيجىء الى أطراف الهاوية وفي تصرف نبيل يلقي بالحمولة أولا ثم يشب على أطرافه الخلفية ويدفع بنفسه الى الأمام ، ليتحطم فوق الصخور السفلية البعيدة ، أن انتحار البغل جعلني أتأمل هذا الحيوان كثيرا ، ارقب اطرافته الابدية ، وعينييه الخاليتين من الانفعال ، كائن خلق للعمل ، والعمل فقط ، حتى موزع بين جنس الحمير حيث الأب ، والخيول الأم ، ويسخرون في الشمال المتع التي اختص بها كل حيوان في العالم حرم منها ، اذ أنه لا ينبغي وأصله موزع بين جنس الحمير حيث الأب ، والخيول حيث الأم ، ويسخرون في الشمال فيقولون أن البغل يخجل من والده الحمار فيقول متباها بأصله (الحصان خالي) ويمر البغل بجوار البغل فلا يتبادلان نهيقا أو صهيلا ، ولا نظرة حتى ، بصرم الى الأرض باستمرار ، وكأن كل بغل عالم قائم بذاته ، فلا بغل قبلة ، ولا بغل بعده ، وكأن وحدته تلك استمرار للطريقة التي يأتي بها الى العالم عندما يهنيء الانسان الظروف المناسبة ليجمع بين الفرس والحمار يبدو البغل أشد الحيوانات شعورا بالوحدة ، والعزلة ، والحركة داخل عالم خاص ، لا يدري أحد ما به ، انه حيوان يثير الشفقة بعزله اللانهائية ، لا ينبغي فلا ابن له ، ولا مشاعر بنوة أو أمومة التي نجدها عند أبسط أنواع الحيوانات وهو لا ينقسم الى ذكور وأناث شأن جميع مخلوقات الكون من ادقها - التي لا ترى الا تحت الميكروسكوب - حتى

اضخمها جسما ، وبالتالي فهو لا يتزوج ، ولا يضاجع ، ولا يعرف لذة الجنس ، ولا متعة المداعبة والمهارشة التي نراها بين أحقر أنواع الحيوانات أو اذناها ، وكان يمكن ان نطلق عليه آله من لحم ودم لولا أقدامه فلي الانتحار طائعا مختارا بكامل ارادته . هل يعاني هذا المخلوق الشاذ من أوجاع معنوية هائلة لا ندرى شيئا عنها اذن ؟ ربما في وحدات الجيش تختلف البغال أيضا من وحدة الى أخرى ، أحسن الانواع تجدها في القوات الخاصة التي تستخدمه كثيرا بحكم طبيعة مهامها ، وإذا غضبوا على بغل معين؛ فانهم ينقلونه الى وحدات المشاة ، أو المدعية أو أى وحدة أخرى وللبغل عمر محدد للخدمة ، هذا في الجيش طبعاً ، وعند وصوله الى حد من السن يصبح معه منهكا يتم اعدامه ، ذكرني هذا بما كان يروى عن بغال البلدية في القاهرة التي كانت تعدم عند بلوغها سن المعاش . وبيانح سعر البغل الجيد حوالي مائة دينار ، كنت أسند ظهري الى المضيق بينما تمضي البغال أمامي في اطرافها الأبدية ، وأنا اتساءل عما يجري في عقل هذا الحيوان ، ما رؤية في العالم ، وفي الانسان ، وعند أى لحظة يفرر فيها الانتحار . طبعاً علمت بقصص انتحار البغال بعد صعودى (زوزاك) ممطياً ظهر واحد منها ، ولو عرفت قبل ذلك لصعدت على قدمي مهما كلفنى ذلك من مشاق ، ربما تعرض الحيوان الذى اركبه لاضطهاد أحد أخواني من بنى الانسان ، ثم بجىء ركبى فوقه عظيمة ليتخلص ويخلص الى الأبد وينتقم من أحد أفراد بنى الانسان الذى أتى به الى هذا العالم ، وراح يستغله ، ويركبه ، ينقل فوقه الاحمال . أدوات الحفر والصراع ، ولم يقف لحظة واحدة ليفكر فى مدى ما يعانىه هذا المخلوق الأشد وحدة من روبنسون كروزو ، أو آدمى القى به فى كوكب ناء بعيد ، فى الليل كان الجنود قد ربطوا بعض البغال الى ساق شجرة قريبة ، وفى الظلام كنت أصغى بين العجين والعجين الى حركة وهمهمة أصوات ناتجة عن الحركة ، وليست صادرة من حنجرتة ، فالبغل لاصوت له وذ ازادت به المشقة لا يسهل ، ولا ينهق ، انما ينهى وجوده مختاراً ، ينجر وتبدو أصوات الحركة فى العتمة الجبلية كأنها شكوى أشد صمتاً من وحدته الاجبارية ، لا ادري لمن يوجهها ولكنها لاقت صداها قلبى ، غير اننى كلما تذكرت عينيه الواسعتين المليثتين بحزن شفيف ، واسى هائل تأخذنى الشفقة وارثى له ولوحدته التى لا فكاك منها .

يرتفع الغريق بنا داخل المضيق ، يصبح شبه دائرى ، بينما تزحف الصخور فوقنا فتشكل ما يشبه شرفة طابق يعلونا فى المنطقة تتساقط قطرات ماء غليظة ، من قلب الصخور التى تظل الطريق ، أن استمرارها ، وتساقط قطرات الزيت من العربات المتحركة باستمرار والتراب يكون وحلاخفيفاً ، الصخور مغطاة بطحالب خضراء ، ومن قلب الصخر تنبت زهور صفراء رقيقة للغاية ، أطرافها دوائر صغيرة ، برتقالية اللون ، وتنبثق أوراق الزهور من كأس نباتية صغيرة خضراء كأحلق ما تكون الخضرة ، تنبت الزهور من قلب الصخور القاسية ، ويقطر الماء أيضاً . ما مصدره ؟ بالتأكيد ،

ذلك العدد الكبير من الينابيع ، والمسارب الصغيرة الدقيقة التي تسرى فيها المياه : غير أن ما شدنى خيط رفيع في المياه يتدفق من قلب الصخر الذي اكتسب لمعه ناضرة بعد مرور السنين عليه . حفرت المياه مجرى نجيلاً داخل الصخر ، يشبه للمسورة ، لا يدري نسان من اين يبدأ ، من قمة الجبل أم من موضع آخر ، وظالت المياه تنساب حتى انتهت الى حافة الطريق ، ومنه تندفع الى الهاوية حيث مجرى نهر راوندوز في القاخ ، يخرج الخيط النحيل متدفقا ، وأداد بقينا انه لا قوة في العالم تستطيع أعتراض مجرى المياه ، ويبدو للماء مذاق حلو ، نطاحر في الفم كالحب الحقيقي ، ماء جبلي ، بعد مسافة قصيرة ، يلتوى الطريق في عدة منحنيات دائرية ، ينزل الى أسفل فيبدو كل منحني وكأنه نعلو الآخر ، أو توتراد ، طبيعي نتعدد طبقاته ، وبلا أي مقدمات نجد انفسنا أمام شلال المضيق ، تدفق المياه يبلغ الذروة هنا ، جارف ، قوي ، وحاد كالنيران حول فوهة المدفع لحظة خروج القذيفة ، يطول التأمل ، هل ستتوقف المياه فجأة ؟ هل سيحدث أمر غامض ويستمر التدفق ، وتبدو الصخور مسننة في بللها الأيدي ، وفي الأعراغ يتناثر رذاذ خفيف يغمر الوجوه ويكأن ، ان المياه تذيب الألواو في هذا الجزء من المضيق ، الأخضر والاحمر والأصفر وزبد الماء البيضاء في الجبال شلالات أخرى صغيرة بعضها بدأ في عياد معين من السنة ، يستمر أسبوعاً ، أو شهراً ثم يختفي كما بدأ فجأة ، أو يترك مكانه خيطاً نجيلاً من انبياه ، كان يدا خفية أغلقت مصدر المياه عنه ، ويواكب هذا فترة ذوبان الثلوج ، ولكن الإكراد في المنطقة يقولون ان الشلالات والينابيع أرواح خفية تكحم الجبال ، وتسرى فيها ، وبعد مسافة اعمار يختفي الشلال ، وصوت الاندفاع الناقب . وبلظ أن مجرى النهر أصبح أكثر سرعة ، خلفنا التوى الطريق ليقوم جدار من الصخر ، مرة أخرى يطبق علينا المضيق من الجهات الأربع ، هكذا يسلمك كل جزء من غلق الى الآخر ، غير ان هذا المكان أكثر مناطق المضيق رهبة ، الجدران عمودية تماما ، وفي الجانب الايمن شق هائل ينفذ خلاله مجرى هائل طويل ضيق يختفي بعد حين ، وإلى اليسار مجرى آخر ، هذا قادم من جوف الصخر الى اليمين ، وذلك قادم من اليسار ، في المضيق تلتقى ثلاثة أنهار ، نهر باننيكان ونهر الأنا ، وعند هذه النقطة يصباز في (راوندوز) الذي يجري ليلتقى بالراب الأعلى ، الذي ينتهي في دجلة ، ان المناء داخل المضيق عنيف هادئ ، تنساب المياه في شكل دلتا لتصب في راوندوز وهذا الهدوء له مقدمات كثيرة عنيفة كشلال المضيق ، والتدقيق الحاد خلال الصخور ، والانسبار ، الهادئ أحيانا عندما تحبب الأرض أفقية ، مسننة ، وتتوالى أجزاء المضيق وقبل منطقة الشلال يطبق على زواره تماما ، وقبل ان ينتهي يبدأ فك قبضته شتا ، ليصبح مدخله من جهة حرص راوندوز سهلا ، بسيطا لا يكشف عن عنف تكويناته ووحشية أحشائه ، وثناء انهاره ، وشبابه ، وزهوره وتكويناته البدائية البديعة ، وتقرأ على طول المضيق نكتات بالعربية والانجليزية .

احذر تساقط الصخور - لاتسعمل المنبه داخل المضيق .

كثيرا ما نمل احدى هذه الصخور الجبارة رقدنها الابدية فتتحرك منحدره تتحرف كل شيء ، لتستقر في قاع النهر ، وهذا يمكن حدوثه في أى وقت ، فلا أجهزة تتنبأ به ، ولا عرافون يستطيعون التخمين ، ان سقوط الصخور مفاجيء ومروع تماما كغذائف الهاون التي تطلق فجأة من خلف المرتفع ، (كلى على بك ، من المناطق النادرة في عالمنا التي تثير التفكير وتحث العديد من الانطباعات ، أما ما يعجز الذهن عن تخيله أحيانا فهو ضراوة القتال الذي تخلله ، ما يثير أيضا ذلك الطريق المسفلت الذي يخترق المضيق وتقطعه يوميا مئات المركبات العسكرية من مختلف الأنواع ، طريق يلخص تحدى الانسان وقدرته على أخضاع الطبيعة اجموحة ، الوعرة ، انه جزء من الطريق الطويل الذي يبدأ من (اربيل) ويمر بصلاح الدين ، وشقلاوه ، عبر جبال (حرير) ، و (سفين) ، وخليفان وينتهي بهضبة ايران ، في سنة (١٨٢٨) بدأ فى رصف الطريق داخل (كلى على بك) واستغرق العمل فيه عامين كاملين ، اشترك فيه أكثر من ألف عامل ، ومن قبل فى قديم الزمان قام (على بك) شيخ احدى القبائل الكردية فى المنطقة بتمهيد بدائي لتعبيره القواقل ، من هنا نسب اليه هذا الشق العظيم ، ولكن استخدام هذا المدق كان فى حد ذاته مغامرة ، يبدو هذا واضحا من الوصف الذى سجله الكولونيل دبليو . آر . هى ، حاكم اربيل السياسى فى فترة الاحتلال البريطانى من ١٩١٨ - ١٩٢٠ وسجله فى كتابه « سنتان فى كردستان » ، ومن وصف المهندس الانكليزى هاملتون ، للمضيق قبل ان يشرح فى رصفه ، وعندما بدأت معركة (الكلى) فى يوليو الماضى لم يتم استخدام الطريق المسفلت بالطبع ، بل قام المقاتلون العراقيون من رجال الوحدات الخاصة بتسلق الصخور ، واستخدام أوعر المسارات فى المضيق ، كانوا يعبرون ممرات العنز الجبلية التى يكاد يستحيل السر فيها ، يتشبثون بما تعثر عليه أيديهم من أغصان نافرة نامية من شقوق الصخر حيث يبرز ماء رقراق يجعل الصخور زلقة ، والمرات القصيرة يغطيها الطين ، كان على بعضهم أن يسير بضعه ياردات ورؤوسهم منحنية بسبب قطع من الصخر معلقة فوق رؤوسهم ، ثم يزحفون على أيديهم وركبهم أولا ، وتجيء لحظة يزحفون فيها على بطونهم ، عندما يصبحون فى ممر ضيق أشبه بالنفق فى المنجم ، وفى كثير من الأحيان اضطروا الى المشى على قدم واحدة بينما تبقى الأخرى معلقة فى الهواء نظرا لانحدار الحافة بشكل عمودى ف اتجاه النهر المتدفق ، ان صخرة كبيرة رافدة قد يغرى منظرها وهدوءها بالتعلق بها أو بالاستناد عليها ، عندئذ تنهار وكأنها فخاخ القدر . وفى احدى اللحظات أثناء معركة المضيق وجد أحد الجنود نفسه مشتبكا مع فهدجبلية من الفهود التى تسكن الممرات الضيقة والكهوف السرية الوعرة . وفى مواضع معينة لا يسمع الصخر الجبرى الأملس بأى موطيء لقدم . وهنا يجب ان يكون الجندى مزودا بمعدات خاصة تمكنه من الحركة ، ولكنه فى معظم الأحيان يتم الاعتماد على الامكانيات الشخصية ، يذكر بعض رجال القوات الخاصة انهم فوجئوا بهياكل عظيمة ملقاة فى أماكن بعيدة من تعرجات

المضيق ، هياكل عظيمة لحيوانات وأخرى لبشر ماتوا منذ آلاف السنين في محاربتهم الخروج من هذه المتاهة الصخرية الجبارة .

● ● ●
لكل جندي من القوات الخاصة العراقية رصيد من الذكريات الرعبية عن القتال في (كلى على بك) ، ورصيد أيضا من الخبرة النادرة في القتال المسلحة في الجيوش الوطنية . ربما لأن شكل القتال الذي تخوضه يمثل هذا الأسلوب العصري لقتال الفرسان ، فمقاتل الوحدات الخاصة يقوم بتنفيذ مهام عسكرية ذات طبيعة فدائية ، غالبا ما تتم خلف خطوط العدو، ومن هنا فإنه يعرف مقدما انه سقاتل معزولا ، لفترة عن رفاق سلاحه من الوحدات الأخرى ويعتمد المقاتل بشكل أساسي على امكانياته البدنية ، والنفسية والعقلية وخلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ لعب رجال الصاعقة المصريون دورا هاما في ارباك ومهاجمة العدو في كافة أنحاء سيناء وبعد وقف إطلاق النار استمر بعضهم يحارب خلف الخطوط لمدة أربعة شهور وخمسة ، عادوا بعدها الى وحداتهم ، جوهر المقاتل العربي واحد ، وعندما تتاح له الفرصة الصحيحة في اطار قرار كبير فإنه يحقق أعمالا ترقى الى مستوى رفيع ونادر ، ويجسد البطولة الحقيقية ، هنا في شمال العراق قام رجال الوحدات الخاصة بأعمال قتالية صعبة ، ذات طبيعة خاصة بسبب ظروف الأرض ، والحرب ، ولاحظت ان معظمهم لا يطرق كثيرا الى الحديث عما قاموا به خلال العمليات العسكرية في الشمال ضد العصاة ، للحرب هنا ظروف معقدة ، فهم يحاربون ضد الحرب لكي يسود الاستقرار والسلام ، في نفس الوقت يعون جيدا ان العدو الحقيقي بالنسبة لهم هنا هو الاستعمار، والقوى الرجعية ، وبالطبع هذا ما يعيه سائر جنود الجيش ، غير انه كانت لي رغبة قوية للقاء رجال الوحدات الخاصة ، لقد لعبوا دورا هاما في حرب أكتوبر ، خاصة خلال الأيام التي تلت وقف الهجوم الاسرائيلي المضاد ، والتي قام خلالها المقاتلون العراقيون والسوريون بشن حرب انهاك ضد وحدات العدو في الجولان .

بعد خروجنا من (كلى على بك) ، الى اتساع حوض راوندوز المحفوف بالجبال ، ركبنا سيارة الجيب متجهين للقاء الرجال الذين قهرروا الكلى ، وألحقوا اقدح الخسائر بالعدو الاسرائيلي في أكتوبر ١٩٧٣ .

● ● ●
فوق جبل (زوزاك) ، وعلى ارتفاع (٦٦٠٠) قدم من سطح البحر، رحلت أستعيد مع أحد ضباط القوات الخاصة العراقية أحداث تلك الأيام من تشرين وأكتوبر ١٩٧٣ ، كان ضمن أول فوج من القوات الخاصة التي تحركت الى الجبهة خلال يومي ٧ و ٨ أكتوبر . كلفوا بواجبات معينة تتعلق بحماية بعض القواعد الجوية القريبة من الحدود السورية والتي ستستخدم كمحطات في الطريق الى الجبهة ، يوم الاثنين طاروا الى الجبهة، كان الجنود في الطائرة بصحيون ، ويهتفون بشعارات حماسية عديدة :
- كان اليوم يومهم كما يقولون .

عسكرت القوة فى منطقة . حرجلة ، وبالرغم من حرص القيادة على توفير وقت لراحة الجنود ، الا انهم لم يستريحوا ، وبقوا فى انتظار الأوامر بانتقالهم الى الجبهة ، لم يطل ، انتظارهم كثيرا ، فقد كلفوا بمهمة فتالية بعد ليلة من وصولهم ، ضرب مرابض الدبابات الاسرائيلية فى منطقة تل عنتر ، وتقدمت مجموعتان من القوات الخاصة ، هاجمتا المرابض القريب ، كان هذا أول احتكاك للرجال بالعدو ، لاحظوا ضجة وصراخ أفراد أثناء الهجوم ، منذ هذه الليلة بدأ الاسرائيليون يضعون احتياطات اضافة ، أقلقهم وصول القوات العراقية ، بدأوا يكثرون من اطلاق القذائف المضيفة بفواصل زمنية قصيرة ، ومن جهة أخرى وضعهم رجال القوات الخاصة تحت مراقبة دقيقة ورصدوا لحظات معينة تقل عندها حدة المراقبة ، وصلت معلومات عن طريق القيادة العراقية فى المنطقة بوجود مجموعة قتال اسرائيلية متوازنة ، أى سرية دبابات وسرية مشاة ميكانيكية ، كانت القوة بالتحديد ، ٨ دبابات و ٨ عربات مدرعة ، قام قائد الوحدة باستطلاع نهارى ، وفوق ديرالعدس بدأ قصف معاد شديد ، ومن بعيد بدت دبابات متحركة ، انسحبت دورية الاستطلاع بعد ان قدرت الموقف ، عادت الى « حرجلة » وبدأ تجهيز القوة وتقدير القوات التى ستشارك فى الهجوم .

تسابق قادة السرايا للخروج فى المهمة ، كان كل منهم يلح ويضغط ، واضطر القائد الى اجراء قرعة لاختيار الرجال الذين سينفذون المهام المطلوبة ، وفى الساعة السادسة مساء تحركت القوة مستقلة عربات مدرعة حتى مفرق الطريق المؤدى الى (ديرالعدس) ، كانت المسافة المتبقية حوالى سبعة كيلو مترات قطعتها القوة مشيا ، أثناء تقدم الرجال كانوا يمررون بأعداد كبيرة من الدبابات المعادية التى همدت حركتها ، بعضها مدمر تماما ، وبعضها مصاب ، وبعضها يبدو سليما ، وقام بعض الرجال بتفتيش تلك الدبابات ولم يكن داخلها الا حيث محترقة تماما لم يتمكن العدو من سحبها . وفى الظلام كانت بعض تكوينات الصخور فى المنطقة تبدو كالدبابات من بعيد ، كان الليل عميقا ، هدوء غير عادى يسود الجبهة وكأنه يهيب لما سيحدث .

وصل الرجال الى منطقة قريبة جدا من المواقع الاسرائيلية . ثم تقسم الرجال بسرعة الى مجموعتين ، مجموعة اقتحام ، ومجموعة اسناد ، كان العدو قريبا لدرجة أن أصوات أفراد ، بدت مسموعة ، وكان أحد أفراد العدو ينادى بالحاح شخصا ما ، تمزق الليل بطلقات الرشاشات العراقية ، والقذائف المضادة للدبابات ، التحم رجال مجموعة الاقتحام بجنود العدو ، كانت السناكى القصيرة الحادة تبرق ، تومض فى الظلام ، وتعلو صرخات دعر ، لقد حقق الرجال المفاجأة تماما ، وتوهج الليل بتأثير الحرائق التى أشتعلت فى أربع دبابات وعدد من العربات الآلية .

عاد الرجال . ورفع قائد العملية التليفون ليلبغ القيادة السورية .

— تم تنفيذ المهمة ١٠٠ —

– لم تقع خسائر في جانبنا .

● ● ●
أحد رجال الوحدات الخاصة ، يوم ٩ أكتوبر تحرك من كركوك مع زملائه . لم يكن لديه وقت ليحضر حاجاته الشخصية من البيت من كركوك الى قاعدة هـ - ٣ رأسا ، كان الراديو يحمل اليه أخبار القتال أولا بأول ، وكان الحديث يدور مع زملائه عما ينتظرهم ، عن دورهم في القتال ، بعد يوم كامل في القاعدة تحركوا الى منطقة قريبة من دمشق كانت حركة الوحدات الخاصة ذات طبيعة تختلف عن حركة الدبابات ، والمدربات ، لقد ركبوا الطائرات الى هـ - ٣ ، ثم انتقلوا بالسيارات الى دمشق . ثم الجبهة .

يذكر المقاتل من أيام الحرب ، ١٧ تشرين ، أكتوبر بالتحديد :
في ذلك اليوم تلقى قائد الوحدة أمرا بالهجوم على مرابض الدبابات الاسرائيلية في تل عنتر ثم انتقال القوة بالسيارات الى منطقة تقوع جنوب (كفر شمس) . تقدموا راجلين ، داروا حول القرية من جهة الشرق ، ثم غيروا اتجاههم الى الغرب ، بعد حوالي خمسة كيلو مترات وصلوا الى مرابض دبابات مهجور ، كانت الحفر كالأفواه الخربة ، المفتوحة في بطن الأرض ، في تلك الليلة تألق ضوء القمر لفترة طويلة ، وخلت السماء من الغيوم االثقال ، استمروا في التقدم حتى مسافة تبعد ثلاثمائة متر عن الهدف ، ويبدو أن العدو لمحهم ، رصد اقترابهم ، شتت الظلام طلقات انذار ، وسمع الرجال أصوات الدبابات عندما بدأت تتحرك ، بدأ واضحا ان حالة من الارتباك لدى العدو ، وكان من الضروري استغلالها بأقصى سرعة ، تمركزت مجموعة الاسناد الى يسار الهدف ، انطلق مقاتلو مجموعة الاقتحام ، اصطدموا بخندق مشاة حصين يبعد ٣٠ - ٤٠ مترا عن الدبابات ، خندق مواز لتل صخري طويل ، وكان مهجورا به أحد من الجنود العدو ، وأستغل الرجال الخندق ، استتروا به ، ومنه انطلقت القذائف المضادة للدبابات ، واشتعلت الدبابات ، وتوالت الانفجارات ، ان انفجار دبابة شيء مخيف ، في البداية يهتز الجسم المعدني الضخم ، يصدر أصواتا غامضة كوحش يحتصر ، ثم تتوالى الانفجارات ، يشتعل البنزين ، وتنفجر الذخيرة ، ذخيرة المدفع الرئيسي ، وذخيرة شديدة الانفجار ، وذخيرة الرشاشات ، ان الجندي الذي يمشى على قدمية ويواجه الدبابة بسلاحه الخفيف ، يجب ان يكون ذا نوعية خاصة وفريدة ، وأعصاب قوية للغاية ، وفي تاريخ الحرب الحديثة سجل المقاتل العربي في حرب تشرين أكتوبر حوادث القتال بطولة ، قتال الانسان ضد الدروع .

بقي لدى كل مجموعة من الرجال قذيفة واحدة .

فتح العدو نيرانه بغزارة .

وبدأت مجموعة الاسناد تقدم الدعم الناري وتحتته تم انجذاب مجموعة الاقتحام التي تمركزت في الخندق ، بدأ موقع معاد آخر قريب يقدم المعاونة للموقع الذي هوجم ، قام الرجال بتغيير اتجاههم الى

اليسار بسرعة ، ان القدرة على اتخاذ القرار السريع الحاسم في اللحظة المناسبة من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها مقاتل الوحدات الخاصة الذي يكون بوجوده الفردي معرضا لعنصر المباغتة ، على مسافة ٢٠٠ - ٣٠٠ متر بدأ تجمع الرجال ، عندما تكاملت القوة اكتشفوا ان بينهم أربعة جرحى ، وكان هناك أربعة غائبين فيما بعد اتضح أن احدهم جرح في الخندق وآثر القتال حتى نفدت ذخيرته ، وقع أسيرا ، أما الثلاثة الباقون فيرقدون الآن تحت تراب الأرض العربية في سوريا ، استشهدوا .

● ● ●
قبل ان تتحرك الوحدة التي يحارب في صفوفها المقاتل الشمري من كركوك الى قاعدة هـ - ٣ ، اصطف الرجال وبدأ يأخذ « التمام » ، اكتشف تغيب جنديين كانا معروفين بتعدد الأيام التي يتغيبون فيها ، وكثيرا ما نالوا جزاءات بسبب ذلك ، طارت الوحدة في نفس اليوم الى قاعدة التحشد على الحدود السورية ، كلفت بواجبات معينة الغرض منها حماية القاعدة ، وضعت القيادة العراقية في حساباتها احتمال قيام العدو بعمل هجومي مبكر ضد منشآت القاعدة ، والطرق المؤدية الى الحدود ، وذلك لتعويق وحدات الجيش عن الوصول الى الجبهة ، في نفس يوم الوصول ، وقبل نزول الليل فوجيء المقاتل الشمري بالجنديين المنغيبين ، لقد وصلا مع فوج تال . بمجرد استماعهما الى نبأ الحرب فسارعا للالتحاق بوحدهما ، وخاضا ظروفًا عديدة معقدة حتى لحقنا بها عند قاعدة التحشد على الحدود العراقية السورية .

يوم ١٦ تشرين (أكتوبر) تحركت الوحدة الى الجبهة السورية كان المواطنون يقابلون الوحدات العراقية بأهازيج وشعارات وترحيب ، وتقديم المشروبات الساخنة ، وأحيانا وجبات طعام ، وصلبت الوحدة الى (الحرجلة) في نفس الليلة التي خرج فيها المقاتل طه مع رجاله لمهاجمة مرابض الدبابات في تل عنتر) .

بدأ الرجال يلتقون بزملائهم ، يصغون منهم الى ما جرى ، يتعرفون الى الموقف ، الى الجبهة ، عرفوا أن هناك اختراقا اسرائيليا في سعسع . سمعوا الكثير عن المواقف التي قاتل فيها الجندي العربي ضد الصهيوني ، وفي يوم ١٨ أكتوبر جاءت اللحظة التي يشارك خلالها الرجال في المعركة ، كلفوا بالاغارة على وحدة للعدو في كفر ناسج ، لكن الموقف تغير بمنطقة تل عنتر يوم ١٨ . كان العدو قد حقق تقدما في القطاع ، وبالتالي تغيرت المهمة ، وتغيرت الخطط ، كلفوا بمهاجمة العدو في تل عنتر ، وقامت مجموعة الشمري بتشكيل قوة صد ضد أي قوة معادية تحاول تغيير الموقف ، بينما تقدمت مجموعة أخرى بقيادة المقاتل عبد المهدي ، وتمت المهمة بنجاح ، وعندما عادت القوة الى مكان تمكزها كانت تحمل معها جريحا واحدا .

● ● ●
.. كازا أفراد هذه المجموعة من القوات الخاصة يسابقون الزمن للوصول الى جبهة القتال السورية .

يوم ١٠ أكتوبر أقلعوا بالطائرات حتى قاعدة هـ ٣ . تم انتقالهم الى العربات التي كانت تتدفق على الجبهة ، عرف كل منهم . أن ثمة متاعب على الجبهة السورية ، وأن العدو قام باختراق الجبهة في قرية سعسع ، كان الضباط والجنود يتناوبون قيادة السيارات ليصلوا في أسرع وقت ممكن ، وحتى لا يضيعوا دقيقه واحدة في التوقف أو الإبطاء لحظة وصولهم الى دمشق . . كانت هناك غارة جوية معادية ، انتشروا في مدخل المدينة . كانت الطائرات الاسرائيلية تحاول الاغارة على صهاريج النفط في دمشق ، بعد انتهاء الغارة استأنفوا السير حتى (حرجلة) ، انه معسكر متقدم في الجبهة وأثناء التحرك نحوه كان الرجال يتبادلون التحية مع أفراد الجيش الشعبي السوري الذين انتشروا على الطريق يحفرون الخنادق الدفاعية في ضواحي دمشق ، في (حرجلة) . شاهدوا تساقط الطائرات الاسرائيلية ، وصواريخ سام أثناء تعاملها معها ، وهوت أسطورة التفوق الجوي الاسرائيلي التوهّج ملات الازهان بعد يونيو ١٩٦٧ . كان هذا أول انطباع يتبدد عن العدو لدى كل الجنود بعد وصولهم بقليل .

يوم ١٤ تشرين أكتوبر ، طلب من الرجال القيام بثلاث غارات على معسكرات الدبابات الاسرائيلية في كل من تل عنتر وكفر شمس ، وتل المال ، وكان هدفهم يقع في تل المال ، وكانت معلومات الاستطلاع تفيد بوجود عدد يقدر من ٢٠ الى ٢٥ دبابة اسرائيلية وناقلة جنود مدرعة . طلب من قائد المجموعة الذهاب الى تل الحارة حيث مقر قيادة احدى الفرق السورية للحصول على المعلومات وتنسيق الخطة معهم . وصل حوالى الساعة الثانية عشرة ليلا الى مقر قيادة الفرقة ، التقى بالقائد السوري الذي أوضح له الموقف من خرائط المعركة والمعلومات المتاحة عند رئيس الاستطلاع ، كانت ائقوة الاسرائيلية في تل المال ضعف مجموعة القتال العراقية ، طلب الضابط العراقي من القائد السوري عزل الجناح الايسر للعدو فوق تل المال بواسطة المدفعية أثناء الغارة ، بعد ذلك انطلق على رأس رجاله ، ساروا مدة ساعتين ، أثناء تقدمهم كان العدو يقذف قنابل الأضواء ، وآخذ الرجال احتياطاتهم التي تكفل لهم التستر ، وصلوا قريبا من الهدف ، استطاع قائد المجموعة الهدف بنفسه ، كان أحد الأفراد من جنود العدو يقف بالقرب من دبابات وناقلات مدرعة كلها، مغطاة بشباك التمويه ، ومعظمها في ملاجئ أرضية ، اكتشف عددا من الآليات موجودة أمامهم مباشرة ، أمر رجاله بالانتشار ، قرر قائد المجموعة مهاجمة دروع العدو في القسم الأيمن ومهاجمة دبابات القسم الايسر ، عند تحركها بواسطة مجموعة الاسناد رجح الى رجاله ، أوجز لهم الخطة ، والمعلومات الفرعية ، بدأوا يزحفون حتى وصلوا على بعد عشرين مترا من الدبابات ، كان الظلام شديدا ، في تلك اللحظات لم يكتشف العدو اقترابهم ، أطلق القائد طلقة أضواء ، ثم فتحت النيران . أكثر من خمسة عشر قاذفا ضد الدبابات، وستة رشاشات متوسطة ، بالإضافة الى الهاونات ، تم تعيين الأهداف لكل قناص دبابتين يقوم برميها ، وكانت مسئولية الرشاشات حصد أفراد العدو الذين يحاولون الفرار ، أو

يخرجون من مكانهم ، انهمرت النيران لمدة أربع دقائق متصلة . بعدها مباشرة بدأ الانسحاب ، رأوا نتاج عملهم ، اندفع أحد المقاتلين ليتأكد من أصابة الهدف فرأى اندلاع النيران من الأهداف ، في نفس الوقت كانت وحدات المدفعية السورية تقدم غطاء ناريا جيدا ، انسحب الرجال وفقا للخطة الموضوعة الى تقريه ، ثم الى تل الحارة ومنه الى المعسكر الخلفي ، في هذه الليلة انطلقت وحدات من اللواء المدرع السادس العراقي باتجاه المنطقة لاستثمار الضربة التي وجهها رجال الوحدات الخاصة ضد العدو ، كانوا يشكلون خطرا داهما على العدو ، خاصة في المرحلة التي شنت فيها القوات العربية حرب انهاك ضد العدو ، وكان كل مقاتل منهم يمثل النموذج المتقدم للمقاتل العربي ، حيث تتجسد فيه أنقى خصائصه ، وتتشابك العوامل النفسية والحضارية لتصل به الى أرقى مستوى قتالي ، كان جنود الوحدات الخاصة يقتربون الى أقصى حد من العدو ، وينتشرون بين مرابضه وملاجئه حتى قيل في الجبهة السورية ، لو قام أحد أفراد العدو بحفر الأرض فان التراب الذي سيلقيه بجواره سيقط فوق جندي عراقي من الوحدات الخاصة متربص للانقضاض عليه ، كانوا يتابعون العدو أيضا ، لقد دأب على تغيير أوضاع قواته ، واقاعة المعسكرات الهيكلية البديلة ، وذلك بغرض التضليل ، من هنا كانت أهمية الاستطلاع الجيد الذي قام به قادة المجموعات والوحدات بأنفسهم في جميع الظروف .

ويوم ٢٢ أكتوبر ، كانت وحدات القوات الخاصة العراقية على الجبهة السورية مكلفة بواجب الهجوم على مرابض العدو ودباباته في المناطق المتقدمة ، وذلك كتمهيد للهجوم الواسع ، الذي كان من المقرر ان تقوم به القوات العربية لطرد الاسرائيليين نهائيا من الجولان ، والذي لم يتم بسبب وقف إطلاق النار في ٢٢ أكتوبر .

من ناحية أخرى كان العراق قد دفع الى الجبهة السورية بنوعية أخرى من قواته المعدة اعدادا خاصا للقتال . في الجبال وصل لواء جبلي مدرب تدريبا جيدا يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، وكان مخصصا للاشتراك في المعارك التي ستنشعب بمنطقة جبل الشيخ بالقطاع الشمالي من الجبهة السورية ، هنا قامت القوات السورية باحتلال المرصد الاسرائيلي يوم ١٦ أكتوبر ، والذي كان مزودا بأجهزة الكترونية حديثة ووسائل استطلاع تستخدم في رصد حركة القوات العربية داخل الأراضي السورية ، وكانت القوات الخاصة السورية قد احتلت هذا المرصد اثر معركة عنيفة وبطولية يوم السبت أول أيام الحرب ، قرارت القيادة السورية وضع القوات الجبلية العراقية بمنطقة دمشق وفي صباح ٢١ تشرين ، أكتوبر ١٩٧٣ ، كلفت قيادة في قاطع الحدود السورية - اللبنانية ، وفي الساعة السبعة مساء يوم ٢١ أكتوبر أستدعي قائد اللواء الجبلي العراقي الى القيادة وصدر له الأمر بتخصيص كتيبة أخرى لتعزيز القوات السورية وتدمير قوة العدو في منطقة

العقبات على جبل الشيخ . فى يوم ٢١ أكتوبر بدأ العدو بتركيز هجومه على جبل الشيخ وذلك بهدف استرداد المرصد الذى حررتة القوات السورية فى بداية الحرب ، قام العدو بانزال وحدات من جنوده بواسطة الهيلوكبتر، فى نفس الوقت الذى تقدم فيه رتل أرضى بمنطقة العقبات ، دفعت القوات السورية بمجموعات من رجال القوات الخاصة الى جبل الشيخ ، وأشتعل قتال وحشى ، وكان العدو يدفع بالمزيد من وحداته فى هجوم يصحبه اصرار عنيف على استرداد المرصد بأى ثمن ، قامت القوات الجبلية العراقية باحتلال منطقة عرفة - ربما ، بقصد التقدم نحو العقبت والاشتراك فى عملية ازالة قوات العدو التى وصلت اليها بالتعاون مع القوات السورية . وفى الساعة الرابعة والنصف من صباح ٢٣ أكتوبر أتمت القوات العراقية الجبلية انتشارها فى المنطقة استعدادا للهجوم ، بدأ فيه هجوما معاديا على المواقع التى تحتلها القوات العراقية ، غير أن الرجال صمدوا للقصف، وصدوا الهجوم ، كان القتال مشتتلا فى هذا القطاع بينما كان وقف اطلاق النار ساريا فى باقى القطاعات . وكان العدو يدفع بأعداد كبيرة من قواته التى سحبها من المواقع الأخرى وذلك لاسترداد المرصد ، لكنه لم يستطع ان يحقق أى نجاح فى منطقة عرفة - ربما ، حيث رابطت القوات الجبلية العراقية .



•• ويبدو النزول من فوق (زوزاك) أصعب ، فالأرض المهترزة ، والسفح المائل مائل أمامنا باستمرار ، والهاوية تصبح عمودية فى بض الأماكن ، و (أبو صابر) يتحسس مواقع أقدامه بدقة ، بدأب ، بدكاء عجيب وكأنه يحفظ المواضع التى تتحمل وطء خطوة المتمهل وحمله الأدمى ، وبمجرد أن نلامس الأرض المستوية لسهل راوندوز نمشى قليلا لنركب السيارة فى اتجاه قرية ديانا ، فى حوض راوندوز تصبح الطبقة أفقية ، الأرض متمهلة فى امتدادها تحفها الجبال من جميع الجهات ، جبل (هندرين) و (زوزاك) ومرتفع صخرى مستطيل ، له تكويدا غريب اسمه ظهر السمكة (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر) ، انه الجبل الوحيد الذى يخلو من الثلج ونرى ، (كروك) وهو خلف (زوزاك) يسد الأفق ذلك الجبل الغامض ، الشيخ الوقور بعباءته الثلجية الناصعة ، الجبل الذى عشنا تحت سفحه أما ، انه (سر حسن بك) يتابعك اينما توجهت ، فى حوض راوندوز يصبح لحن الجبال أرق ، والسما أكثر انبساطا ، تشرق الجبال على المكان فى هيبة وابدية ، لكن جمالها الوحشى ينأى الى الخلفية ، تنبسط الحشائش، وأنواع نادرة من الزهور أحصيت حوالى مائة نوع كل منها يختلف عن الآخر ولا ادري هل أطلق عليها علماء النباتات اسماء ، أم ان قاموسهم يضيق عن استيعابها ، تتوثب العصافير ويسود صمت تبدو فيه أصواتها كالأغصان الصغيرة التى يهزها الريح فتحدث حفيفا فى لحظة غروب يوشك الانسان أن ينسى الحرب والانفجارات والكمان الجبلية ، والاختار ، وفى الاعالى تظهر طائرات الهيلوكبتر قادمة من خلف مضيق (كلى على بك) متجهة الى

(حسنان) و (سر حسن بك) ، تلعب الهيلو كبتير دورا كبيرا في القتال الذي يدور هنا ، في الجبال الوعرة تصبح وسيلة الانتقال الوحيدة ، السريعة تقوم بعدة مهام ، نقل القوات ، ثم نقل الامدادات بمختلف أنواعها ، نقل الجرحى . وتبدو الهيلو كبتير بطيئة الحركة غير انها تشترك أحيانا في القتال ، وفي فترات (السبات) تصبح الهيلو كبتير وسيلة الاتصال الوحيدة التي تربط المواقع المنعزلة فوق القمم بالقواعد البعيدة ، المشكلة الرئيسية التي تواجه القتال في مناطق الجليد هي الزحمة الادارية خاصة الامداد بالذخيرة .

القتال هنا يتطلب أساليب جديدة تخرج عن الطرق التقليدية المنبثقة في الشئون الادارية والخاصة بأعاشة القوات الجوية وعدد الطائرات المتاحة استخدامها ، وفي الشمال العراقي لم تكن قمم الجبال والتيارات الهوائية الشديدة هي الخطر الوحيد في وجه الهيلو كبتير . كان العصاة المزودون بأحدث الأسلحة يحاولون التصدي للطائرات أثناء عملها ، في أحد أيام الشتاء الماضي قام أحد المقاتلين بمرافقة طائرة كانت تحمل سبعة عشر جوالا من الطحين ، الى موقعة فو ، أحد الربايا بمنطقة قريبة من الحدود الايرانية - العراقية وعندما اقتربت الطائرة من الموقع فوجيء الطيار ببعض طلقات المدفعية تتفجر حوله ، كان العصاة يحاولون أصابة الطائرة . وارتفع الطيار ، ثم حاول النزول من جديد ، ونظر المقاتل الى أكياس الطحين كانوا في نظره كسبعة عشر طفلا ، انه خبز الرجال ولاحظ أن الطيار يعاود الارتفاع من جديد ، كانت الطلقات لا تزال مستمرة ، وحام الطيار حول الجبل ثم اقترب من جديد ، وكان صوت الطائرة يخفي انفجارات قذائف المدفعية وطلقات الدوشكا في الخارج . ولم يكن عسيرا على المقاتل أن يستنتج ان الطائرة تتعرض لهجوم مصدره الأرض ، اذ ارتقت مرة أخرى وأمر الطيار ، وتكرر ارتفاع الطائرة ومعداتها سبع مرات ، وفي المرة الثامنة نجح في الهبوط . وعندما فحص الطائرة مع الرجال وجر أن أرضيتها أصابتها بعض الشظايا التي نفذت من الجسم المعدني ، غير ان أكياس الطحين امتصتها ، وهكذا دفعت عنه خطر الموت ، تستخدم الوحدات الخاصة العراقية طائرات الهيلو كبتير بمهارة كبيرة ، وذلك من حيث القفز منها أثناء اقتراب الطائرة الى ارتفاع معين من الأرض ، أو استخدامها في واجبات قتالية حيث تهاجم بعض الأهداف المتوقعة في شعاب الجبل ، وأثناء جلوسك مع بعض الرجال تسمع احاديثهم عن (الهيلو كبتير ، والفرق بين أنواعها المختلفة ، (مي ٦) و (مي ١٢) ، وهذه من الأنواع السوفيتية أو (الإبلويت) الفرنسية ، السريعة ، فلها مهام أخرى مكملة لمهام الطائرات السوفيتية التي تبدو كعربات نقل طائرة لا تكف عن ذرع السماء جيئة وذهابا .

وقرب قرية (ديانا) راحت بعض الخيول ترعى العشب ، انها تابعة للقوات الخاصة أيضا ، فالخيول لها استخدامها هنا أيضا ، والخيول الرائعة في الشمال كلها من أصل عربي ، في التلال نرى الجياد أصغر حجما الخشن ، تكيفت مع الطرق الوعرة التي يجب أن نقطعها صعودا وهبوطا ، وأحيانا تتوزع ملكية الحصان بين ثلاثة أو أربعة أشخاص ، وفي حالة انجاب الفرس يحصل كل شخص مساهم في ملكيتها على مهر ، ويكون ذلك على

التتابع . هذه القاعدة طبعا بين الاهالي ، أما الخيول التي تخدم وحدات القوات الخاصة فلها معاملة خاصة ، انها أحسن حظا بالطبع فالعناية أفضل والطعام أوفر ، خيول أميرية ، في حكم الموظفين ، وتطوف بقرية (ديانا) ، أن رجال القوات الخاصة يعيشون قري (الشمال) يعرفون الاهالي ، وكثير من الرجال هنا اصلهم كردي واسرهم تعيش في قري بالمنطقة ، وبعضهم له أقارب محتجزون بأيران غصبا ، الجنود هنا تحفل ذكرياتهم بالعديد من القصص التي يبرز فيها الجانب الفردي ، ويرجع هذا الى طبيعة عمل القوات الخاصة ، كما انهم أكثر وحدات الجيش العراقي معايشة للشمال ، حدث أن قامت مجموعة من الرجال بتحرير قرية كردية من العصاة فوجئوا أن القرية بها حالة مجاعة شديدة ، كان الأطفال والشيخ والنساء في حانة بالغة السوء ، كان العصاة يفرضون ضريبة تجبي من الاهالي ويدخلون البيوت ، يطلبون منهم الطعام ، ومع أن الكميات محدودة جدا نظرا لطرف المنطقة ، الا انهم كانوا يحصلون على ما يريدون ، وكان كثيرون منهم يعاملونهم بفظاظة وجفاء ، وهذه التصرفات التي حدثت في كافة القرى التي هزدها العصاة تعكس جانبا من طبيعة الحركة الرجعية التي قادها الملا ، حيث نجد أسلوب التعامل مع الشعب الكردي الذي ادعوا تمثيلة يعتمد على الارهاب والقسوة ، والخطف ، انه العداء للشعب بحكم طبيعة الحركة ، قام قائد المجموعات بالاتصال بقائد المنطقة وجاءت قافلة تموين من القوات المسلحة ، وبدأوا يوزعون وجبات طعام على الاهالي بنفس الكميات والأنواع التي يأكل منها الجنود .

وخلال شهر سبتمبر من العام الماضي قامت وحدة من القوات الخاصة بأعداد كمين لقافلة من العصاة كانت تتحرك بالقرب من منطقة السليمانية ولحظة اقتراب القافلة اكتشف الرجال انها تضم أطفالا ونساء ، كان العصاة قد ضوهم ليشكلوا نوعا من العائق في وجه أي هجوم تقوم به وحدات الجيش ، وهذا يدل على انهم رصدوا الأساليب الانسانية للجيش في معاملة الاهالي ، وحاولوا استغلالها في لحظة معينة بجانبهم . واجه قائد الكمين موقفا مسجونا بالتناقض ، هل ينفذ الكمين ويؤدى الأطفال والنساء ، وهذا أمر بخجل منه كمقاتل في الجيش العراقي الذي يخوض حربا ذات طابع انساني ، هل يترك القافلة تمر ، ماذا يفعل اذن ؟ وبعد لحظات اتخذ قرارا ، تابع الكمين مع رجاله ، درس تكوين القافلة جيدا ، وبناء على هذه المعايير السريعة اصدر أوامره الى رجاله باتجاهات الهجوم ، ضد الأفراد المسلحين ، وشدد على عدم الاقتراب من الأطفال والنساء الذين كانوا موزعين على القافلة ، وبدأ الجنود تنفيذ مهمتهم الصعبة ، وفعلا لم تجرح امرأة ، ولم يؤذ طفل ، لكن المجموعة دفعت ثمنا لحرصها الشديد قدره ثلاثة جرحى ، وقام القائد الشاب بترحيل النساء والأطفال واعادتهم في نفس اليوم الى قراهم .

وفي شقلاوة جاء ربيع عام ١٩٧٤ والاهالي في ذعر ، هذا ما وجدته سرية القوات الخاصة التي وصلت الى المنطقة . لقد بث العصاة الرعب في

المنطقة قاروا أن الجيش عندما سيصل سيغتصب ، ويقتل ، وينهب ويعدس .
الأطفال وفي البداية كان الجو النفسى سيئا فى (شقلاوة) ، وألقى هذا عبثا
على الرجال الذين راحوا يتصلون بالاهالى ، وخاصة أصحاب المخابز الذين
أغلقوا محلاتهم تماما ، واقتنع أحد أصحاب المخابز ، ففتح مخبزه ،
وتسابق الجنود يشترتون منه بضعة الثمن وفى اللحظة نفسها
انتقل الخبر ، « الجيش يدفع » . « الجيش لا يؤذى أحدا »
وخرج الخائفون ، وشهدت طرقات شقلاوة جنود القوات الخاصة وهم
يتبادلون الحديث مع الاهالى ، علت الأصوات شيئا بالطمانينة ، بالضحكات
بالسلام ، فى يوم الجمعة أم أحد الجنود المصبلين فى المسجد .

منذ سنوات فى عهد الحكومات الرجعية كانت وحدات الجيش تدفع
لاتيان أعمال بعيدة تماما عن التصرفات الانسانية ، كأحراق القرى ، أو
الانتقام من الابرياء ، كانت الأوامر فى تلك الحالة لاتعنى اقتناع الجندى بما
يقوم به ، بالعكس ، كان هذا يؤدى الى رجحان كفة الملا سياسيا الآن اختلف
الوضع ، المقاتل العراقى لايقوم بواجب فقط ، وانما يعمل عملا سياسيا .
أما بشكل مباشر ويتمثل هذا فى ضباط التوجيه السياسى الذين لعبوا
دورا كبيرا فى تطبيق الأسلوب الانسانى خلال القتال ، أو بالتصرفات
اليومية العادية التى تتمثل فى سلوك جميع ضباط الجيش وجنوده .
فى قرية ، (ديانا) التقيت بمقاتل عراقى اسمه محمد أمين من
الوحدات الخاصة ، أصل كردى ، منذ فترة طويلة ، وهو يقاتل العصاة
فى الشمال

يقول ببساطة :

لو أن العصاة كانوا يعملون لمصلحة الوطن لالتحقنا بهم .
انه يقاتل فى الصفوف الامامية مع اخوانه المقاتلين الذين يمتون اليه
مختلف انحاء العراق ، من البصرة حتى زاخو والسليمانية ، محمد أشترت
فى الهجوم على (كلى على بك) يذكر ان ضباط كرديا من الوحدات
الخاصة أيضا استشهد فوق (كورك) ، أسمة توفيق الزيدى ، وأثنساء
القتال جرح محمد ، ارتمى فوق الصخر ، وكانت طبيعة المكان وصعوبة
الموقف، تقطع كل بارقة أمل يمكن أن تلوح له ، غير أن ياسين ولى الضابط
العراقى الشاب ، ابن البصرة ، لمح الجندى محمد أمين ابن اربيل ، الكردى
الأصل ، تقدم منه ، حمله فوق ظهره ، نقله الى النقطة الطبية الميدانية
المصاحبة للوحدة .

ويقترب منا المقاتل مصطفى ، انه أحد أفراد الوحدات الخاصة ، من
راوندوز ، قريته تبعد عنا كيلو مترات قليلة ، قرية (بالسيكان) قصى
الشمال منذ ١٩٥٨ ، أى منذ خمسة عشر عاما ، أسرته كلها أجبرت على
مصاحبة العصاة ، أشقاؤه كلهم فى ايران ، انهم اربعة :

- أين يقيمون . . هل تعلم مكانهم ؟

- فى ايران .

- الا تصلك اخبارهم ؟

• ما عندي أي خبر عنهم •
المقاتل مصطفى لايدري شيئا عن أسرته ، بصمت قليلا ، ثم يقول
أن هذه المأساة سببها الملا وزمرته ، وهم الذين جعلوا الاخ يرفع السلاح
في وجه أخيه ، سببوا هذا التمزق في الشعب الكردي • • لمصلحة من
تسيل كل هذه الدماء ؟

• استشهد أحد الرجال ، في العش الصخري ، فوق تاتان •
• متى ؟

• قبل بداية النهار •
لم يخف صوت المقاتل اهتزازة تأثر ، ونبرة ألم ، وقف بعض الرجال
يحملون صندوقا خشبيا مفتوحا ، به بقايا الشهيد ، استعدت الموقع النائي
القريب من السماء ، نظرت الى آثار انسان ، ولكم تثير الأشياء الصغيرة
المتعلقة بأنسن رحل عن عالمنا الى أبد •

• الشهيد علي حسين العماري •
• صورة شخصية ، الوجه في العشرينيات ، أسمر • واسع العينين ، أنفه
مستطيل قليلا ، • من البصرة ، خلف الصورة ختم مستدير (ستوديو الرضا)
بغداد • مدينة الثورة •

• صورة للشهيد مع أحد أصدقائه • كتب علي ظهر الصورة (ذكريات
عبرت أفق خايلي) ، التقطت في ٢٨ يناير سنة ١٩٧٢ ، عيد الأضحى
المبارك ، في ستوديو الأمة مقابل سينما غرناطة ، رسم قلب بداخله ،
ناصر علي •

• صورة مهداة الى الشهيد من شخص اسمه طالب •
• صورة للشهيد مع أحد أصدقائه في مقهى بغداد ، في جلستهما بعض
الشجن ، ربما يذكران قصة غرام فاشلة أو يقصان بعض الأحداث المتعلقة
بالغير ، أممنا. علبة سجائر ، في الخلفية شخص ما يحاول أن يظهر في
الصورة (وقت التقاط هذه الصورة ، هل كان رأى الشمال ؟ هل أشترك
في القتال ؟ ربما لم يكن يعرف أن هناك مكانا في العالم اسمه العش
الصخري فوق جبل اسمه تاتان) •

• • •
كراسة سوداء ، تضم قصائد شعر أختارها الشهيد من بين عدة
دواوين قرأها ، في الصفحة الأولى اهداء •
• • • هادئا كمرافئء المدن الراحلة •
هو الليل الذي تسكنينه

عنى

وعنك

وعن القادمين من ينابيع الصباح

كتبت قصائدي

(من هم القادمون من ينابيع الصباح ؟ نقلب صفحات الكراسة

برهبة وكأنما نقلب حياة الشهيد ذاتها) .

عاود طير المهاجر على الديرة

بجنح مكسور

عاود من بعد سنين

ياريجة جناحه بخور

كان الدفتر يصحبه في تلك الاعالي الجبلية ، في العش الصخري ،
وعندما تقدم مع زملائه لتطهير قمة الجبل ، أشتبك بالسلح الأبيض مع
بعض العصاة ، برقت طعنة في بطن الليل وضعت حدا لمرحلة الشباب ،
وللانفعال بقصائد الشعراء ، وأحلام السنين .



الجمعة ١٤ مارس ١٩٧٥ :

حوالي السادسة صباحا ، فوق قمة (كورك) شهدنا خيط الضياء
الأول ، ولادة الكون من جديد ، للشروق هنا طابع وتأثير مختلفان تماما
عن الشروق في حسنان ، هناك يفرض المكان رهبة ، شروق يكشف قمة
سر حسن بك ولا يوضح طرفا من غموضه ، هناك فوق كورك الشروق
صريح ، الجليد أقل كثافة ، ضيق كلى على بك لانراه لكن نشعر بامتداده
الى أسفل ، تراكمت الصخور الجرانيتية فوق بعضها البعض بتأثير من
بداية النهار الرمادية ، بدأ جسم الجبل كما لو انه تعرض لبلل خفيف ،
أذكر ملامح بعض الأشجار في حوض رواندوز ، في الحرب تعاني الأشجار
أيضا ، تموت ، تصاب ، في جبهة السويس ، أمام القنطرة غرب بعض
أشجار الكافور الضخمة على حافة القناة مباشرة ، بعد يونيو ١٩٦٧ ، بعد
تهجير المواطنين وبنه حرب الاستنزاف ونبادل إطلاق المدفعية عبر القناة ،
بدأ الذبول يتسرب الى هذه الأشجار . قيل وقتئذ أن الأشجار (تتخض)
أى تفزع ، تماما كالإنسان ، من يدري ؟ ربما يتضمن حفيفها أصواتا تعبر
عن أوجاع لاندركها نحن البشر ، أمس الخميس كنا في أحد المواقع الأمامية
عندما جاءت برقية من مجلس قيادة الثورة تفيد بوقف إطلاق النار بناء
على طلب قدم من الحكومة الإيرانية ، حتى تتاح الظروف التي تمكن من
تنفيذ الاتفاق الذي وقع في الجزائر ، التقطت أجهزة أستماع الجيش
العراقي برقية لاسلكية صادرة من قيادة الملا مصطفى البرزاني الى الوحدات
التابعة لها بضرورة الالتزام بوقف إطلاق النار ، يوضح هذا درجة الارتباط
بين قيادة الملا وايران ، ان الذي يطلب وقف إطلاق النار هو شاه ايران ،
ثم يلتزم به الملا .

في وجه النهار الجديد يدوى انفجارا بعيد ، لصدى الصوت أيقاع
مختلف فوق القمم يعكس تردده في الوديان .

- ربما بعضهم لم يصله قرار وقف إطلاق النار ، ربما قذيفة في
اتجاه تحرك غامض .

تصبح اللحظة محملة بالاحتمالات ، طلبت ايران وقف إطلاق النار
لسحب وحدات مدفعتها المشتركة في القتال ضد الجيش داخل الأراض

العراقية ، فى نفس اليوم أصدرت أوامر محددة الى الطيارين العراقيين وبطاريات المدفعية الثقيلة بعدم تدمير الجسور التى تقع فى المناطق الخلفية المتاخمة للحدود الأيرانية ، وذلك لاتاحة الفرصة أمام الوحدات الأيرانية للانسحاب ، فى نفس الوقت صدر عفو عام عن الأكراد الذين أشتركوا فى العصيان ، وأذيع العفو بالكردية مرارا ، بالتلفزيون ، وألقت الطائرات ملايين المنشورات .

نداء الى كافة المواطنين الأكراد :

أخى المواطن الكردي ، أستفد من بيان العفو الصادر من مجلس قيادة الثورة لتسليم نفسك وسلاحك وكافة المستمسكات التى لديك ، وستلقى كافة التسهيلات اللازمة من أخوانك العسكرية والمدنيين ، فلا تدع الفرصة تفوتك .

((التوجيه السياسى))

ويمضى النهار ، ويبدو مذاق جديد للأيام ، أنها الأيام التى تشهد الأحداث الفاصلة فى الأمور الكبيرة .

المحور الرابع
أرييل - الجولان

أربيل مدينة مشرقة بقدر ما هي عجوز ، وجهها خال من التجاعيد ، ربما لتلك الحيوية المتدفقة عبر تاريخها الطويل ، لم تصبح هيكلًا عظيمًا كبابل ، أو تحجرت مثل نينوى واختفت ، ولأنها تقع في سهل فسيح فالضوء يغمر طرقاتها ، وطول النهار يداخلك أحساس ان الوقت ظهر ، حيث يبلغ الضوء درجة من الصفاء والشفافية حتى لتكاد تلمح ما وراء السماء الزجاجية الحادة في الآثار المسماة ، البابلية ، الآشورية عرفت المدينة باسم (أربا أيلو) أي مدينة الأربع آلهة ، جاء ذكرها في الاسانيد التاريخية الآشورية منذ المائة التاسعة قبل المسيح . كانت مدينة مقدسة لوجود معبد الآلهة (عشتار) حيث يصلى فيه الملوك ويدعون الآلهة (عشتار) كي تنصرهم وكان المنتصرون يعمدون الى سلعهم جلود اسراهم أمام محراب عشتار . أربيل ملتقى طريق القوافل القديمة ، والطرق ، الحديثة ، لهذا حفظت اسمها بحالته الى يومنا هذا . الا انها كانت على السنة التجار والرحالين ، تبعد عن شمالي كروك ٩٩ كيلو مترا ، وعن جنوب شرقي الموصل ٧٨ كيلو مترا فهي همزة الوصل بين هاتين المدينتين الكبيرتين ، وفيها يمر الطريق الى (رايات) الواقعة على الحدود الإيرانية ، ولأنها في موقع هام . فقد شهدت حروبا عديدة جرت بين مختلف الأمم ، بين الإيرانيين واليونانيين ، بين ميديّة ولودية ، بين الامويين والعباسيين ، ولكن أشهر الحروب التي جرت هنا تلك التي نشبت بين الاسكندر الأكبر ودارا ملك الفرس عام ٣٣١ ق . م ، في سهل (كوكاميل) ، فر ملك الفرس هاربا بعد ان دفن كنوزه في القلعة ، ربما تكون مدفونة حتى الآن في بطن هذا التل . جاء ياقوت الحموي الى أربيل ووصفها بانها (قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض ، وبقلعتها خندق عميق . وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية وجامع للصلاة) .

كانت القلعة مسورة في العصر الاسلامي الوسيط ، وخلال هجمات المغول المتكررة على بغداد لم يظفروا بها ، انما دخلها التتر عام ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) فنهبوا بيوتها وخربوها وقتلوا عددا كبيرا من أهلها عندئذ تصدى لهم الأمير مظفر الدين كوكبوري فوجدهم رحلوا عنها ، جدد عمارتها واقام بها الأسواق والمرافق ، ومن آثاره الهامة بالمدينة منارة أربيل أو المنارة المظفرة ، تقع في الجبهة الغربية الجنوبية من المدينة ، يبلغ ارتفاع القسم الباقي منها ٢٧ مترا ، وكانت تعلو مسجدا في الأصل ، لفتت نظر الكثيرين من الرحالة ، ذكرها نيبور في رحلته سنة ١٧٦٦ « وليس في أربيل آثارا شاخصة ما خلا بقايا جامع كبير يقع بعيدا عن القلعة وسط الحقول وهو من آثار السلطان المظفر ، والمنارة القائمة بجوار الجامع قوية البناء وهي مبنية من الآجر والكلس » في سنة ١٨٢٠ زارها المستر ويج ووصف الجامع بأنه (متهدم وخراب) ، شاهد صامت على مرحلة كاملة من تاريخ أربيل ، ويقول الآثريون أن التل الذي تقوم فوقه القلعة يخفى بين طياته آثارا كثيرة تمت الى عصور تاريخية مختلفة ، لم يكشف عنها بعد الآن . التلغ تعلوه منازل ، ويوجد فوقه عدد من المباني النسي

تستخدمها المصالح الحكومية ، أن جدران التل تنمو عليها الطحالب الخضراء وهذا يكسبه طابعا خاصا اذ يتزواج اللون الاصفر للصخور ، مع لون الخضرة ، عبر التاريخ الطويل نما التل نموا ذاتيا ، مدينة فوق مدينة تتقوض واحدة ترفع فوقها أخرى ، وهكذا يعلوا خلال عصور لا يعرف مداها ، لا ينسوي الى ملك ، أو حاكم معين ، تل صنعه الدهر ، في أربيل يسيطر علينا احساس عجيب بحيوية التاريخ وتدفقه ، ويتجول الاهالي ، الأكراد بزيتهم التقليدي ، قميص ذو أكمام طويلة يشبه من المقدمة الجزء العلوي من الجلباب البلدي في مصر ، ثم حزام (اسمه بالكردية البشتين) عادة ما يكون طوله عدة ياردات ومبروم برما كالحبل ثم يشد حول الخصر ، ويحفظ هذه الحزام بالجسم مشدودا خاصة أثناء تسلق الجبال ، ويدفئ البطن في الشتاء ، أما السروال (الده ربي) فيضيق حول الساق ، ان الزي يعيد الذاكرة بشكلها صورة المماليك والجنود العثمانيين ، انه زي موحد ، جميع الأكراد يرتدونه ، الفارق في نوع القماش حيث يبلغ سعر التوب الذي يرتديه أثرياء الأكراد حوالي ثلاثين دينارا وهذا يكون مصنوعا من شعر الماعز ، وينسج محليا ، أما الفقراء فيرتدون أنواع القماش الرخيصة ، ولكنه نفس التصميم . وفي فترة ما كان غطاء الرأس يدل بلونه على العشيرة التي ينتمي اليها الكردي . أيضا طريقة نف الغطاء انه يتكون من طاقة يلف حولها لفا هيئا مرتين أو ثلاثا من حرير أو قطن ، وفي التلال المحيطة بأربيل يصبح غطاء الرأس من اللباد مخروطي الشكل ويلف حوله ما يشبه الشال الذي نراه في صعيد مصر ، حاليا يلف بعض الشباب حول اغشية الرأس لفائف براقه الألوان ، في المدينة رأينا رجلا يرتدون جلبابا اشبه بالجلباب البلدي المصري ، قرب نهايته من أسفل مشقوق على أحد الجانبين ، وبدلا من حزام الخصر التقليدي نجد حزاما نحيلاً من الجلد ، وفوق الجلباب جاكته أفرنجية ، وغطاء الرأس مقارب للغطاء الكردي ، هؤلاء اكراد أيضا ولكنهم السكان الأصليون لأربيل . أي المنحدرون من أسر عاشت في المدينة منذ تلك الأحقاب البعيدة ، أمام الفندق ذي الغرف الفسيحة طالعنا لافتات ترحب بذكرى اعلان بيان مارس (آذار) ، مرت منذ أيام أثناء تواجدنا في الجبال ، لافتات بالكردية والعربية . . . ابتسم لنا أيضا طفل في حوالي الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة . يلف وجهه ورأسه بما يشبه الايشاب ، انه يجلس أمام صندوق لمسح الأحذية ، كانت ابتسامته عريضة كسهل أربيل ، ووجهه ينم عن جدية لا يعرفها عادة هذا العمر المبكر ، عندما خرجنا مرة أخرى والليل يقترب ، وثمة أضواء عديدة بدأت تلمع في المدينة ، رأيت مكان الصبي خاليا ، ربما ذهب الى أسرته بحصيلة يومه ٢ في أربيل المقرات الرئيسية المؤسسات الحكم الذاتي وعلى رأسها المجلس التشريعي ، هذه المؤسسات ستقود مختلف جوانب الحياة في شمال العراق وهي التي ستقوم بتطوير الواقع الكردي المتخلف ، وقيامها بدورها الصحيح وتدعيمها يقطع الطريق على أي قيادة عشائرية متخلفة في المنطقة ، كان الملا مصطفى البرزاني وعناصر القيادة العميلة يحاربون

مؤسسات الحكم الذاتي لوعيهم بمدى ما تمثله من خطورة على مراكزهم ، ومصالحهم ؛ لكن يظل ثمة سؤال ، ما هي الظروف التاريخية التي أدت الى تزعم الملا مصطفى الحركة الكردية ؛ ما هو موقفه من الاتجاهات التقدمية والرجعية ، في العراق ؛ ان هذا يقتضى العودة الى عام ١٩٥٨ عندما قامت ثورة تموز (يوليو) التي اطاحت بالنظام الملكي ، ورحبت بها الجماهير الكردية . أعلنت الثورة عفوا عاما عن الاكراد الذين صدرت ضدهم أحكام في العهد الملكي بما فيهم الملا مصطفى البرزاني الذي لجأ الى الاتحاد السوفيتي منذ ثمانية عشر عاما ، هياله عبد الكريم قاسم استقبالا ضخما ، ويبدو أنه كان يريد كسب الملا مصطفى الى جانبه كقوة تدعم نظامه الدكتاتوري الذي بدأ ينحرف عن ثورة تموز (يوليو) ، أعلن الملا انه جندي مخلص لعبد الكريم قاسم لكن الوفاق لم يدم طويلا ونتيجة لتطور الظروف دب الخلاف من جديد عندما اتخذ قاسم اجراءات داخلية لم ترص الملا مصطفى فبدأ قاسم في سبتمبر (ايلول) ١٩٦١ بشن هجوم عسكري وبدأ يضرب تجمعات الاكراد . في هذه المرحلة كان تسليح الاكراد خفيفا ومحدودا ، في الجانب المقابل لم يكن الجيش مؤمنا بأهداف القتال ، كانت القوى الوطنية والتقدمية تتحد لتقاوم الحكم الدكتاتوري ، كان من الممكن تجنب القتال وخاصة أن مطالب الاكراد وقتئذ مشروعة ومتواضعة ، انصب معظمها على الغاء الاجراءات التي اتخذها قاسم ، كالغاء التدريس بالكردية أو أبعاد الموظفين الاكراد الى الجنوب .

في فبراير ١٩٦٣ قامت الثورة ضد الحكم الفردي بقيادة حزب البعث وتضمن البيان الاول الصادر عن المجلس الوطني لقيادة الثورة :

((تحقيق وحدة الشعب الوطنية بما يتطلب لها من تعزيز الأخوة العربية ، الكردية ، بما يضمن مصالحها القومية ويقوى نضالها المشترك ضد الاستعمار واحترام حقوق الاقليات وتمكينها من المساهمة في الحياة الوطنية)) .

وبعد أقل من شهر واحد على قيام الثورة صدر عن المجلس الوطني لقيادة الثورة في ١ مارس ١٩٦٣ بيان عن القضية الكردية جاء فيه :

((أن الثورة عازمة عزمها أكيدا على تصفية آثار الحكم القاسم البغيض وارتالها بالعمل على تطبيق مشاركة جميع المواطنين في الوطن الواحد ، وضمان حقوق اخواننا الاكراد)) .

وبعد تسعة أيام ، في ٩ مارس صدر اعلان من المجلس الوطني يقضى باقرار الحقوق القومية للاكراد على أساس اللامركزية ، ورفض الملا شروط الادارة اللامركزية ، في هذه الفترة بدأت العناصر الواعية في الحركة الكردية تشعر بالقلق ، لقد ظهرت أسلحة جديدة غربية المصدر ، وجاء بعض المستشارين العسكريين الأجانب الى مقر قيادة الملا مصطفى البرزاني ، وشيئا فشيئا تدفقت المساعدات الأجنبية على الملا ، بدأت تظهر معارضة لقيادة الملا وصلت الى حد الصدام المسلح مع بعض الجماعات الكردية ، بدأت تطرح أسئلة ، لمصلحة من تنزف الدماء ؟ هل تنزف من أجل

مصلحة الشعب الكردي ؟ أم من أجل مصلحة الملا شخصيا ، أن ارتباطاته التاريخية بالانجليز معروفة ، وهو فردي في قيادته ، ارهابي ، انه خبير في تحطيم نفوس من يحيطون به ، أمام الجميع يسب سكرتيره الخاص بعبارات شديدة البذاءة ، ويزحف السكرتير على قدميه أمامه ، كثيرا ما يلجأ الى أساليب المراوغة ، يبتعد عن الوضوح ، يرتدى لكل مجلس لباسه ، ويصبح صعبا التعرف على شخصيته الحقيقية ، أحيانا يتصرف بشكل مسرحي فيضرب صدره بقبضته ، أو يفتعل الانفعال ، وأحيانا يلوذ بالمظاهر الدينية ، لم يكن يبوح لاحد من المحيطين به عن مصادر تمويله كيف تصله الخنقود ، الأسلحة ، الطرق التي يستخدمها أعوانه في الوصول بهذه الامدادات بدأت تتضح للعناصر الكردية المسلحة فهو في نظر العالم جنرال وزعيم ، هكذا بدأ الصحفيون الغربيون بصورونه للعالم ، ولكن اذا حلت المشاكل فسوف يتضائل حجمه ، واذا تطور الواقع الكردي فان الاساس العشائري وقيم التخلف التي يستند اليها استنادا كبيرا في تثبيت زعامته لدى الاكراد سوف تنهار ، أيضا فان أي تغيير حقيقي في المنطقة سوف يلحق الاضرار بالاقطاعيين ، والنظام العشائري ، وهو مرتبط ارتباطا عضويا بكليهما . . . كانت القاعدة الكردية المرتبطة بالملا فقيرة ، رعوية ، ارتباطها به عشائري ، ديني ، فهو رئيس عشيرة البرزانيين وسلطته لها جانب ديني ، كان أيضا يحرص على تصعيد عناصر الى قيادة الحركة الكردية يمكن له حفر بها في أي وقت ، كانت هناك عناصر نقيته في القاعدة تقدر كلما اقتربت من الملا ، يحاول بذكاء أن يربطهم به ، ارتباط له جانب مادي واضح ، على سبيل المثال كان عدد من القياديين المقربين منه يعملون ويشرفون على عمليات التهريب الواسعة التي يتم خلالها اغراق السوق العراقية خاصة في الشمال . بالبضائع المهربة عبر ايران . وأصبح هناك مصطلح يطلق على تلك البضاعة (القشغ) وبضاعة القشغ كانت معروضة علنا حتى بداية التمرد المسلح الرجعي سنة ١٩٧٤ . اتخذت السلطات الثورية العراقية عدة اجراءات تم بواسطتها منع (القشغ) ، من ناحية أخرى ظهر ثراء عريض على بعض القيادات التابعة له ، على سبيل المثال هناك شخص اسمه عزيز الاتروشي وهو أصلا معاون شرطة ، لم يكن يملك شيئا قبل انضمامه الى الملا ، بمجرد صعوده الى مجموعة القيادة أصبح له رصيد في بنوك ايران يقدر بمائة أو مائة وعشرين ألف دينار ، أما الأعضاء ، الذين لا يستطيع الملا تصنيفهم فكريا فكان يصيهم جسديا ، بواسطة الاغتيال ، أو اختطافهم ، ثم احتجازهم في سجونهم الخاصة برايات وكلالة ، والسجون الفرعية الأخرى المنتشرة في كل مكان ، من ناحية أخرى استمرت المحاولات من العناصر التقدمية لتخليص الحركة من المنزلق الذي بدأت تتجه اليه على يد الملا مصطفى وعندما صدر بيان آذار (مارس) ١٩٧٠ ، لاقى ترحيبا من جانب هذه العناصر ، وتطبيقا للنضج الثورة الذي تعامل به ثورة العراق المشكلة الكردية ، أفسحت المجال أمام الملا مصطفى للانضمام الى صفوف الوحدة الوطنية العراقية ، أبرق الملا الى الرئيس البكر معلنا التزامه بالبيان نصا وروحا .

اذن .. كيف جرت الامور فيما بعد ؟
عند صدور البيان لم يكن الملا بقادر على اعلان المعارضة الصريحة للبيان ، في نفس الوقت راح يخطط لهدف أبعد . وهو الانفصال عن العراق وذلك بمعونة الدول الاستعمارية الكبرى ، الغالبية العظمى من الاكراد أدركت هذا الهدف ، وعارضت الملا ، لان حل المشكلة الكردية سلميا عبر تطبيق الحكم الذاتي انما هو اجراء ديموقراطي يتجاوب مع مصالحها ، ويتيح لها فرص النمو والانتعاش وازدياد دورها في النشاط الاقتصادي ، وفي حركة السوق المحلية التي ستنتعش في ظروف السلم ، وعلان الحكم الذاتي يعنى ربط حل المسألة القومية الكردية بعملية التنمية الاقليمية ضمن خطة التنمية الشاملة ، سوف يؤدي هذا الى تصفية الاقطاع ، وأشكال الاستثمار البالية ، والنهوض بأوضاع المنطقة في جميع المجالات . ان خطة التنمية العراقية تنشط بمعدلات سريعة حركة التجارة والمقاولات والتصنيع وقطاع الخدمات ، وتطوير الزراعة في الريف وهذا ما يتفق مع مصالح وأهداف الكثيرين من الاكراد . ان الانفصال عن العراق يعنى الوقوع في فلك التبعية الأجنبية . أما الطبقات الكردية الكادحة فيعنى الانفصال بالنسبة لها مزيدا من الاستغلال وقطع أى أمل في تحسين ظروفها .
من ناحية أخرى فان تطبيق الحكم الذاتي لا يعنى مجرد ربط عدة محافظات بوحدة ادارية . أو حتى اقرار اللغة الكردية كلغة رسمية . ان الحكم الذاتي يعنى ثورة في المنطقة ، ثورة مضمونها استمالة الجماهير الكادحة والتفافها حول هذه التجربة بوصفها تجربة ديموقراطية ثورية ، لا يمكن أن تنجح بدون مشاركة الجماهير وبدون كسب الجماهير الى جانبها ، وحتى يتم هذا فان القوى الاقطاعية والرجعية لابد ان تتصدى لها حتى لاينحقق هذا الواقع الثورى . لم تنتظر تلك القوى تنفيذ الاجراءات بل شنت حركة مسلحة رجعية ضد الحكم الذاتي والثورة .. ولان التغييرات التي تجرى عميقه ، فان الثورة العراقية تعنى تماما ان الاجراءات العسكرية لا تكفى ، انما لابد من عمل سياسى مكثف لتعبئة الجماهير الكردية ضد القيادة اليمينية ، وكان الجيش العراقى أحد الأعمدة الرئيسية ، الاساسية في ممارسة هذا العمل .



لم يعارض الملا مصطفى البرزاني الحكم الذاتي علانية ، انما اتبع خطا مراوغا يهدف الى تعطيل المشروع ، في نفس الوقت يحاول الظهور أمام الاكراد بأنه حريص على مصالحهم ، وتركزت العراقيل حول عدة نقاط :
● في حين رأت الثورة ان يطبق الحكم الذاتي في ثلاث محافظات تيميش فيها الأغلبية الكردية ، هي دهوك ، السلمانية ، أربيل ، وأن تكون مدينة أربيل مركز الحكم الذاتي ، رأت القيادة العميلة ادخال مناطق أخرى مثل (خانقين) على الحدود الايرانية ، وكركوك ، وجبال سننجار على الحدود السورية ، وجبال حميرين قرب بغداد وغيرها من المناطق المتخلفة والتي لا تشكل فيها الاكراد أغلبية .

● يقرر قانون الحكم الذاتي انشاء وحدات ادارية في الشمال واعتبار كردستان وحدة ادارية لها شخصية معنوية تتمتع بالحكم الذاتي في اطار الوحدة القانونية والسياسية والاقتصادية للعراق ، في مواجهة هذا طابعت القيادة اليمينية بنظام أقرب الى الوزارات المستقلة ، وباستقلال يردى في النهاية الى اقامة كيان كردي منفصل تماما عن العراق ، ويلاحظ ان هذا الانفصال السياسي يلتقي مع الهدف اندي لم يعلن عنه البرزاني في ذلك الوقت وهو الانفصال ، والذي جسده خطته العسكرية .

ثم قدمت القيادة اليمينية عدة مطالب تعجيزية ، منها ضرورة صدور كل قوانين الحكومة المركزية من المجلس الوطني ، وضرورة ان تكون الشرطة خاضعة لسلطات الحكم الذاتي ، وبأن تكون هناك هيئة رقابة متبادلة على دستورية القوانين ، وطالب بالغاء مجلس قيادة الثورة في العراق . واستمرارا لنفس الثورة الطويل ، الصبور في محاولة حل المشاكل بالطريق السلمي ، عرض حزب البعث ان تكون كركوك منطقة مختلفة ، تكنهم أصروا على ضمها الى كردستان ، وبرغم المواقف السلبية والمعادية التي اتخذها الحزب الديمقراطي الكردستاني برئاسة البرزاني ، بالنسبة للجهة الوطنية التقدمية ، ورفضه الاشتراك فيها ، رغم حملته الدموية على قواعد الحزب الشيوعي في كردستان وعلى الرغم من مهاجمته لاتفاقية الصداقة والتعاون المعقودة بين العراق والاتحاد السوفييتي ، الموقف المعادي للاصلاح الزراعي .

على الرغم من هذا كله فقد تم الاتفاق على اجراء مفاوضات ثلاثية بين ممثلي الاحزاب الثلاثة ، اشتركت فيها شخصيات مستقلة عربية وكردية في نهاية ١٩٧٢ لحل المشاكل المتعلقة بالحركة الكردية .

واستمرارا للرغبة في حل المشكلة حلا سليما ، تم ابلاغ ممثلي الحزب الكردستاني بأن مشروع الحكم الذاتي ليس مجرد وجهة نظر لحزب البعث أو الحزب الشيوعي وانما هو صيغة للوصول الى اتفاق مشترك ممكن بين مختلف الاطراف ، وأوضح الرفاق في الحزبين : البعث والشيوعي ، أن المرجو من الحزب الكردستاني أن يساهم للوصول الى صيغة ثلاثية يتم الاتفاق عليها ، وأوضح لهم الرفيق صدام حسين أن البعث متفتح ، ومستعد لتغيير موقفه اذا وصل الى قنوات جديدة ، وأشار الى أن الموقف الحالي لم الى قناعه جديدة ، ولكن ممثلي البرزاني اصروا على موقفهم ومطالبهم الخاصة يكن موقفنا من قبل ، وأنه من خلال العلاقات مع الشيوعيين أمكن الوصول بكر كوك وغيرها ، وأعلن محمد محمود رئيس الوفد الكردي في ختام المناقشات أن هناك كل المبررات لاقامة علاقات بين ايران والحركة الكردية .

عكذا أصبح من الواضح أن البرزاني يضع العراقيل في سبيل أي تفاهم أو حل سلمي جذري للموضوع ، وبدأت ارتباطاته تتكشف أكثر ونواياه الانفصالية التي تتعارض مع الحركة الكردية ، ومنذ ١٩٦٣ وحتى ١٩٧٣ كانت القوى الواعية والتقدمية في الحركة الكردية تنفصل عن الملا وما يمثله وعندما بدأ الملا تنفيذ مخططة العسكري سنة ١٩٧٤ كان قد وصل

الى أقصى درجات العزلة ، كانت الثورة العراقية قد عزلته تماما ، والى صفوفها انضمت القوى التقدمية فى الحركة الكردية . حملت السلاح لتقاتل التمرد اليميني الرجعي ، وعندما بدأت العمليات العسكرية كانت هناك قوى كردية تحمل السلاح الى جانب الجيش .

وفى القرى المنتشرة بسهل أربيل الخصب ، مركز الاقطاع الكردي، التقينا بعدد من الفلاحين الاكراد المستفيدين من قانون الاصلاح الزراعي ، كان بعضهم مؤيدا للملا يوما ، ولكن بعد ضرب الاقطاع واستلامهم الأرض حملوا السلاح واستماتوا فى الدفاع عنها ضد عصابات الملا التي يقودها كبار الاقطاعيين فى كردستان ، وتطبيق قانون الاصلاح تطبيقا جنريا يمثل أحد عناصر التحول الاجتماعى الهامه فى كردستان ، اذ انه ينسف الأضية التي تستند اليها لقوى الاقطاعية والرجعية المناهضة للثورة ، لقد عارض الملا قانون الاصلاح الزراعي ، وأشار أثناء المناقشات التي جرت بداية اعلان الجبهة الوطنية التقدمية الى أن ميثاق الجبهة له محتوى طبقي، لانه نص على تصفية الاقطاع فى كردستان ، وتساءل لماذا نص الميثاق على كردستان فحسب وليس على العراق كله متناسيا أن مناطق العراق الأخرى لا يوجد بها مثل تلك الأوضاع الاقطاعية ، حيث كان الاقطاع قد تمت تصفيته على عكس المناطق الشمالية ، حيث تصل ملكية بعض الأفراد الى ما يتراوح بين ٢٠ - ٣٠ فدانا .

ونمر ببعض القرى ، ان القرى الكردية مبعثرة بعيدة عن بعضها البعض . واعتبارات كثيرة تتدخل فى اختيار موقعها ، فى الماضى كان البعد عن الطرق المطروقة أمرا يدخل فى عوامل الاختيار موقعها ، وذلك لاختفائها عن عيون رجال القبائل المغيرة ، أو قطاع الطرق ، أيضا فان وجود نبع مياه قريب أمر له تأثير كبير ، وكثيرا ما ترى فى كردستان قرى مهجورة ثم تجد بعد مسافة قليلة لانزيد عن كيلو متر ، قرية أخرى عامرة بالسكان ، انها نفس القرية المهجورة ولكن سكانها انتقلوا من الموضع الأول . . . لاعتبارات عديدة لها علاقة بظروف المكان أو مصدر نبع المياه . . . ان مكان القرية هنا ليس ثابتا ، القرية فى مصر مثلا تقبع فى مكانها منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة ، حتى الأجداد القدامى عندما اختاروا مواقع القرى فى وادى النيل اختاروها فوق مرتفعات للبعد عن اخطار الفيضان ، بل ان مكان البيت الواحد محسوب منذ الأتزل بالشبر والمتر ، نفس مكانه ، قد يتهدم البناء ويقوم غيره ، لكن رقعة الأرض ثابتة يتوارثها الأبن عن الأب عن الجد ، هنا فى شمال العراق ، لا تستقر قرية فى موقعها ، وربما يرجع هذا الى طبيعة المجتمع الرعوية ، قبائل عديدة من الاكراد تترك قراها فى الصيف وتصعد الى أعالي الجبال ، اذكر اننى رأيت من الطائفة أثناء مرورنا فوق المرتفعات المحيطة بدربندى خان ، عددا من الابينة المهجورة ، بدت غارقة فى الوحدة، وحدة مصدرها الشتاء البارد الجليدى وهجرة الانسان لها ، عرفت الآن انها القرى الصيفية التي ترحل اليها العشائر فترة الصيف ، يصعد الجميع بعائلاتهم ونسائهم وأطفالهم ، من هنا فان الكردي لا يتردد كثيرا

عند اختيار موقعه ، سواء السياسي ، أو المعاشي المتعلق بتكسبه للرزق ، في مصر ونتيجة للاستقرار الزراعي الطويل ، والتوازن في الطبيعة المصرية ، حيث الوادي منبسط ، والسماء فسيحة ، ولا جبال شاهقة ، يصبح اتخاذ قرار يتعلق بتغيير مسار حياة انسان أمرا صعبا ، ولهذا لم تعرف الحياة المصرية هجرات جماعية واسعة ، الانسان يعنى الأرض ، هنا يمكن للكردى ان يغير موقعه بسهولة ، فقط اذا اتخذ القرار ، واقتنع ، يترك وظيفته اذا كان موظفا ، أو أرضه اذا كان فلاحا ، أو متجره اذا كان تاجرا ، قبل وصولنا (أربيل) بيومين ، عادت الى العراق ألف ومائة عائلة كردية كان قد تم تهجيرها الى ايران تحت أرهاب الملا ، قطعوا ثلاثة آلاف كيلو متر عبر الحدود التركية ليعودوا الى الوطن بدون مساءلة ، أو مناقشة ، فى بعض المواقع التى دارت فيها المعارك وقع اكراد عصاة فى الأسر ، وتعبير الأسر هنا لا يعبر بالدقة عن ظروفهم الجديدة ان الجيش لا يرسلهم الى السجن ، انما يرحل المخدوعين والبسطاء الى قراهم فورا بسيارات الجيش ، بعض هؤلاء من أفراد البيشمركة أو المثقفين يتم ابقاؤهم لأيام قليلة ، خلالها يتم معهم عدة لقاءات ومناقشات ، فى أحد المعسكرات بمنطقة أربيل قام مسئول تنظيم حزب البعث باجراء حوار طويل مع العائدين المحتجزين ، قام بعضهم أثناء المناقشة ، طلبوا سيارات وكاشفات الغام .

— لاننى زرعت بعض الأغام فى المنطقة الفلانية . .

شخص آخر ، قال انه يعرف طريقا سريا للامدادات التى تصل من الخارج ، لم يطلب أحد منهم معلومات ، ولم يجر أى تحقيق ولكن بالمناقشة ، والاقناع الهادى ، الانسانى ، تتضح كل الأمور .

من أهم المشروعات التى ستتم فى منطقة الحكم الذاتى بالعراق مجتمعات القرى ، وهى مناطق خصصت لبناء عدد كبير من المساكن ، أى ما يشبه قرى كبيرة أو مدنا صغيرة ، مزودة بجميع احتياجاتها ، من المرافق ، والخدمات الحديثة ، سوف يتم تسكين عدة قرى فى كل مجمع واحد ، بدىء قعلا فى المشروع وتقوم ، شركة ايطالية بتنفيذه ، وهذا المشروع سيحدث أثارا ايجابية عميقة على المجتمع الكردى والانسان الكردى ، بعض الشركات الأجنبية بدأت بالفعل تنفيذ عدة طرق رئيسية ، ومع امتداد الحضارة تسقط السلبيات ، والأهم هو توفير المناخ النفسى للمواطن ، ووضع حد لهذه الدراما المؤلمة ، فى المجلس التشريعى التقيينا بأحد الزعماء الأكراد الذين يقاتلون الى جانب الحكم الذاتى ونعلم أن والده سجن عند الملا ، أختطفه بعد أن انضم الى الثورة ، ونودع عددا من المسئولين عن الحكم الذاتى وتمتلئ عينا أحدهم بتعبير يطغى عليه الحزن .

— عشت أياما فى مصر . .

للاكراد مشاعر قوية تجاه مصر ، فى سوق أربيل يتعرفون الى اللهجة المصرية بسرعة ، والعلاقات بين مصر والاكرد قديمة وموغللة ، صلاح الدين الأيوبى ، الكردى الأصل ، كانت مصر مقره ، ومنها هزم الصليبيين ، وفى شوارع الأزهر والغورية أصحاب متاجر أصلهم كردى ،

وفي سنة ١٨٩٨ صدرت أول جريدة كردية في مصر ، حتى صدور هذه الجريدة كانت اللغة الكردية لغة تحدث وشعر وليست لغة كتابة باستثناء كتابين صدرا في منتصف القرن التاسع عشر ، وهما « مولود نامه » للشيخ حسين القاضي . و « العادات والتقاليد الكردية » للملا محمود البايدي . لهذا أكتسب صدور جريدة (كردستان) أهمية خاصة في تاريخ اللغة الكردية وجميع أعداد هذه الجريدة محفوظة الآن في المكتبة الحكومية بمدينة (ماريوبك) بألمانيا الغربية .



في سوق اربيل القديم .
كنت أتجول في دروبه التي تبدو وكأنها لا تسرى في مكان ، إنما في قلب التاريخ ، بمجرد دخوله يتراجع الزمن بالإنسان مئات السنين ، وكأن آلة زمن خفية رحلت بك بعيدا عن سنيننا العصرية ، الطرقات مسقوفة ، والدكاكين مفتوحة بدون حاجز (بنك) ، إنما أرضية الدكان تمتد حتى مقدمه ، مرتفعة قليلا عن الأرض بما يشبه المصطبة ، وعند مقدمتها يجلس صاحب الدكان بزيه الكردي التقليدي ، أو التركماني ، أو العربي ، بينما تصطف البضائع حول جدران المتجر ، كل جزء من السوق يحتوي على نوعية معينة من المعروضات ، هذا للقماش ، هذا للجلود ، للابسطة ، للحبال ، تبدو الطرقات وكأنها صيغت من سنوات قديمة ، كل منها يؤدي إلى الآخر ، متشابكة متداخلة ، متصلة كالزمن ، أحجام الدكاكين تحددت بعناية ، لم يحدث اتفاق على أن تصبح كلها محدودة بحواف نظيفة رائعة ، ولكن جاءت هذه العفوية في البناء فأضفت على المكان رونقا ، كان تتابع الدكاكين وتواليها كتقاسيم حلوة ، هادئة من آلة القانون ، تحرك حيننا وشجنا خفيا موصولات بالأيام البعيدة . في قلب السوق بناء يشبه (الوكالة) (١) مسقوف ، وبالسقف فتحات تؤدي إلى زرقه السماء ، غير أن الضوء يصل هنا خاليا من عكارة الأيام ، وهموم الانسان ، فكان ماء الورد جرى في العروق بدلا من الدماء ، حول فناء الوكالة ذلك حجمها يغرى بالجلوس اليها ، واغماض العينين ، أو التطلع إلى الجدران الرمادية ، والبوح اليها بما يظني ، وبما يفعل الانسان للانسان ، وحرب الأخ ضد أخيه ، وحول الفناء رصيف يحف الجدران ، أما لون الأرض الرمادي الحنون فيوحى وكأنه يرش بانتظام من أيد خفية تخدم المكان ، بين الحين والآخر يمر عبر الطريق الضيق رجل منجن حتى يكاد بلامس رأسه الأرض ، وكأنه لم يظهر من دروب، السوق ، إنما من إحدى ليالي ألف ليلة وليلة ، صورة حية لحمال بغداد الشهير ، وترى رجلا عجوزا ينوء بأثقل الأحمال التي يعجز عنها شاب في مقتبل العمر . لكنها الخبرة والجهد البشري الذي يتغلب على كل شيء ، يقطع فناء الوكالة شاب تركماني خرج من دكان يستخدم كمقهى لا يجلس أحد بداخله ، طبيعة المكان لا تسمح

١ - الوكالة تسمى في العراق « الفلوة » .

بلعب النرد أو الطاولة ، أو الورق • صيغ المقهى البسيط للتأمل ، أما الصينية المستديرة التي يحملها الشاب ، والتي يستقر فوقها عدد كبير من الأكواب الصغيرة نحيلة الخصر والتي يسمون الواحدة منها في العراق (استكان) فتبدو بمشروب الشاي الأحمر الذي تحويه وكأنه مشروب رائق ، ينهي زحف الزمان الذي توقف على مدخل السوق ، من أحد الطرقات المسقوفة يتفرع طريق ضيق ، سقف نصف دائري على جانبيه متاجر للسجاد ، والإبسطة . على نهاية الطريق فتحة مستديرة تؤدي الى الخارج . وبدا الضوء متوهجا ، وكأنه نيران تملأ فوهة فرن ، لا يغرى بالخروج من السوق ، لرائحة الفراغ ايقاع خاص ، وكأنه بهو أنيق أغلق على ما فيه من تحف أنت من كافة انحاء الدنيا ، وحشايا وثيرة ، واستمر مغلقا مئات الاعوام ، ثم فتح فاذا بالنافورة التي تتوسطه لا تزال ترسل ذوائب الماء ، رائحة كأنها تنتشر في مقام ولي ، بها رهبة ، وتجبر على تأمل عميق ، وقع الايام والسنين لم يدركا سو اربيل القديم ، السوق المتسامح الرقيق ، وكان كل قراهه كتب عليه بحروف خفية ، « والتين والزيتون وطور سنين ، وهذا البلد الامين » مشيت في هذا الديكور الحي لالف ليلة وليلة ، أيام ابن اياس والجبرتي ، وما شاهده بن جبر ، وابن بطوطة ، نظر الى صاحب متجر كل شعيرات رأسه بيضاء ، أيام تجمدت ، أمام متجر قماش تطلع الى رجل على ابواب الخمسين ، وبدت جلسته المتوقعة وكأنه يحتمى بالسوق والدكان من مجيء الزمان ، يبدو انه اصغى الى حوارى مع زميل الرحلة .

— هل انت مصرى ؟

— نعم . .

وابتسمت بينما المكان يلغنى باطار من القدم ، قال على مهل :

— وتساءلت عيناي ، اجاب بسرعة :

— الى مصر . . سأحضر في سبتمبر القادم . . وأزور القاهرة . .

والاهرامات .

صمت لحظة ، خيل لى ان جلسته ازدادت تقوقعا ، ذكرنى بالرجال الذين ينحنون على مخارطهم اليدوية فى خان الخليلي ، يصوغون الحلوى والقلائد من العاج ، والمرمر ، والبلاستيك .

مددت يدي محييا ومصافحا ، وعندما مد يده ، ظل فى جلسته المتوقعة لم يقم ، واكتشفت انه قعيد ، فى هذا المكان النائي يحلم بالسفر ، والرحيل الى مصر ، وجاءت اللحظة التي غادرنا فيها السوق ، هجرنا البلد الامين ، والزمن الرائق ، الى الضجيج والسيارات ، والأيدى المسكة بالسلاح ، والصراع .

فى المساء تبدو اربيل عصرية تماما . تسطع الأضواء ، وتوهج آلاف المصابيح ، وفى الطرقات الفسيحة الممتدة فى ضواحي المدينة تنطلق السيارات بأنواعها المختلفة ، وعلى الجانبين تقوم البيوت الحديثة ، كل منها تحيطه حديقة ، وسور يتوسطه باب مغلق ، ومن خلال النوافذ المظلة على الطريق والمغطاة بستائر مسدلة تتوهج أضواء الأنستقرار الاسرى ، هذه

المصاييح التي تضيء فوق أفراد اسرة تجمعت لتتناول عشاء أو أصحاب يتسامرون ، وتنطلق بنا السيارة الى خارج اربيل ، ويبدو الليل فسيحا ، ظلامه لا تخفي الفراغ المنطلق في السهل ، نمضي للقاء أحد الضباط الذين شاركوا في حرب اكتوبر ، بقدر ما تنكشف ابعاد القضية الكردية كلما مضى بنا الرحيل عبر الشمال ، كلما بدأ يتكامل دور الجيش العراقي في حرب اكتوبر فالرجال الذين حاربوا على الجبهة السورية ، هم الذين يحاربون ضد القيادة الكردية العملية ، وفي هذه المناطق النائية التي قد تبدو بعيدة عن الجولان يواجه المقاتلون العراقيون ، ضباطا اسرائيليين يعملون مع الملا ، اما لتدريب العصاة على الأسلحة التي زودتهم بها اسرائيل ، أو للقيام ببعض النشاطات التخريبية الخاصة ، وتلك يشرف عليها ضباط مخبرات اسرائيليين يقيمون في (كلاله) معقل الملا ، وهكذا تمثل الحرب التي خاضها الجيش العراقي في الشمال صورة أخرى من حرب اكتوبر ، ومع الليل ، وبتأثير الجو التاريخي الذي يشع في اربيل حتى في احيائها الحديثة ، استعرض بمخيلتي عشرات الضباط الذين التقيت بهم حتى الآن ، ومئات الجنود الذين يشكلون قوام الجيش الوطني العراقي . أن الخلفية التاريخية للجيش تدخل في التكوين النفسي ولحضاري للمقاتلين واذ يتطرق الدهن الى تاريخ الجيش العراقي يجب ان يفصل بين حالتين : الحالة الاولى ، وتناول المواطن العراقي كمقاتل ، والحالة الثانية وتختص بالمواطن العراقي كمقاتل في الجيش النظامي ، الحالة الاولى تحتل العديد من الدارسات النفسية والاجتماعية والحضارية والتركييب القبلي للعراق ، والطوائف ، والأقليات والصراعات السياسية التي كانت تتخللها الحروب دائما ، والحروب التي دارت فوق أرض العراق ضد الغزاة الخارجيين عبر العصور المختلفة والحروب الداخلية ، والثورات المسلحة ضد الحكومات الأجنبية والرجعية ، أما الجيش العراقي فنستطيع ان نعود مع تاريخه الى البداية بالتحديد في سنة ١٩٢١ ، لقد جاء ميلاد الجيش بعد ثورة العشرين التي اشتعلت ضد الانجليز والتي فشلت بسبب قوة الاستعمار البريطاني وقتئذ ، وتحالف القوى الرجعية معه لكن هذا الفشل لم يكن يعني أن آثار الثورة قد حثت تماما . لقد تشكلت حكومة الاستقلال وكان عليها أن تنفذ عدة مطالب شعبية قم مطلعها تشكيل جيش نظامي يكون دعامة من دعائم الاستقلال ، وهذا الشعار منشق من ثورة العشرين ، وبالفعل تأسست وزارة الدفاع ، وعين الفريق جعفر العسكري أول وزير لها . تولي مهام منصبه في ٦ يناير (كانون أول) ١٩٢١ ، وبعد استكمال تشكيل دوائر المقر العام بالاستعانة بقسم كبير من الضباط العراقيين الذين خدموا في الجيش العثماني ثم صدر نظام التطوع اعتبارا من ١ بونيه (حزيران) ١٩٢١ ، ونص على أنه يجوز لكل عراقي تتراوح عمره بين ١٨ ، ٤٠ سنة التطوع في الجيش ، وتشكلت في نفس الشهور دوائر التجنيد ، وأقبل عدد كبير من المجاهدين العراقيين وأدى هذا الى تحديد مبدئي لطبيعة تكوين الجيش .

وعلم المستوى العربي والعالمي ، جاء ميلاد الجيش في ظرف الثورات الوطنية التي اجتاحت العالم العربي ضد الاستعمار بعد انتهاء الحرب العالمية

سنة ١٩٢١ تم في ثكنة الخيالة (التي سميت فيما بعد بالثكنة الشمالية)
اكتمال ٢٣٤ جنديا متطوعا ثم جاء عدد آخر من المتطوعين حتى اصبح
بالامكان تشكيل الفوج الاول في بغداد خلال يوليو ١٩٢١ . وعندما ازدحمت
ثكنة الخيالة بالمتطوعين وضاقن عن استيعابهم استؤجر (خان الكابولي
في الكاظمية . نقل الفوج اليه في ١٧ اغسطس (آب) ١٩٢١ ، بدأ الجيش
يتوسع ويتزايد عدده ونتيجة لهذا بدأت الدولة تتحمل تكاليف باهظة ،
من هنا صدر قانون التجنيد الالزامي في ١٢ يونية (حزيران) ١٩٢٥ ،
بعده أعيد تنظيم الجيش على هيئة فرق ، تم تشكيل الفرقتين الأولى
والثانية بتاريخ ١٥ ابريل (نيسان) ١٩٣٦ الأولى في بغداد ، والثانية في
كركوك ، وفي اول أكتوبر (تشرين اول) ١٩٣٨ تشكلت الفرقة الثالثة
(اشتركت الفرقة بأكملها في حرب أكتوبر ١٩٧٣) ، وفي يناير ١٩٤٠
تشكلت الفرقة الرابعة في الديوانية ، وفي سنة ١٩٤١ تشكلت أول كتيبة
مدرعات وكانت مزودة بسيارات شيفروليت وتسليحها رشاشان متوسطان
وفي سنة ١٩٣٣ تأسس سلاح المهندسين وفي عام ١٩٦٤ انشئ سلاح
الحرب الكيماوية ، أما المظليون فيرجع تاريخ انشاء وحداتهم الى منتصف
عام ١٩٥٦ والصاعقة في ابريل ١٩٦٤ أما سلاح الطيران العراقي فقد تكون
في سنة ١٩٢٧ عندما اوفدت أول بعثة طيارين عراقيين ، وفي أكتوبر
١٩٣٧ وصلت الى العراق سفينتان حربيان كانتا النواة للقوة البحرية
العراقية .

في سنة ١٩٤١ قامت حركة وطنية استهدفت الحكم الملكي والوجود
الانجليزي ، وعد الانجليز بالاستجابة لمطالب الجيش لكنهم نقضوا وعدهم
وانقضوا عليها ، واعدوا قادة الثورة في مايو (ماي) ١٩٤١ وطاردوا
الباقيين وكان تغلب الانجليز يرجع الى تفوقهم في السلاح والمعدات وعدد
الأفراد . وفي سنة ١٩٤٨ دخل الجيش العراقي حرب فلسطين ولعبت
وحدات الجيش دورا كبيرا في الحرب ، وعلى المستوى الفردي ،
والوحدات القتالة اظهرت بطولات فذة ولكن حجم الهزيمة كان شاملا بالنسبة
للجيوش العربية كلها ، وفي سنة ١٩٥٢ حدثت انتفاضة شعبية وفي ١٩٥٤
ثار الشعب ضد حلف بغداد ورفض الجيش اطلاق النار على المتظاهرين -
تنفيذا للاوامر الصادرة اليهم من القصر الملكي . وفي السنوات التالية .
بدأ تنظيم الضباط الاحرار الذي سار جنبنا الى جنب مع الجبهة الوطنية ،
حتى تفجرت ثورة يوليو تموز ١٩٥٨ ، وأطاحت هذه الثورة بالحكم الملكي ،
والاحتلال الانجليزي ، وفي فبراير (شباط) ١٩٦٣ التحم الجيش بالشعب
بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي فأسقط حكم عبد الكريم قاسم
الديكتاتورى . وفي ١٧ يوليو ١٩٦٨ اشترك الجيش في الثورة ضد الحكم
الرجعي الفردي مرة أخرى وبقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي ، ومنذ
هذا التاريخ وهناك خطة موضوعة لتطوير الجيش العراقي في اطار شامل
بحيث يصبح جيشا مقاتلا على أحدث الاساليب القتالية العصرية . شمل
هذا التسليح الذي اعتمد على مصادر متعددة وأساليب التدريب والتوسع
في القاعدة العددية حيث انشئت عدة فرق جديدة وتشكيلات حديثة

مختلفة ، أصبح الجيش العراقي يعتبر الثاني في الترتيب من حيث تعداد الجنود والضباط بعد الجيش المصري في المنطقة . من ناحية اخرى بدلت الثورة جهدا كبيرا الجيش ، وفي هذا يقول التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث :

« وقد واجه الحزب والثورة منذ اليوم الاول للثورة وبصورة ملحّة جدّاً مهمتين اساسيتين .

الأولى : تعزيز قيادة الحزب للجيش جنبا الى جنب مع تطهيره من العناصر المشبوهة والتأمرة والمغامرة . ونشر مبادئ الحزب والثقافة القومية والاشتراكية العامة بين منتسبيه . ووضع الأسس والضوابط المبدئية والعسكرية التي تمكنه من تادية واجباته على اكمل وجه وتحصينه ضد الانحرافات والمنزلقات التي ارتكبت باسمه . في العهدين القاسمي والعارفي « زمر » الارستقراطية العسكرية .

« وضمان التخامه الكامل بالحركة الشعبية التي يقودها الحزب واسهامه الفعال والصحيح في البناء الثوري » وفي تادية المهمات الوطنية والقومية .

والثانية : هي القضاء على أوضاع التخلف والفوضى التي نشأت في الجيش خلال العهود الماضية ، وتنظيمه على أسس علمية حديثة وتطوير أساليب تدريبه وتعبئة قدراته النضالية والفنية ، وزيادة تشكيلاته وامتداده بأسلحة ومعدات قوية وحديثة . . كى يتمكن - وعلى افضل وجه - من تادية واجباته المقدسة في الحفاظ على وحدة البلاد ودرء العدوان الخارجى . والاسهام الفعال في المعركة القومية ضد العدو الامبريالى الصهيونى .

وكما سبق أن تحدثنا في الفصول الماضية فان الظروف الموضوعية البالغة التعقيد والخطورة التي رافقت مسيرة الثورة وبخاصة في مراحلها الأولى منها عبر مسيرة طويلة ومعقدة جدا ، تم خلالها موازنة الكثير من الاعتبارات الدقيقة واعتماد شتى الصيغ حتى تمكن الحزب من انجاز القسم الأكبر منها بنسب عالية من النجاح .

أن اتباع هذا الأسلوب في تنقية الجيش من العناصر المتأمرة والمشبوهة وبنائه على أسس ثورية كان مسألة حتمتها ، في الظروف الموضوعية الخاصة بالثورة وبالقطر العراقي وبالمطقة . كما حتمتها ، في الوقت نفسه ، ظروف العصر الراهن ومتطلباته . . لذلك فان الحديث عن « حل الجيش القديم » وبناء جيش ثورى جديد أو التسرع في اجراء تغييرات واسعة النطاق في الجيش يبتعد كثيرا عن التقديرات العلمية والموضوعية ، لا يعبر عن موقف ثورى جاد كما ينطوى على مجانية كبيرة لمستلزمات تحقيق الغرض المنشود .

فعندما قامت الثورة كانت حالة « شبه الحرب الأهلية » قائمة في البلاد بسبب الأوضاع في المنطقة الشمالية ، وكان جزء من الجيش العراقي يعسكر في الجبهة الشرقية في الأردن . وكانت الظروف العربية تلح الحاحا شديدا على زيادة عدده هناك ، حتى بلغ تعداده أكثر من خمسين ألفا .

وقبل أن تجتاز الثورة السنة الأولى ألغت الحكومة الإيرانية معاهدة عام ١٩٣٧ ، و خلقت حالة تهديد عسكري جديد وخطر على حدودنا الشرقية .

وبالإضافة الى هذه الظروف التي تستوجب تصرفا خاصا والاستعانة باكبر قدر ممكن من كوادر الجيش رغم عدم تطابق مواصفات البعض منها وهويتها مع تصورات الثورة ، فان طبيعة الجيوش العصرية وطبيعة أسلحتها وأساليبها تختلف اختلافا شاسعا عن طبيعة الجيوش في المرحلة الأولى من هذا القرن ، ابان اندلاع الثورة الروسية وأستمرار الثورة الصينية على سبيل المثال ، فبينما كان السلاح الرئيسي لتلك الجيوش هو البندقية التي لا يتطلب التدريب عليها سوى بضعة أيام أصبحت أسلحة الجيوش المعاصرة متنوعة كالطائرات والصنّف المدرع والمدافع وأجهزة الرادار وغيرها من الأسلحة والمعدات المعقدة وذات المستوى التقني العالي ، لذلك فانها تتطلب سنوات عديدة كي يحسن الضباط والجنود استعمالها .

ويجب أن نأخذ بالاعتبار - إضافة الى ما ذكرنا - حقيقة مهمة وأساسية أخرى في هذا الصدد هي صغر رقعة العراق الجغرافية قياسا الى رقعة كالاتحاد السوفيتي أو الصين .. وتحتل هذه المسألة أهمية استثنائية في ظل العصر الراهن ، بما يتميز به من أسلحة متطورة بعيدة المدى ومن وسائل مواصلات سريعة جدا .. كما تشكل خطورة كبيرة على أمن البلاد اذا ما بقي جيشها ضعيفا فترة طويلة من الزمن .

الطريق الواقعي

لذلك كان اعتماد أسلوب المراحل والنفس الطويل في إعادة بناء الجيش بناء قويا متينا هو الطريق الواقعي الوحيد امام الحزب وقد حتمته الحقائق والمستلزمات التي أشرنا اليها ، كما ان طبيعة التحالفات التي كانت قائمة في المرحلة الأولى من الثورة والتي سبق الحديث عنها كانت من التي أخرجت عملية تطهير الجيش في الأشهر الأولى لقيام الثورة بينما كانت مؤامرات الجيوب المشبوهة والزمزيم المغامرة في داخل القوات المسلحة من العوامل التي أسرعت في هذه العملية . أن هذا الطريق الواقعي والثوري معا الذي اختاره حزب البعث العربي الاشتراكي حقق نجاحا منقطع النظير ، لم تبلغه من قبل تجربة ثورية عربية .. أو اية تجربة مماثلة في العالم الثالث .

ان الأسلوب الذي اتبعه الحزب خلال السنوات الماضية في تنقية الجيش من العناصر المشبوهة والمتآمرة والمغامرة ، وبناء تنظيم حزبي طليعي واسع وفعال بين صفوفه قد حقق نجاحا اشراف قيادة الحزب منظمة الحزب المختصة بالعمل داخل الجيش تحت اشراف قيادة الحزب دورا طليعيًا في انجاز هذه المهمة ، وعبر رفاقنا العسكريون عن أعمق وأوفى ممارسات الانضباط الحزبي والولاء للحزب ، وأشاعوا في الجيش تقاليد الطاعة لقيادة الحزب والثورة ، وبدلوا نشاطا فكريا وتنظيميا واسعًا لدعم منظماتهم الحزبية في داخل الجيش ونشرها فيه على أوسع نطاق ..

فأصبح للحزب اليوم منظمة حزبية طليعية ونشيطة تشغل بالتضافر مع ضباط الجيش وجنوده الوطنيين ذراع الثورة الضاربة وعينها الساهرة على أرض الوطن ومكتسبات الشعب .

وفي الجانب الآخر . . قطع الحزب والثورة اشواطاً بعيدة على طريق تنظيم الجيش على أسس علمية حديثة ، وتطورت فيه خلال السنوات الماضية أساليب التدريب كما ارتفعت قدراته القتالية وتطورت وسائله الفنية ، ويمتلك جيشنا - الآن - أسلحة تعد من أقوى الأسلحة العسكرية وأحدثها ، وفي جميع الصنوف . كما اتسعت تشكيلاته عن ذي قبل اتساعاً كبيراً ، ان نسبة التطور في هذا الميدان كانت خلال المرحلة الماضية عالية ، وان الجهود الحثيثة تبذل باستمرار لاحتراز المزيد من التقدم . . ويمكننا اليوم أن نفخر بأن لنا جيشاً وطنياً قوياً قادراً على تأدية مهماته . وفي سنة ١٩٧٣ ، شارك الجيش العراقي في حرب أكتوبر ، وظهر بوضوح مدى ما يمثله من ثقل عسكري وقتالي ، عندما توجهت وحداته الحديثة الى الجبهة الشمالية وبالتأكيد فان الأساليب التي اتبعت في تنمية الجيش وتطوير تسليحه ، ومستواه القتالي ، قد أتاحت له الفرصة للاشتراك في حرب أكتوبر بهذا الحجم وتأديته لذلك الدور الذي مكنه من خوض معركة الانتقال من بغداد الى دمشق ، ثم الاشتباك فور وصوله بالوحدات الاسرائيلية وصد هجومها ، وإيقافه ، ثم دفعها الى الخلف . خارج مدينة أربيل بعدة كيلومترات ، وصلنا لالى مقر إحدى الوحدات العسكرية . هنا أحد الضباط الذين عاشوا الحرب ضد التمرد الرجعي في الشمال وشاركوا في حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

أكتوبر ١٩٧٣ :

اشتدت عليه آلام النقرس ، الوخز يؤلم ساقيه ، منحه الطبيب اجازة مرضية يوم ٢ أكتوبر ، وهكذا توجه الضابط وهو برتبة عقيد الى منزله ، عندما اصفى الى نيا الحرب من الراديو ، ارتدى ثيابه العسكرية ، ابدت زوجته قلقاً عليه ، لكن كان من المستحيل ان يبقى في الفراش والحرب قد بدأت ، تلك هي نفس اللحظات التي ينتظرها المقاتل ، يتحقق خلالها وجوده وذاته ، ويذكر الضابط انه منذ ان ارتدى الملابس العسكرية ، بدأ ذهنه بتوجه تماماً الى المعركة ، توارت الام النقرس الى خلفية المشاعر التي تؤثر فيه ، وبين الحين والحين ينتبه الى الوخز في مفاصله غير انه سرعان ما يتشغل عنه ، ودع زوجته وأطفاله ، ومنذ تلك اللحظة لم يروه الا بعد عودة القطعات العسكرية من الجبهة ، علم من نقطة السيطرة عند مدخل بغداد ان قائد الفرقة التي يعمل بها توجه الى سوريا مع بعض ضباط الاستطلاع ، ولحظة وصوله الى مقر الفرقة كانت الحركة في قماتها ، ان حركة فرقة مدرعة أمر يبعث على الرهبة ، عندما تهدر مئات الدبابات والعربات المجنزرة . فاذا اضفنا الى هذا الصخب الآلى المروع صياح آلاف الجنود وتلويح أيديهم ، فسنجد أنفسنا امام مشهد مهيب ، يحمل أولى سمات القتال ، بمعنى الاشتباك ، علم الضابط (. . . .) ان اللواء ١٢

(لواء خالد بن الوليد) قد اقترب فعلا من الحدود السورية ، وعلى الطريق رأى الفرقة الثالثة يقودها رئيس أركانها متحركة باتجاه الأراضي السورية . عندما علمت القيادة بقطع الضابط (. . . .) لإجازته واصراره على دخوله المعركة قررت اسناد قيادة إحدى الفرق المدرعة اليه ، دخلت الفرقة بغداد يوم ٩ أكتوبر ، نجيت التقى بها الرئيس أحمد حسن البكر والقيادة السياسية ، وكان الأهالي في الطريق ينتظرون ، بعضهم وقف ساعات ليودع ويلوح للجنود الماضين الى القتال .

كانت الأولوية المدرعة ، والميكانيكية تجيء من مختلف أنحاء العراق لتصب كلها في هذا الطريق الصحراوي الوعر ، حركة تذكرنا بمناجيع الأنهار وسريانها خلال المجاري النحلية التي تتدفق ، تتجمع ، حتى تصب في المجرى الرئيسي . على الطريق الرئيسي توقفت الفرقة قليلا يوم ١٠ أكتوبر . تمت خلال هذه الوقفة القصيرة إعادة التنظيم ، ثم استؤنف الاندفاع بالدبابات التي تسير على الجنزير ، تجرى على الرمال يمين ويسار الطرق ، وفوق الأسفلت تقدمت عربات النقل المحملة بالذخيرة ، والأغذية والمؤن ، والناقلات المحملة بالدبابات ، والى السماء تصاعد الغبار الناتج عن حركة الرمال تحت الجنازير ، الرؤية معدومة ، والكل يصفى الى الترايستور ، كل قائد لواء له الحرية التامة في اصدار الأوامر التي تؤدي الى تقدم اللواء بأقصى سرعة ، ان السرعة في الحركة لا تقاس فقط بالمسافات المقطوعة ولكن بزج أكبر عدد ممن من الوحدات في أقصر وقت ممكن ، وعبر التاريخ كانت جيوش بأكبر عدد ممكن ، كأقوى القوى العسكرية التي حققت أعلى معدل للحركة بأكبر عدد ممكن ، طبعا بوسائل عصره ، وعلى الطريق أيضا كانت تمرق سيارات مدنية عديدة تحمل ضباطا قطعوا أجازاتهم وأسرعوا بسياراتهم الخاصة ليلتحقوا بوحداتهم التي أصبحت على مسافة كبيرة في اتجاه الجبهة السورية ، وقرب الحدود كان بعض الضباط والجنود يغيرون ثيابهم المدنية التي جاءوا يرتدونها عندما تحركوا بسرعة قاطعين أجازاتهم - بملابسهم العسكرية ، عند وصول الضابط (. . . .) على رأس الفرقة المدرعة الى الرطبة ، علم أن اللواء ١٢ (خالد ابن الوليد) دخل المعركة فعلا لحظة وصوله ، في الرطبة ، فوجيء أيضا بأحد الضباط زملائه ، عندما علم في بغداد بمرضه ، جاء مسرعا ليلحق به ، وحتى يتولى القيادة بدلا عنه ، أو يعاونه ، كان متطوعا إذ أن موقع عمله في بغداد بوزارة الدفاع ، غير ان العقيد (. . . .) أصر على أن يواصل تقدمه ، آلام المرض اختفت تماما . قرب الحدود نبه على ضرورة اتخاذ وسائل الحماية ضد التهديد الجوي العادي ، غير أن سقوط الطائرات الاسرائيلية أصبح مشار تسليمة الجنود بعد وصولهم الى الجبهة السورية ، وذلك بفضل صواريخ سام .

أصبحت الفرقة تشكل جزءا من الاحتياطي العام للجبهة السورية وحدد لها واجب ضمن الهجوم العام الذي كان مقررا القيام به ، بعد عودة العقيد (. . . .) الى بغداد مع تشكيلات الجيش العراقي عاودته الآم

النقرس ، استئناف اجازته المرضية ، وبعد أن تماثل للشفاء جاء الى الشمال ، لقد عاصر الحرب خلال مراحل مختلفة بدءاً من سنة ١٩٦٢ ، طبيعة الحرب هنا تختلف بالنسبة له عن حرب أكتوبر ، الحرب في الشمال طويلة بسبب ظروف المنطقة ، وفي مراحلها السابقة كانت تشبه حرب العصابت ، التسليح خفيف ، والمتحمون بهم قليلون ، ومع الأسلوب الارتجالي تطورت الحركة أكثر حتى ثورة رمضان ١٩٦٣ ، في تلك السنة التقى الضابط (. . . .) بالملا مصطفى البرزاني ، أثناء المفاوضات كان الملا يدعى أنه لا يريد أكثر من حقوق المواطن العادي ، عندما اتضح له وجه الثورة الانساني والتقدمي بدأ يضع العراقيل ، وعندما وقع انقلاب نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٦٣ بقيادة عبد السلام عارف كان معظم الجيش يقاتل وقتئذ في اقصى المناطق الشمالية وأعلن عبد السلام عارف وقف القتال ، وهادن الملا ، وبعد ثورة ١٧ يوليو ١٩٦٨ ، كان هناك خيطان متعارضان في الواقع : خط الثورة الرامي الى تصفية المشكلة الكردية على أساس انساني وتقدمي وجذري . والخط الثاني اتبعه الملا ويهدف الى استغلال المشكلة لضرب الخطوات التقدمية لثورة العراق ، والانفصال ، يستطيع الضابط (. . .) ان يؤكد ان النسبة العظمى من الشعب الكردي تؤثر السلام ، يودون الاستقرار ، واستثمار اراضيهم ، والتخلص من عنف البرزاني وارهابه ، في المنطقة التي يسيطر عليها التشكيل الذي يقوده الضابط (. . .) تم تعمير عدة قرى خرجت من قبل واستقبال عدد كبير جدا من العائدين وتسكينهم ، وتقديم التعويضات اليهم ، ومناقشة البعض منهم ، ان التشكيل مسئول ايضا عن تأمين مدينة أربيل ، وخلال السنة الاخيرة يمكن القول انه لم تقع حوادث اعتيالي في المدينة ، وذلك لوعي المواطنين الاكراد ، وتصديهم للتمرد ، وللجراءات الصحيحة التي اتبعها الجيش في تأمين المدينة ، والتي روعي عند تطبيقها الجانب السياسي قبل الجانب الامني .

حادث واحد استطاع العصاة تنفيذه والقيام به ، في بداية سنة ١٩٧٥ عندما تسللت مجموعة منهم الى ضواحي أربيل ، وفي الليل قصفوا المدينة الآمنة المستسلمة للرقاد بستة عشر قذيفة هاون وتساقطت هذه القذائف فوق عائلة تسكن غرفة واحدة ، مات جميع افرادها سوى طفل واحد بترت ساقه . تبنته الثورة ، وأرسلته للعلاج في لندن كما دمر تاكسي يمتلكه أحد الأهالي واشتعلت النيران في أربعة بيوت . ترك هذا الحادث أثراً سيئاً للغاية في نفوس الناس ، بازدياد عزلتهم كانوا يلجأون الى المزيد من حوادث العنف الموجهة ضد الشعب الكردي نفسه . في الليل خرجنا من مقر قيادة لتشكيل ، ورأينا أضواء أربيل المتناثرة عند حافة الليل وكأنها دموع صامتة ذرفت أسفا على تلك الدراما الانسانية الحزينة والتي تقترب الآن من نهايتها .

● ● ●
ونستعد لمغادرة « أربيل » في الوقت الذي جاءت فيه اخبار

عودة مئات الاكراد المسلحين الى الصف الوطنى ، وفى التلفزيون الذى يبث ارساله من كركوك بالكرديّة ، راح المذيع يكرز بيان العفو الصادر من مجلس قيادة الثورة عن الذين اشتركوا فى اعمال مسلحة ضد الجيش والثورة ، فى الصباح كان النهار يسطع بضوء صاف ، وبدت السماء زجاجية شفافة ، وفى احد الاماكن الفسيحة تجمع عدد كبير من الاكراد المسلحين ، انهم افراد حرس الحدود ، وهم تشكيلات مسلحة كردية تقاتل فى صفوف الثورة ، وكان عدد من التلاميذ يتجهون الى مدارسهم ، بعضهم يرتدى زيا أفرنجيا ، والبعض يرتدى الزى الكردى ، التقليدى ، وفى أحد شوارع المدينة رأيت عجوزا انحنى ظهره يعلق الى رقبته صندوقا صغيرا فيه علب سجائر ، يبيع السجائر اما فرادى او عليا مغلقة ، وكان ايراده الضئيل متناثرا فوق أرضية الصندوق ، قطع نقدية صغيرة مستديرة . وفكرت ان امد يدي بقطعة نقدية ، ان مرأى الشيخوخة فى بحثها الدعوب عن لقمة العيش يؤلم النفس ، ولكن صديقا كرديا حذرني ، لن يقبل العجوز الكردى صدقة ، سيعتبرها اهانة له ربما ردها بسرعة الى موجهها ، ربما كان هذا العجوز قد انجب ابناء بعضهم يحتل وظائف مرموقة ، او يعيش فى يسر من المال ولكنه يأبى الهجوع الى الراحة ، يواصل عمله كجزء من احترامه لنفسه ، أن الاكراد يحترمون الشيخوخة وكثيرا ما يلجأ بعض التجار الى اعطاء رجل عجوز مبلغا ليحملة معه عبر الجبال ، فقطاع الطرق ، واللصوص لا يمكن أن يهاجموا رجلا عجوزا يسير بمفرده ، أمام الفندق رأيت الكردى الصغير ماسح الأحذية ، ابتسم لنا صافحته وسألته عن المدرسة التى يذهب اليها ليلا ، والأهل المقيمين على البعد ، عندما ابتعدت السيارة التفت الى الخلف ، كان يلوح لنا بيده اليمنى بينما راحت اليسرى تحكم الكوفية التى لف بها رأسه ووجهه لتقيه الهواء البارد الذى تخال تلك الأيام الربيعية ، عند المنحنى اختفى بناء الفندق ، والصبى ، وكنت أعرف أنه بعد دقائق ستختفى اربيل وسيصبح كل ما رأيناه فى حسان وتاتان وحوض راوندوز وكلى على بك والصراع مدرجا فى طابور الذكريات ، طابور أبرز ماقيه وجهه الصبى الكادح .

المحور الخامس
السليمانية

.. بدت « السليمانية » عند اقترابنا منها كعدراء جميلة تطوقها الجبال ، وضباب شفاف ، وعند مدخل المدينة من ناحية الطريق الذي تصلها بكركوك ، توقفنا أمام الفندق الذي سنقيم فيه ، يرتفع لمسافة أربعة طوابق ، يعتبر من الابنية العالية في مدينة معظم بيوتها من طابق واحد أو طابقين ، أمام مدخل الفندق الزجاجي استقرت عربة مردعة ضولها بعض جنود الجيش العراقي ، ومقاتلون أكراد مسلحون . لاحظت أن المدفع الرئيسي في برج العربة بدون غطاء القماش الذي يكتم به عادة في فترات الراحة ، أو استبعاد احتمال الخطر ، دخلنا البهو ، بدا خاليا ، تلفتنا حولنا ، لم نجد موظف الاستعلامات أو أحدا من الخدم ، وبجانب مكتب الاستعلامات رأينا باب المصعد ، وكانت دائرة الضوء الحمراء الصغيرة تشير الى أنه يقف في الدور الثالث والى الجدار علقنا المفاتيح الى تابلوه من الخشب قسم الى مربعات صغيرة ، كل المفاتيح موجودة ، عدا ثلاثة مربعات صغيرة خالية ، قطعنا البهو الى صالة الطعام . في الجهة اليسرى من البناء ، اصطفت الموائد ، حول كل مائدة أربعة مقاعد ، عدا منضدة مستطيلة في المواجهة حولها ثمانية مقاعد ، وناحية الطريق استقر عدد من المقاعد الوثيرة ، صف بعضها في مواجهة التلفزيون الذي لم يظهر لأن غطاء الدولاب الخشبي كان مسددا ، على طول الجدران انتشر عدد كبير من أواني الزهور الخشبية . وابعاجورات خشبية ملونة . والسليمانية شهرة خاصة في صنع هذه التحف الخشبية الدقيقة ذات الطابع الخاص ، في الجدار الممتد بعرض الصالة لوحة كبيرة منقطة بقماش صناعي خفيف شبيه بالنايلون ، يكشف المنظر المصنوع من الخشب ، ويمثل فتاة كردية جميلة ترتدي ثوبا طويلا ، وتجلس الى مقعد قصير بدون مسند ، وبين يديها مقزل يدوي تتدلى منه خيوط الصوف ، والى جوارها وقف شاب في الشباب الكردية منحنا عليها بحنان ، وخلفية المشهد جبال عالية يتخللها شلال مياه يتدفق صامتا . وعندما نتلفت حولنا لم نجد أحدا .

صفقنا بأيدينا ، وعدنا الى البهو ، ورن جرس التليفون طويلا لم نرفع السماعه ، ولاحظت أن الرقم الصغير الموضح في الدائرة الحمراء المضيئة على باب المصعد قد تبدل ، ٣ - ٢ - ١ ، خرج رجل قصير ، يرتدي ملابس افرنجية ، هز رأسه مبتسما ابتسامة ضيقة وقال انه يشرف على تنظيف بعض الحجرات ، وانه لا بد ان يتابع بعض الأمور بنفسه ، ودار ليقف خلف مكتب الاستعلامات وبدأ يقوم بهذه الاجراءات التقليدية المعتادة التي تتم في كل فنادق العالم ، تدوين الاسماء بالاطلاع على البطاقات الشخصية ، أو جوازات السفر ، ثم تناول المفاتيح من الحائط وتسليمها الى النزلاء ، صعدنا بحقائبنا الى الطابق الأخير وبعد أن تأملنا الغرف ، قررنا ان ننام في غرفة واحدة ، كان من الواضح أن الفندق يعيش ظروفًا غير عادية ، وبرغم ارهاق الرحلة الطويلة التي قطعناها بالسيارة الى اربيل مرورا بكركوك الى السليمانية ، إلا أن لحظات اللقاء الأول بمدينة جديدة لا أحب ان اقضيها في فندق ، أو بين جدران غرفة التماسا للراحة ،

الانطباع الأول عن المدن يترك أثره في النفس مدى العمر ، ثم متى سأعود ؟ ربما ينقضي العمر ولا أرى البيوت والملاح مرة أخرى ، اذن يجب ان أعيش كل لحظة أقضيها هنا ، النوم أقل وقت ممكن والحركة في أوسع مكان ، ولقاء أكبر عدد من الناس ، راح موظف الفندق يعتذر عن عدم وجوده ، وقال لنا ان الفندق ينزل فيه عدد من الاساتذة المصريين الذين يدرسون بجامعة السليمانية منذ انشائها وانهم يقضون النهار كله في الجامعة ، وحوالي الساعة السابعة يجيئون ويسهرون في البهو ، او في حجراتهم ، اسندنا الحقبائب في الحجرة ، وعدنا الى المصعد ، لنخرج الى «السايمانية» . طوال الطريق من كركوك الى السليمانية ، حيث تكشف الطبيعة عن لوحات رائعة متكاملة من الجمال الحى الأخاذ كنت افكر فيما سمعناه عن السليمانية ، ان أكثر نسبة من الاغتيالات وحوادث الخطف وقعت في هذه المدينة التى ترقد بين الجبال ، وتذكرت وصف الميجرسون البريطانى الذى عاش بها متخفيا فى بداية القرن ، عند مغادرته لها :

وأرسلت نظرتى الأخيرة الى السليمانية فشهدت أكدا سامن سقوف مسطحة فى هبطة من الأرض لا سبيل الى رؤيتها من مسافة ميل تقريبا ، واللقد أخفى الباشوات المقدامى بلدتهم جيدا كيلا تقع عليها عيون الترك أو الكرد على حد سواء « (١) .

بيوت السليمانية أكثر ارتفاعا اليوم مما كانت عليه وقت ان وصفها ميجرسون ، لكنها حتى الآن لا تفصح عن نفسها للمقرب منها الا على مسافة كيلو مترين أو أقل ، فجأة تبدو ملفوفة بالجبال فى المنخفض ، تظللها الجبال ، سمعنا عن حوادث اطلاق النار المفاجئة فى السوق ، وتسلسل بعض التمردين الى الشوارع الرئيسية والقائهم القنابل ، وبالطبع علمتنى التجربة ان ما يروى فى مثل هذه الظروف يكون مبالغا فيه الى حد كبير ، لكن بالتأكيد هناك أساس لهذه الاقاويل والحكايات ، وكان لمنظر المدرعة الرابضة أمام الفندق ، ثم البهو الخالى وذلك الجو الغريب الذى ضاعف الشتاء الجبلى من رهبته تأثيره بالطبع « ن السليمانية تقع فى حوض الجبال ، والتسلل اليها عبر الدروب والممرات أمر سهل ، ثم ان النسبة العظمى من سكانها اكراد ، ولأن العصاة الذين طلغوا الجبل ينتمون بصلات القربى والدم الى أهالى المدينة ، لا يخلو الأمر من أم تأوى ابنها ليلة ، أو اب نخفى القربى يومين ، وخلال هذه الليلة ، أو الفترة التى يقضيها الابن النازل من الجبل اما خلالها مهمة تتعلق باغتيال شخصية ، أو القيام بعمل يستهدف الازعاج ، والجيران عادة لا يخررون عن الابن القادم من الجبال ليقيم يوما أو يومين ، أما بدافع انساني ، أو لأن أحد اقاربهم سيأتى فى ليلة ما ، ومما شجع بعض العصاة على القدوم أحيانا الى المدينة ان الجيش لم يتعرض كثيرا للاكراد عند نقاط التفتيش ، عندما تاتى سيارة تستقلها عائلة كردية فان الجنود يتركونها

١- رحلة متكرر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان ميجرسون.

فورا ، لا يتعرضون لها ، وكما قال أحد الضباط ، جئنا لا لنهين البشر ، وبالطبع استغل العصاة هذه التصرفات ذات الطابع الانساني من الجيش لتهريب المعلومات ، أو الأشخاص ، ولكن الاصرار على السلوك الانساني كان يحدث جانبه العميق عادية ، خاصة اذا ما تذكرنا تلك الحوادث التي تقع في المدن الكبرى بأنحاء مختلفة من العالم ، السليمانية تحتل موقعا خاصا بالنسبة للاكراد ، وكان المتمردون يعلقون على الاحتفاظ بها آمالا كبيرة ، وحرصوا على تحقيق هذا بغرض هدفين : الاول لما تتمتع به المدينة من موقع في تاريخ النضال الكردي ولأنها تعتبر مركز الاشعاع الفكري الكردي ، ولأن معظم الحركات السياسية بدأت منها ، كما أن معظم المثقفين الاكراد الكبار من ابناء السليمانية ، بالإضافة الى ما يحدثه التمسك بالمدن من دوى اعلامي على المستوى العالي ، أما الهدف الثاني فمسكري اذ أن الاحتفاظ بها يمكنهم من السيطرة على المحافظة كلها ، وعندما بدأوا تنفيذ الخطة العسكرية في ابريل ١٩٧٤ والتي تستهدف تحقيق الانفصال بكرديستان نهائيا عن العراق بادروا الى احتلال قمم الجبال المحيطة بالمدينة ، وأهمها جبل أزم (كويجه داغ) ويبلغ ارتفاعه (٧٠٢ مترا) . ويرتفع الى الشمال الشرقي من مدينة السليمانية ، ويخترقه طريق السليمانية - جوارته ، وجبل سريند (١٤٦٥ مترا) ثم سلسلة جبال بازبان ، التي تبدأ زرده (٧٧١) مترا ، ثم تمتد في حافة ضيقة مكونة جبال (قره داغ) (٧٠٦) مترا ويخترق جبل بارزيان دربندی خان بارزيان (مضيق بارزيان) ويمر به طريق السليمانية - كركوك ، وهذا الممر يحفه الجبل من الناحيتين اليمنى واليسرى ، ويبدو ظهر الجبل مقوسا وكأنه غابة من الأسنة والحرايب حيث تتخذ الصخور فوقه اشكالا مديبة حادة ، دارت معارك شديدة في هذا الممر ، حتى تمت السيطرة عليه من قبل الجيش ، وتأمين ممر جبله هنا لا يعني التوقف ، كل ممر يفضى الى ممر آخر ، ربما أصغر منه ، أو أكبر ، لكن المضائق المعروفة التي ذكرناها هي الصعبة والوعرة ، وتوجد بالقرب منها عدة مضائق أخرى ، على سبيل المثال يوجد في اربيل الى جانب مضيق (كلى على بك) عدة مضائق أخرى صعبة ، منها مضيق سبياك ، ومضيق بله سير بن ولكن اذا ذكرت كلمة المضيق هنا فهي تعني (كلى على بك) وحده وكأنه لقب الأسرة ، ويمثل هذا عناء اضافيا على الجهد العسكري المذول ، استمات المتمردون في الاحتفاظ بقمم الجبال المحيطة بالسليمانية ، أزم ، وقره داغ ، وقره البدابة مركز الجيش على تطهير أزم بسبب احاطته بالمدينة وتأثيره المباشر عامها ، ثم تأمين قمم أزم كلها قمم بونيه حيران ١٩٧٤ . اصححت المدينة آمنة الى حد ما ، لقد انتهى القصف المدفعي المتواصل ، لكنهم بين الحين والآخر يتسألون عبر دروب أزم ، وقره داغ ، يشتبكون مع الربايا ، أو يحاولون قصف المدينة ، ثم تركزت عملياتهم الصيف الماضي في شبن هجمات فردية داخل المدينة لتصفية بعض الاكراد الذين يحاربون الى جانب الثورة ، وادى وقوعها من وقت الى آخر بلا شك الى جو من الارهاب تخيم على المدينة الجميلة ، وفي

أماكن عديدة سمعنا عن أحد المناضلين البعثيين ، يعمل استاذاً في جامعة السليمانية . وبمجرد لقائنا الأول بالمدينة رحنا نبحث عنه ، عندما نسمع عن إنسان من أماكن نائية ، ثم نقصد محل تواجدده ، تضيق دائرة البحث شيئاً فشيئاً نعرف أنه في مدينة السليمانية . تقطع مئات الكيلومترات ، نصل المدينة ، نخرج إلى شوارعها إلى إدارة الجامعة ، نشرب الشاي في مكتب سكرتير المدير ، يجري عدة اتصالات تليفونية ، ثم يقول لنا إن الشخص الذي نقصده ينتظرنا في مباني الكليات ، نعود من جديد إلى الطريق ، ونقطع الرحلة الأخيرة إلى أطراف السليمانية حيث الجامعة ، نسأل حارس الباب ، يشير إلى مبنى يضم حجرات المدرسين ، الكتب ، بعضهم يرتدي معاطف بيضاء ، أنه الجو الجامعي ، ويشير لنا سماع كردى إلى مهر نسلكه ، نتوقف أمام حجرة ، ندخل ، يقول لنا إنه سيعود بعد لحظات بالاستاذ ، نتأمل الحجرة ، وتمضي دقائق ، يفتح الباب ، لانرى الأستاذ إنما طالبة كردية جميلة تشير برأسها ثم تغلق الباب ، ولا تمضي إلا لحظات حتى نجد شاباً قصير القامة ، يرتدي جاكتا بنى اللون ، محدد الملامح ، ولا احتاج إلى من يقدمه إلى ، ذلك الحس الخفى الذى ينبئ بحقيقة من هم أمامنا ، . . أصبح بأسمه .
فى سنة ١٩٦٨ أسست جامعة السليمانية . فى مارس .
ويبتسم مرحباً ، يستدير ليجلس خلف مكتبه .

● ● ●
فى سنة ١٩٦٨ أسست جامعة السليمانية . فى مارس ، ١٩٧٠ ، أعلن بيان الحكم الذاتى ، وعمت الفرحة الناس ، كان معظم أبناء الشعب الكردى يطمح إلى انتهاء جو القتال الرهيب الذى ساد خلال السنوات الماضية ، فى نفس الوقت لم يحاول آخرون فهم محتوى البيان ، كانت طبيعة العلاقات داخل القيادة العشائرية التى يمثلها الملامصطفى البرزانى واضحة للمناضلين داخل منطقة الحكم الذاتى ، حيث المركزية لشديدة فى لاجتماعات ، وقيام الملا بطرد المعارض له فوراً . أو تصفيته جسدياً ، أو سجنه ، ويستتبع هذا تشريد عائلته وسلب أملاكه ، بالطبع أشاع هذا مناخاً ارهابياً بالنسبة للكثيرين . وفى السليمانية جرت مناقشات كثيرة بين المؤيدين للحكم الذاتى والمعارضين له ، كان المؤيدون للحكم الذاتى يسألون المثقفين الاكراد المتأثرين بقيادة الملا :
- كيف تقبلون القيادة العشائرية المتخلفة ، لماذا يسود التزمتم بالرأى بين المثقفين ، العناصر المحيطة بالملا ضد الشعب ، لماذا لا تكشفونهم ؟
ويرد المثقفون المتأثرون بالملا :

- سنناقش الملا ، لو ابتعدنا فسوف تنفرد هذه العناصر العملية به ، نحن نعرف الخطوة المتمثلة فى سيادة هذه العناصر لكن لا بد ان نحاول اقناع الملا .

وعندما أرسل الملا وفداً إلى بغداد للتفاوض مع الثورة قبل اعلان قانون الحكم الذاتى اعتبر هذا نصراً للمثقفين ، وفى هذه الفترة جرى

العديد من المناقشات مع أعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني في السليمانية ، يذكر مناظرنا انه تناقش كثيرا مع كمال خوشنا عضو الفرع الرابع بالحزب الديمقراطي الكردستاني وقبل اعلان قانون الحكم الذاتي بايام كانا يتناقشان حول القضية الكردية ، وقال لكمال خوشنا وان القانون سيضمن كل ما تريدون وكان أحد أعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني موجودا واسمه شفيق اغا قال انا قضيت ليلة عند الملا ، وانه من الممكن أن يوافق ، ولكنني أخشى أن يتراجع وذلك لوجود بعض المحيطين به الذين أثروا من الحروب . كثيرون منهم اشتغلوا بالتهريب ، تاجروا في السلاح ، اذا قتل بعضهم يأخذون سلاحه يبيعونه مرة أخرى ، هناك شخص اسمه (مفتاح اغا) كان معلّم ابتدائية وراتبه خمسون دينارا ، انضم اليهم ، اصبح آمر هيز ، تقود الهيز كلها تصب في يده ، أصبح له رصيد في البنك العراق ، الشخص العشائري يصبح قائدا عسكريا والعسكري الموقوف يظل جنديا عاديا . كان الحكم الذاتي يشكل ضربا لمصالح هؤلاء كلهم . . وذكر على سبيل المثال شخصا اسمه حليم كريم ، بعض المثقفين كانوا يذهبون الى القيادة العشائرية متصورون انهم سيقنعونها . ولكن هؤلاء هزموا ، تغلبوا عليهم ، واحتجزوهم ، وبعضهم سجن لفترات نتيجة المناقشة ، أو قتل ، وبرغم تلك المحاولات التي بدلها المثقفو الاكراد الذين لم يقطعوا الأمل تماما وقتئذ من اتجاه الملا الى خدمة مصالح الشعب الكردي فقد فشلت مساعيهم مع القيادة العشائرية لأن مخططاتها وسياستها كانت مرسومة وتدخل ضمن مخططات أشمل واكبر من الواقع الكردي المحدود ، ضمن مخطط الامبريالية للسيطرة على المنطقة ، وتدمير ثورة العراق من الداخل ، بعد اعلان الحكم الذاتي من المدينة جو ارهابي ، وقام مدير الشركة وهو عضو من الحزب الديمقراطي الكردستاني بفتح السجن الزكري في المدينة ، كان يضم ١٥ شخصا معظمهم متهم بالسرقة والنهب ، وأشرف على صعودهم الى الجبل ، سحبوا كثيرا من البسطاء الذين غرروا بهم ، وفي الجبل يفرضون عليهم عزلة شبه تامة ، حيث لا يوجد راديو ولا يسمح لهم بالمناقشة ، ومن يخالف أمرا صدر له يعدم فوراً ، وهؤلاء أصبحوا يعودون فيما بعد الى الصف الوطني كلما سنحت لهم الفرصة . . حتى انهيار التمرد وعودتهم بالئات صورت لهم القيادة العشائرية ان الجيش سيقتل وبلدج ، ويهتك الاعراض ، نفس ما اشاعوه في المناطق الأخرى ، واكتفى الجيش باتخاذ اجراءات عسكرية تهدف الى تأمين المواطنين وفك الحصار الذي فرض على بعض مواقع الحنود ، وشيئا فشيئا بدأ الاسلوب الانساني الذي اتبعته القوات المسلحة العراقية شمر ، يكشف للناس مدى زيف القيادة العشائرية العميلة وكذب ادعائها ، وحاول المتمردون ايقاع القوات المسلحة في اخطاء تشوه سياستها الانسانية تجاه الشعب الكردي ، وذلك بقيام بعض المتمردين باطلاق النار من فوق منزل اسرة معينة ، أو من داخل مسجد بالمدينة ، بهدف قيام الجيش بالرد على مصدر النار ، عندئذ يشيعون

الجيش يقصف بيوتا آمنة ، وأماكن العبادة ، والمستشفيات ، قاموا بتنفيذ هذه الأعمال الاستفزازية عشرات المرات لكن القوات المسلحة لم تستجب ، ولم ترد على مصادر النيران ، وفي المقابل بدأت حملة توعية لكشف اساليبهم ، شارك فيها المناضلون العرب والاكراد ، وقام رجال الدين بدورهم خاصة في الخطب التي تعقب صلاة الجمعة في نفس الوقت كانت عناصر المثقفين الثوريين في صفوف الاكراد ، والذين ظلوا مكبوتين طوال هيمنة الجناح الرجعي العميل على الحركة الكردية ينشطون سواء في العمل الثقافي او السياسي وفي آخر عملية للجيش في القطاع برز الجانب الانساني بشكل كبير ، لقد تحركت وحدات القوات المسلحة باتجاه (سيد صادق) ، وعلى الطريق تمركز العصاة فوق احدى القمم ، ودخل كل منهم الى حفرة برميلة مغطاة بمهارة ، وبقيت بعض القوات لتتعامل معها . واستؤنف الزحف الى (سيد صادق) . اشترك في العملية حرس الحدود والانصار وكلهم مقاتلون اكراد ، ولم تستغرق العملية اكثر من اثنتى عشرة ساعة (تمت في نفس اليوم الذي حلقتنا فيه فوق جبل زمانكو ونزلنا الى دربندى خان) . وفي سيد صادق كان العصاة قد اشاعوا بين الأهالي ان الجيش يحتاج الى اربعين يوما ليصل الى القرية اذا تحركت وحداته من السلیمانية واذا وصل فان الجنود سيفتكون بالأهالي ، وبثوا سائر الاشاعات المختلفة ، لكن الأمر في هذه المرة اختلف ، لقد جاء عدد كبير من الاكراد المسلحين ، استسلموا للجيش ، ويجرى حوار سريع بين جندي عراقي واحد والعائدين .

- ما هي الاشاعات التي يقولونها ؟

- قالوا لنا انكم سوف تعدمون .. يقصون ايديكم .

- ولماذا جئت .

- لكي اخلص من الذل الذي أعيش فيه .. ثم أننا علمنا أن الجيش

لا يفعل شيئاً مما قالوه لنا .

ويمضي الاكراد العائدون الى بيوتهم ، وفي سيد صادق خطب ضابط القوات المسلحة في الأهالي الذين تجمعوا بالمسجد ، طمأنهم ، وعرف منهم ان العصاة الذين بقوا ولم يستسلموا قد نهبوا كل شي ، الطعام والنقود والثياب ، وبسرعة كانت السيارات المحملة بالأغذية تصل الى (سيد صادق) وتوزع الطعام على الأهالي ، وبعثة طبية تقوم بتقديم العلاج لبعض الجرحى وامام المسجد وقفت سيد عجوز تحتضن ابنتها العائد ، وتبكي في صمت .

● ● ●
عند انشاء جامعة السلیمانية عارضتها الملا مصطفى البرزاني ، كان يضع حسابا للجيل المثقف الواعي الذي سيخرج من الجامعة ، واتخذت هذه المعارضة طابع العنف أثناء انشاء الجامعة ، وبعد بدء الدراسة فيها ، كان المقاول يأتي بأدوات البناء ، في نفس اليوم تسرق ، او تخرب ، وعندما انشئت رغم أنفه ، بدأوا بعارضون قبول طلبة عرب في الجامعة سواء كانوا عربا عراقيين او مصريين او جزائريين او من أي قطر آخر ، وقيل لهم

وقئئذ ان الجامعة لو اغلقت نفسها على الطلبة الاكراد فقط فسيضعف مستواها العلمى ، ان النسبة العظمى من الطلبة الاكراد والى جانبهم نسبة قليلة من الطلبة لعرب ، والى باب مفتوح لقبول طلبة من كافة انحاء العالم ، وخاصة ان الجامعة تضم كلية للآداب (متخصصة فى الابد الكردى) وكلية هندسة وكلية زراعة ، وكلية علوم واخرى للطب ، بالاضافة الى معهد للادارة ومعهد للطب الفنى ، وعندما فشلت القيادة الرجعية فى تعويق الدراسة بدأت تخطف الطلبة من الجامعة ولازال عدد من الطلبة مخطوفين حتى الآن (١٥ مارس ١٩٧٥) لم يرجعوا ، وكثيرا ما قطعوا الطريق على بعض السيارات التى تقل الطلبة ، ويحتجزون الطلبة العرب ويتركون الاكراد واجروا لهم استجوابات تركزت حول ميول الطلبة ومحاولة استقصاء بعض المعلومات . وكان هدفهم الاشمل اشاعة جو ارهابى يعوق الدراسة لتعثر اول جامعة كردية علمية ، وعندما فشلت جميع هذه المحاولات ، قصفوا الجامعة بالمدايع ثلاث مرات ، وفى احدى مرات القصف استهدفوا بيت الطالبات ، وفى البداية اضطر الاساتذة الهنود والباكستانيون الى الرحيل وبقي فى الجامعة الاساتذة العراقيون ، وزملاؤهم المصريون ، ان السنوات الثمانى التى قضاها فى منطقة تبدو ممتدة مشحونة بالرعب الارهاب خاصة بالنسبة لمن لعب دورا ، كبيرا فى كشف القيادة الكردية اليمينية ، مما جعلهم يعتبرونهم هدفا لهم ، وحاولوا اغتيالهم اكثر من مرة ، هاجموا بيوتهم ، واطلقوا عليهم النيران فى الطريق ، وبقي المناضلون يتجولون فى شوارع المدينة ، التى قد يظهر الموت بها فى اية لحظة ، يمارسون حياتهم العادية والتدريس فى الجامعة التى لم تخل طبعا من بعض عيونهم واسأل محدثى . . . احد هؤلاء المناضلين :

— الم تتخذ احتياطات معينة ؟

لم بحمل مسدسا ، او مدفعا رشاشا ، ولم تخصص له حماية . لقد عاش الواقع كما هو ، بكل ابعاده واحتمالاته حتى تلك الايام التى قطع فيها العصاة الطريق بين كركوك والسليمانية ، ظل على عادته اليومية ، لم يغيرها ، ذهابه الى اصدقائه الاكراد فى المدينة ، مصاحبته لهم ، مناقشاته معهم ، وتوجهه الى الجامعة وقيامه بواجباته الاكاديمية . لا تريد ان نظهر لآخواننا الاكراد أننا بعيدون عنهم ، عشنا كبقينه الشعب بدون سلاح ، بدون حماية .

ونخرج من المكتب ، اتامله ، نوعية خاصة من المقاتلين ، بين العسكريين تلتقى شخصيات معينة تشعر امام اصحابها انهم جاءوا الى العالم للقتال ، مقاتلون بالعزيمة ، بالكيان . حتى فى تصرفاتهم الصغيرة . ويقول المصربون عن امثال هؤلاء انهم (وشى موت) . وهؤلاء يختلف تكوينهم عن تكوين الفدائي اذ ان الفدائي تشكل الظروف والفكرة والاقتناع ، هناك نوعية اخرى اكتسبو القتال كما يتعلم الانسان حرفة او مهنة فيتقنها ويحيدها . ان المنتمين الى القسم الاول مبتكرون فى قتالهم ، موهوبون ، يتعاملون مع الواقع اثناء اشتباكهم معه ، كما يتعامل الفنان مع المسادة التى

يشكل منها عالمه ، وهؤلاء اذا لم تتح لهم فرصة ارتداء الزي العسكري فانهم يتصرفون في حياتهم بروح قتالية أيضا ، ومحدوتا ، ينتمى الى هؤلاء برغم استهدافه لعدد من محاولات الاغتيال ، فانه لم يفكر في مفارقة المدينة او الابتعاد لحظة واحدة عنها ، وكان الأمر الطبيعي بالنسبة له ان يناضل ، واذا جاء الموت فهو كأي حدث آخر مجرد علامة . نمشى في طرقات الجامعة ، بين مباني كلياتها حولنا الشباب والفتيات ، الملح مناح الحب الصحي ، ضوء النهار الربيعي يملأ الحياة والمكان . من يلوح الابتسامات وهمهمات الاصوات التي تتخللها ضحكات ناعمة رقيقة ملونه كحواف زهر شقائق النعمان لا يتصور الارهاب الذي عاشته السليمانية ، لقد انتصرت الحياة هنا .

في الصباح الباكر وقفنا فوق سطح الفندق ، منذ أيام تعرض البناء لهجوم بالمدافع الرشاشة من جانب بعض العصاة ، استهدف أحد الأشخاص الذين ظنوا أنه ينام في إحدى الغرف وعلى الرغم من قرار وقف اطلاق النار فان أصوات الطلقات لم تنقطع طول الليل ، ويبدو أن الأهالي اعتادوا سماع هذه الطقطقة كما يسمونها ، بل وأصبحوا يعرفون مواعيدها إذ أن صاحب الفندق كان يقول :

ـ لن تبدأ الا بعد منتصف الليل .

وعلى الرغم من الوضوح الكامن في اطلاق الرصاص ، فان هذه النيران يشوبها غموض ، إذ ربما كانت متبادلة فعلا بين بعض العصاة الذين يحاولون التسلسل الى المدينة من اتجاه المقبرة الواقعة على التل القائم على الجانب الايمن بالنسبة لمدخل المدينة الغربي . وربما أحد الجنود قد اشتبه في حركة ما تخللت الليل البارد الموحش ، أو ظلال تحركت بسبب أجسام مجهولة المصدر ، احتمالات كثيرة غير ان المؤكد هو صوت اطلاق الرصاص ، والذي يعكس بالطبع جوا غير طبيعي ، فوق المدينة تتمدد ظلال الجبال ، الهواء بارد جدا ، والشوارع تلمع تحت مياه الأمطار التي سقطت قرب الفجر ، الفراغ بلورى شديد الشفافية ، وكأنه انعكاس لبلورات كرسالية لا تراها العين ، ومن الصخور الرمادية راحت تتصاعد ابخرة الضباب ، وقال أحد الأساتذة المصريين المقيمين هنا .

« لقد دخن الجبل » .

والأهالي يعرفون ان الضباب عندما يتصاعد من الجبل فإن هذا يعتبر نذيرا بسقوط الثلج ، تمتد المدينة في شوارع مستقيمة ، فسيحة ، متقاطعة وتبدو البيوت المحفوفة بجدران صغيرة ، جزرا من المادة في المحيط من الصمت والفراغ ، ون الأرض تنبثق أشجار الصنوبر رشيقة ، ممتدة ، بتجدي بخضرتها الشاحبة البرودة ، بدت المدينة بأكملها وكأنها منعكسة في مرآة ضخمة شفافة أختفت حوافها في السماء وأعماق الأرض ، في الطريق الممتد خلف الفندق خرجت امرأة من منزل ، يبدو أنها موظفة ، أغاقت باب البيت ، ثم فردت مظلة سوداء لتتقى رذاذ المطر الخفيف ، واتجهت الى موقف للاتوبيس بعد لحظات جاءت السيارة ، أو لمحتها من نافذة بيتها ، وقبل دخولها العربة تغلق المظلة ، في ميدان يتوسط الشارع عبر ثلاثة طلبة

متساندين ، ومن الجهة اليمنى ظهر عجوز منحني الظهر ، راح يعبر الشارع ؛
متمهلا ، أقترب من واجهة دكان ملحق بمبنى من طابق واحد ، ادار المفتاح
في القفل المستقر قرب الأرض ، دفع الباب المصنوع من الصاج الى اعلى
أرضية الدكان المرتفعة عن الأرض ، أشبه بالمصطبة ، ارتكز العجوز الكردي
على يديه دخل ، لم استطع ان اتبين محتويات الدكان بالضبط ، عاد العجوز
من جديد ، كان يحمل في يده طبقا فارغا ، شد الباب الى أسفل ، اعاد
اغلاق القفل ، لماذا مضى متمهلا يوشك أن ينكفيء على وجهه ، لاجابات
على تلك الاسئلة التي ردها فضولي الداخلي ، مضى العجوز .

وعلى مهل ظهرت أربع نساء يرتدين عباءات سوداء متقاربات فبدت
حركتهن وكأنها صادرة عن لتلة واحدة الفراغ ، كانت المباني تزداد اقترابا
من بعضها كلما اتجهت الى مركز المدينة حيث السوق القديم ، في ساعة مبكرة
أمس ذهبنا اليه ، يبدو متشابكا ، معقدا ، لا يمنع نفسه بوضوح كسوق أربيل ،
تمضى أزقته الى مالا نهاية ، وداخله قد يكمن الخطر في تلك الدكاكين الصغيرة
والابواب التي تفضي الى أين ؟ شهد السوق منذ فترة حادث اطلاق نار
ونصف جزء منه لازال متكوما ، رأيناه ، يقطع استرسال الجوارى الضيقة
والدوب التي تصطف على جانبيها البضائع ، الجدران القديمة سويت
بالأرض ، يقول الأساتذة المصريون بالجامعة أن الاهالي طيبون جدا وان
هذه الجهامة التي يراها العابر على الوجوه مبعثها ظروفهم القاسية التي
عاشوها منذ سنوات كثيرة ، فهم يبدون السخوط عنى العصاة الذين اربكوا
الحياة واخلوا بايقاعها ، كل منهم يود لو عاش في سلام ، ان تمضى الأمور ،
بشكل عادى ، آمن ، اذا ذكرت السوق استدعى الى ذهني وجوه كردية
يتحدث أصحابها ، أو يقفون أمام أحد الدكاكين يتناولون أفطارهم قطعة من
القشدة الطازجة وفوقها ملعقة عسل نحل طبيعي ، وأمام الدكان عرض منحل
طبيعي من الطين ، الطريقة البدائية التي يجنون بها عسل النحل هنا ،
واعلانات عن (من السما) وهو نوع من الحلوى الطبيعية التي يجدونها
فوق غصون الأشجار .

في الصباح الباكر تبدو السليمانية قطعة حية من الجمال الطبيعي
الاخاذ ، قابعة في ذلك الوادي بين الجبال ، في تأملى للقرى الكردية لاحظت
ان معظمها مبنى بعيدا عن الطرق المطروقة ، يتوارى في حضان الجبل ، ولكن
بناة السليمانية اختاروا موقعا يمكن فيه اخفاء مدينة بأكملها عن الناظر
اليها من قريب ، السليمانية مدينة شابة اذا قيس عمرها بالعجوز أربيل ،
أو كركوك ، ولكن شبابها يشوبه كدر ، أرهاق ، ورغبة في دخول طور
النقاها لتجتازة الى الصحة ، حول السليمانية تنتشر غابات وأماكن تعد من
أجمل بقاع العالم . أقول هذا وليس لي خبرة بما هو أجمل ، ولكن بعض
الأجانب الرحالة الذين طافوا العالم قالوا ان هذه المنطقة تحوى أجمل
المنظر الطبيعية في العالم . تبدو السليمانية راغبة في الحياة ، أن يصبح هذا
الجمال في الظروف الطبيعية ، تظهر مكانته ومفاته وتأتى العيون من مختلف
أنحاء العالم لترى وتطلع عليه .

وأمام الفندق نلتقى ببعض الطلبة الأكراد المتجهين إلى مدارسهم
الاعدادية ونقلب دفاترهم • كل ما يدرسونه باللغة الكردية ، وألمح في
عيونهم أملا بالمستقبل ، وتتسابق بعض الطالبات الجامعيات إلى سيارة
أجرة سوف تقلهن إلى كليتهن ، والمح أحد الجنود يكتم مدفع المدرعة
الرابضة أمام الفندق بغطاء مستطيل من المشمع ، قال لنا أحد الأصدقاء
الأكراد :

– ستسقط الثلوج بغزارة ، أرى أن تنتظروا ••
تأملت السماء والغيوم ، وتبادلنا النظر ، فيصمت اتخذنا قرارا ، لن
توقفنا ثلوج أو أمطار ، لنقطع الشمال العراقي من الجنوب إلى الغرب
اذن •• إلى الموصل •



المحور السادس
الموصل - الجولان

في بداية عام ١٩٦٤ ، اتم الفلاح العراقي عارف علي حسين ثمانية عشر عاما . أنه أحد أفراد أسرة كبيرة تتكون من والده ووالدته وأحد عشر اخا . كلهم اصغر منه ، وهو مسئول مع والده عن العائلة ، عندهم أرض قليلة بزمام بلدة الفلوجة التي تقع على الضفة اليسرى من نهر الفرات ، وتبعد عن بغداد ٦١ كيلو مترا الى الغرب ، كان عارف يسرح بقطيع أغنام يمتلكونه يأخذون منه بعض الزبد والصوف ، ومايتبقى يرسلونه الى المدينة ليبيع ، وأحيانا يقوم عارف بمساعدة والده في فلاحة الأرض ، في سنة ١٩٦٤ جاءت سيارات حكومية الى الفلوجة تحمل مكبرات صوت وتعلن عن فتح باب التطوع أمام الشبان لالتحاق بالجيش ، ومما قالته (أن الوطن في حاجة الى جيش قوى) ، ولم يفكر عارف علي حسين طويلا ، ان مفهوم الوطن عنده يدخل ضمن القيم التي يؤمن بها : الشرف ، الرجولة ، الأمانة ، ثم ان نخوته العربية شعرت وكان النداء موجه اليه هو شخصيا .

• • (الوطن في حاجة الى الجيش ؟) اذن ليتطوع ، وبعد انقضاء فترة التدريب انتقلت الوحدة التي الحق بها الى شمال شرق العراق ، واستمر هناك حتى سنة ١٩٦٧ ، قالوا ان الجيش سيتحرك الى فلسطين ، وتحركت الوحدات الى قاعدة الجبائية في نهار وليلة ، ثم تم تجهيز القوة ، بسرعة أرسلت الى الأردن ، قطعوا المرحلة الاولى حتى قاعدة (هـ - ٣) . وكل مالمدي الجنود وقتئذ عنادهم الشخصي ، وفي قاعدة هـ - ٣ قالوا لهم تل الشعار للاشتباك بالعدو ، ودفعه الى الخلف ، قريبا الغروب هوجم لدى الرتل المتحرك ثلاثة مدافع مضادة للطائرات عيار (٣٧) مللي وتمكن بذلك من اسقاط طائرة من الطائرات المغيرة ، واستمر تحركهم الى « أربد » قاصدين بلدة « الكرامة » وقبل وصولهم أربد هاجمتهم الطائرات الاسرائيلية مرة أخرى ، تركوا أجهزتهم ومعداتهم ، انسحبوا . لم تتح لهم فرصة حقيقية للاشتباك بالعدو ، وبعد تمرکز الوحدات العراقية بالقرب من ضفة نهر الأردن ، نقل عارف علي حسين الى استخبارات الجيش ، كان ذكيا ، يستوعب بسرعة ، بالاضافة الى أنه بذل جهدا في تعليم نفسه حتى أصبح يتقن القراءة والكتابة ، وأصبح واجبه ان يصحب الفدائيين من درعا الى السلط ، في أحد الأيام صحب معه أربعة فدائيين ، وكانت لدى قوات الجيش العراقي أوامر بالايقنوا الا لجنود السيطرة العراقية . اعترضتهم قوة من السيطرة الاردنية (الشرطة العسكرية) ، تمكنت القوة الاردنية من اعتراض السيارة ، واعتدى الجنود الاردنيون بالضرب ، وظل عارف واقفا متوقعا الاعتداء عليه . وعندما وصل قائد الشرطة سأله :

- انت مسئول القافلة ؟

- نعم

- لماذا تساعدون الفدائيين ؟

واجابه عارف ببساطة :

- كنت أظن أننا كلنا عرب .

قادوا الفدائيين ومعهم عارف الى السجن ، لكنه لم يقم به طويلا ، تدخل الجيش ، وعاد عارف الى عمله ، واستمر بالاستخبارات حتى قامت ثورة ١٧ تموز في العراق ، نقل بعدها الى اللواء الثامن مشاة آلي . بعد شهور قليلة جاءت مدرعات وأسلحة حديثة ، وبكميات كبيرة ، بدأت تبذل عناية بالجندى لم تكن موجودة من قبل والاهتمام بجانب التوعية الذى كان مهملا ، نوعية الغذاء ، تحسنت المعدات ، والأهم هو التسليح . كما ان اساليب جديدة بدأت تدخل على برنامج التدريب . كان التغيير ملموسا وله آثار ايجابية كبيرة فى رفع الكفاءة القتالية للجيش ، وتزايد عدد الجنود بشكل ملموس ، وانشئت تشكيلات جديدة لم تكن موجودة من قبل . فى سنة ١٩٧٣ سرح عارف من الجيش ، وعاد الى قريته ليعمل مع والده فى الارض ، لكن حياته المدنية لم تستمر الا شهورا قليلة .

ظهر السبت ٦ أكتوبر ، اذاع راديو بغداد نداء الى جنود الاحتياط والجنود المسرحين بسرعة انضمامهم الى الجيش ، ولبنى عارف على حسين النداء غادر قريته على الفور ، واستخدم أكثر من وسيلة مواصلات ، مدينة ، عسكرية ، نقل ، ملاكى ، حتى لحق بوحده فى قاعدة (ه - ٣) أصبح أحد جنود اللواء الثامن مشاة آلي ، ثمة دوافع كثيرة اعتملت داخل عارف ، تنتمى الى هذه العوامل التى تحرك المقاتل العراقى لخوض قتال ضد العدو الصهيونى ، الشجاعة العربية ، النخوة ، الوعى الذاتى . والموضوعى ، بأهمية القضية ، ثم احساس قوى لما لفلسطين وقضيتها من قدسية شبة دينية ، الى جانب الوعى الكامل بما يمثله العدو من خطورة على العراق نفسه وثورته .

تحرك عارف مع اللواء الى الصنمين تحت الليل ، ثم الى منطقة انخل وكفر شمس . اقتربوا من مناطق المعارك ، فى تل الحارة تمرکزوا فى مواضع دفاعية ، صدرت لهم الاوامر بالأشتراك فى معركة تل الحارة ، كان لواء خالد هذه الوحدة من اللواء الثامن آلي أن تتقدم وتحتل المنطقة ، وعندما بدأت بن الوليد قد قصف الدبابات المعادية طوال الليل ، وفى الصباح كان على التحركات شن العدو هجوما مضادا عليها فى منطقة كفر شمس ، كان عارف بالخط الأمامى القريب جدا مع العدو ، يعمل على مدفع هاون ، صدر أمر بأنسحابه الى الخلف لينضم الى بقية زملائه .

ولم ينسحب عارف على حسين . على التل القريب استقرت جثث اصدقاء له من الوحدة عاش معهم فى الأردن ، والعراق ، وسورية ، وحاربوا الى جانبه ، ثم استشهدوا ، دار بعينه حوله ، لمح مدافع (ب ١٠) مضادا للدبابات صاح على الجنديين العاملين معه ، طلب منهم ان يبقوا ، زعق .

اصحابى استشهدوا على هذا التل . لكن الجنديين استمروا يستحبان المدفع ، لقد صدرت لهم الاوامر وهم يقومون بتنفيذها ، شهر عارف على حسين رشاشة ق

اتركوا المدفع . . . اتركوه امسك المدفع الثقيل ، كان وجهه مليئا بدخان المعركة ، جز على اسنانه ،

سحب المدفع الى أقصى نقطة متقدمة ، لمح عريفا جريحا ، رجله مكسورة ويرقد في حفرة ، اقترب منه . قال ان تحديد اتجاه العدو أمر صعب ، سأرمي لك طلقة اضاءة تستطيع معها تحديد الاتجاه .

وعندما انفجرت شعلة الضوء ، احوالت الليل الى نهار ساطح لمدة ثوان . انطلقت دفعات متتالية من الرشاشات المعادية ، استشهد العريف ، وازداد اصرار عارف على الا يترك موقعة . كان قد اتم تدريبه في اللواء على ثلاثة اسلحة ، من بينها المدافع المضادة للدبابات ، ربض منتظرا هجوم العدو ، مع ضوء الفجر بدأ يسمع أصوات الجنائز المعادية ومحركات الدبابات ، كانت أصوات الجنائز أقل خفوتا لان العدو يكسوها بطبقة من الكاوتشوك ، لكنه يميزها جيدا ، بعد قليل رأى ترابا يتصاعد من خلف التل .

بمجرد ظهور الدبابة الاولى أطلق عليها دانه من مدفعه ، اشتعلت النيران فيها ، وتراجعت الدبابة الثانية ، من خلف التل بدأوا يقصفون المكان ، لم يستدلوا على موضعه ، وعندما بدأت الدبابة الثانية تستدير لاستئناف الهجوم أطلق عليها مدفعه ، رماها على بعد ١٥٠ مترا واشتعلت الدبابة ، استمرت تزحف نحوه وهي تحترق ، أطلق عليها دانه أخرى ، توقفا ، وبدت الحيرة والخوف على الجسم الحديدي الضخم ، ودار مدفع الدبابة ثم توقف نهائيا ، في الضوء الشاحب رأى بعض جنود العدو يحاولون الافلات . وبسرعة تناول الرشاش ، أطلق عليهم ، رأهم يسقطون ، ثم انبطح فوق الأرض ، انفجرت حوله قذائف المدفعية المعادية ، لكنها لم تصبه ، وخلا ذهنة في هذه اللحظة الا من شيء واحد هو منع العدو من المرور فوق هذه الارض والانتقام لزملائه ، واستمر في موقعة طوال النهار . في العصر ساد هدوء مشوب بحذر ، احتضن عارف المدفع ، بدأ يتراجع به ، وحتى التحقق بوحدته . كان جائعا ، قدموا له بعض الطعام الميداني السريع ، وفي اعماقه كان يشعر بسكينة الى حد ما ، ألم يثار لاصحابه الذين استشهدوا ؟ .

في نفس الليلة تقدم عارف مع بعض زملائه ، ربطوا الدبابات العربية المصابة ببعضها البعض وتم سحبها الى الخلف كما عادوا بجثث الشهداء أيضا

عاد عارف على حسين الى العراق ، هو نفسه لم ير أنه أتى عملا خارقا ، لقد واجه موقفا معينا اثناء القتال ، وقرر الا ينسحب ، وأن يتصدى للعدو ، وان يثار ، والثار من القيم الهامة التي تحرك الانسان العربي ، ولكم تبدو قيمة ايجابية عندما تخرج من مفهومها الضيق الى اطار اشمل وأوسع ، وراح زملاء عارف وضباطه يتحدثون عنه باعجاب ، ان الانسان لا يولد بطلا ، والبطل لا يخلق بقرار ، لكنه يواجه موقفا معينا وعندئذ تتداخل عوامل كثيرة ، بعضها يدخل في نطاق الوعي ، وبعضها يخرج عنه ، عوامل نفسية وجسارية واجتماعية ، تتجمع كلها لتشكيل موقف الانسان في مواجهة الظروف . وتحديه لها ، عندئذ يصبح بطلا . ان عناصر البطولة كامنة داخل الانسان العادي ، وهذا ماظهر بوضوح خلال معارك أكتوبر بالنسبة للمقاتل العربي .

عاد عارفَ الى حياته العادية ، وفي احدى الليالي رقد تحت السقفَ الخشبي للبيت ، سمع طرقات على الباب ، قام والده البالغ من العمر خمسة وستين عاما ، فتح الباب ، فوجيء برجال أغراب .
- عارفَ موجود ؟

أوما الأب برأسه ، وعندما التفت ليستدعى ابنه ، وجده يقف خلفه .
قال الرجال :

- مبروك .. أنت رقيت الى ضابط .

رئيس الجمهورية يريدك .

ولنا ان نتخيل ما جرى في البيت من اضطراب ، رئيس الجمهورية يريد عارف ، كيف ولماذا ؟ وبعد أن ارتدى جلبابا وسترة وعقالا ذهب مع الرجال .
في الصباح جاء عارف الى البيت قبل ان يذهب الى الكلية العسكرية ليلتقى بالرئيس أحمد حسن البكر ، كان يرتدى ثيابا جديدة ويرغب في أن يطمئن والديه ، لكنه لم يجد أمه أو والده ، قيل له :

- راحوا وراك الى الرمادي .. قلقوا عليك .

مضى عارف الى الكلية العسكرية ، وهناك كان الرئيس البكر مجتمعاً ببعض كبار القادة يشرحون له المعركة على تخته الرمل ، كان الرئيس قد استتم الى ما قام به عارف قبل وقت قصير ، احضروا له عليها رتبتان ، رتبة العريف ، ورتبة الملازم ، ارتداها ، صافح الرئيس وعاد الى اسرته ضابطا برتبة ملازم ، والآن يعمل عارف على حسين باحدى الوحدات العسكرية القريبة من مدينة الموصل .



الموصل ، في الليل يبدو وجه المدينة الحديثة ، الشوارع المضائة بالنيون ، والاعلانات الملونة ، ونظام المرور الدقيق ، والسهر الممتد حتى منتصف الليل ، ودكاكين السندويتشات السريعة ، ودور السينما العديدة ، مدينة حية عصرية ، شابة ، ومن الضفة الأخرى لنهر دجلة تبدو غارقة في الأضواء ، تتصاعد منها باقات أصوات وضجيج خافت ، ويسرى دجلة على مهل .

مع ضوء النهار تبدو المدينة متشحة بعباءة التاريخ ، طابعها القديم يغلب على منظرها العام الذي يبدو من الضفة الأخرى ، وينتابني أحساس غامض بأنني جئت الى المدينة من قبل ، رأيت هذه البيوت المتجاورة ، والمتذنة المائلة التي يتوارى أمامها برج بيزا خجلا ، نحيلة ، سامقة كنخلة مالت بها السنين ، تعلو فوق كل البيوت ، أنها متذنة الجامع الكبير المعروف بالنورى نسبة الى نور الدين زنكي الذي اقامه حوالي عام ٥٦٩ هـ - ١١٦٩ م تحتفظ الموصل بالعديد من مساجدها . الى الخلف منا وفوق هضبة مرتفعة تقوم متذنة نحيلة تشبه مآذن العصر العثماني في القاهرة (مآذن القلم الرصاص) وتحتها يستقر مسجد النبي يونس ، ويقال أنه مدفون فيه ، والمسجد مقام فوق معبد آشوري قديم ، حوله وعلى مسافات متفاوتة تنتشر مدينة نينوى عاصمة الاشوريين ، في الموصل مدافن انبياء الله شعيب

ودانيا وجرجس ، وفيها قبر الشاعر المشهور أبو تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣١ هـ - ٨٤٥ م ، وأبن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ - ١٢٣٢ م ، وعسز الدين ابن الاثير المؤرخ المشهور ، صاحب كتاب الكامل في التاريخ ، عاش بها أيضا ابن خلكان صاحب كتاب (وفيات الأعيان) ، ثم ابراهيم الموصلى وابنه اسحق نديما هارون الرشيد الشهيران بفن الموسيقى والغناء .

وعندما نقطع الجسر الحديدي الذي يصل ضفتي دجلة ندخل شوارع الموصل ، لا يتبدد الاحساس بالجو التاريخي ، ان عمارات شاهقة تقوم هنا وهناك ، تكسبها طابع الحدائث ، غير أن عتاقة التاريخ أمر لا تخطئه العين ، الحركة في الشوارع كثيفة ، لا عجب فهي ثاني مدن العراق من حيث الحجم ، قرب الطريق المؤدى الى بغداد يقوم مصنع كبير للنسيج . ان شهرة الموصل في صناعة النسيج تعود الى قرون عديدة ، وهذا النوع المشهور من القماش (الموسلين) تخصصت فيه الموصل ، واسمه مشتق منها ، قبل انشاء قناة السويس كانت المدينة مركزا هاما تعبره القوافل التجارية الى أوروبا والى الهند ، ولكن الكساد طرأ عليها بعد حفر القناة ، وقد وصف ويكرام القسيس الانجليزي الموصل في كتابه مهد البشرية وصفا دقيقا ، نتبين من خلاله مدينة ضيقة (زارها في بدايات هذا القرن) متسخة الإزقة ، والحواري ، لا ينفذ اليها النور ، أو التهوية الصحية ، والمدينة التي رأها (ويكرام) لإعلاقة لها بالمدينة التي نراها الآن ، المزدحمة الطلقة والتي تذكرنا الى حد ما بمدينة دمياط في مصر ، أحيانا تتشابه المدن في بعض السمات ، لكن يبقى لكل مدينة شخصيتها ، حتى لو قامت في كل منها العمارات الحديثة ، تلك العمارات المتشابهة . ان المدن كالانسان تختلف ملامحه من شخص الى آخر ، وعاداتها ، وسلوكها الخفي ، والعلني ، واضح ان الموصل مدينة عملية ، لا تضيق وقتا ، كل شيء فيها محسوب ودقيق ، حتى السوق القديم يختلف عن سوق أربيل ذي الطابع الروحي والذي يخفق بالتاريخ ، أو سوق السليمانية المتداخل الملتوى والذي يشبه سراديب سرية في معبد فرعونى . خرص كهنته على الايصل الغريب فيه الى قدس الاقداس . سوق الموصل تغمره الشمس فهو بلا سقف ، ومن هنا يفقد الظلال ، ويقترب بهذا من العصرية ، كل شيء فيه محدد ، رأيت فيه المزايدات الصغيرة ، حيث يعلو صوت أحد الدالين مناديا على سلعة معينة ويقوم الواقفون من راغبي الشراء بزيادة السعر ، ان مصنع النسيج يحتل مساحة كبيرة ، وداخل العنابر الفسيحة حيث غابات الانوال الميكانيكية راح المدير يحدثنا عن خطة الصناعة الانفجارية التي تنفذها الثورة العراقية والمحدد لها خمس سنوات ، ومع ان الموصل مدينة عربية تماما الا ان المشكلة الكردية والحرب تركت آثارها هنا أيضا ، وذلك لأن محافظة نينوى التي عاصمها الموصل ملاصقة تماما والمحافظة دهوك وذات غالبية سكانها من الاكراد ، حدث بعد بداية التمرد الرجعي ان طلع أربعة عمال من المصنع - اكراد - الى الجبيل ، انقطعوا عن العمل ، وانضموا الى العصاة وبعد صدور قانون العقو العام الذي أعلنته الثورة في العام الماضي ، رجعوا ، ثم اعادتهم فورا الى المصنع ، وصرفت لهم مرتباتهم

عن الشهور التي قضوها في الجبل ، رأيتهم في المصنع ، واثابني الفضول فسألت أحدهم عن العمل الذي قام به خلال طلوعه الجبل ، فقال انه عمل خبازا ، وبدا غير راغب في الكلام ، وسألت آخر منهم ، فقال انه كان يعمل حملا ينقل الصناديق ، وفهمت انهم لا يرغبون الخوض في سيرة الأيام التي قضوها في الجبل ، في منطقة دهوك المجاورة للموصل ، لم يقم المتمردون بعمليات عسكرية ذات قيمة ، في العام الماضي وفي بداية الحركات حاولوا القيام بعمليات محدودة على الطريق الدولي الذي يربط العراق بتركيا ، ثم أوربا ، لكن الجيش دفعهم الى أعالي الجبال ، في مناطق محدودة ، وضيقة ، والعصاة الذين قدر لهم ان يحاربوا في ذلك القسم من الجبال أحيطوا بظروف لم تمكنهم من العمل بحرية ، اذ ان منطقة الحدود هنا ملاصقة لتركيا ، وتركيا لم تكن تسمح بأى نوع من المساعدة الأجنبية التي يمكن تقديمها لهم ، والجبل الممتد بمحاذاة الطريق الدولي وحتى الحدود التركية جبل اجرد خال تماما من الخضرة يسمونه (بي خير) أى الجبل عديم الخير ، وتشبه المنطقة المناخ الذي يسود الريف القريب من البحر الأبيض ، حيث السماء الصافية فيما عدا غمامات بسيطة تتناثر هنا وهناك ، وخضرة فاتحة تغطي الأرض الممتدة حتى أقدام جبل (بي خير) وحتى الافق في الجانب المقابل ، وعلى مسافات متفاوتة تبدو قرى ترقد وسط الخضرة ، البيوت هنا متباعدة ، فسيحة ، كأنها منظر مرسوم ، عند الحدود العراقية التركية الواقعة على الطريق الدولي ، تقع مدينة زاخو على بعد ١١٤ كيلو متر من الموصل ويسمونها المؤلفون الارجون (بيت نوهديرا) أصل آرامي (زاخو) أى الظفر ، ويؤدى اليها مضيق يمر خلال جبل (بي خير) ، انه متصل مستمر وممتد في اصرار صخرى عنيد ، في مضيق زاخو دارت معركة بين الجيش العراقي ، والمتمردين الاكراد ، وحول هذه المعركة تدور حكاية طريفة بين أهالي المنطقة الاكراد ، كان في زاخو تشكيل قتالي للعصاة (هيز) بقيادة عيسى سوار أحد الاشخاص الذين صعدهم الملا الى مراكز القيادة ، كان مجرما تعرقه المنطقة كلها ، وخلال قيادته لهيز زاخو ارتكب عدة مذابح دموية ضد المواطنين ، عندما بدأ الجيش هجومه ، قال انه من المستحيل عبور مضيق زاخو المنيع الذي يشبه كلبا على بك ، وأقسم انه لو نجح جندي واحد في عبور المضيق فسيطلق امرأته ، وبعد ان اجتاح الجيش المضيق في معركة استغرقت ثلاث ساعات ، تتندر الأهالي قائلين أنه كان يضم فعلا نية طلاق زوجته قبل ان يقسم ، بعد اعلان قانون العفو العام عن الاكراد اثر توقيع اتفاقية الجزائر بين العراق وايران ، كانت وحدات العصاة المسلحة في جبال زاخو أولى الوحدات التي استسلمت ، بدأوا يتوافدون بالعشرات ثم المئات ، ثم جاءوا في تشكيلات كاملة ، كانت عودتهم سريعة ، وبكثافة عديدة كبيرة ، وقبل بداية استسلامهم أطلق الحارس الخاص لعيسى سوار النار عليه ، قتله . يوم وصولي الى زاخو رأيت القائد العسكري للمنطقة يصيح في التليفون طالبا من بغداد ارسال مبلغ ضخيم من الدنانير ، لان مبالغ الاعانات الموجودة لديه نفذت كلها بسبب كثرة العائدين ، كانت المجموع تتوافد ، تعكس وجوههم رغبة حقيقية في وضع حد لهذه المأساة التي عاشها الشعب الكردي ، وكان تعامل المقاتلين العراقيين

معهم كريما ، خصص الجيش وحدات طبية كاملة لتقديم العلاج الى بعض الجرحى العائدين ، وسيارات خاصة لنقلهم فورا الى قراهم ، ومن ناحية الحدود التركية التي اجبرت على الهجرة الى ايران ، وتولى الجيش والمنظمات الحزبية استقبال هذه العائلات ، وقام الجيش بدفع أجور الأتوبيسات التي استأجروها من ايران الى الحدود العراقية عبر تركيا ، أى لمسافة ثلاثة آلاف كيلو متر ، وقامت عربات الجيش أيضا بنقل النساء والاطفال والرجال الى قراهم ، عاد أيضا المثقفون الأكراد ، وفيما بعد رأيتهم فى بغداد وقد أعيدوا الى أعمالهم التي كانوا يشغلونها فى الصحف العراقية سواء الناطقة بالعربية أو الكردية ، وبقيت الدوائر المختلفة ، ورأيت عددا منهم كانوا يذيعون تعليقات سياسية بتوقيعهم من إذاعة المتمردين ، هاجموا فى تلك التعليقات الثورة العراقية ، والجبهة الوطنية ، وحزب البعث العربى الاشتراكي ، وقابلت هؤلاء فى أعمالهم التي كانوا يمارسونها قبل طلوعهم الجبل ، ونعود الى مركز القيادة العسكرية بزاخو ، تدق أجهزة التليفونات الميدانية على فترات زمنية متفاوتة ، وتجىء الأصوات من أماكن مختلفة بمضمون واحد .

« سيدى . . هناك فوج آخر من العائدين »

وبرحل العائدون الى قراهم ، لا يستجوبهم أحد ، ولا يتعرض لهم أحد ، وفى العديد من مناطق كردستان كانوا يقابلون بالزهور والأحضان ، ويقف جنود الجيش وضباطه فى مقدمة المستقبلين ، يشهدون الفصل الأخير فى المسألة الدامية ، وتجسد ملامح وجوههم الهادئة قمة السياسة التي اتبعها الجيش خلال تلك الحرب ، والتي يمكن ان نطلق عليها ، الحرب التي جرت ضد الحرب .

تتابع فى ذهنى وجوه أكراد عديدين التقيت بهم ، أذكر الملامح ، ملامح الملايى سعدي الأسيوية بعينيه الضيقتين وعلى جمعه النحيل الحاد الأنف ، ومحاربين أكراد من حرس الحدود عيونهم زرقاء ، بشرتهم بيضاء اللون مشوبة بحمرة ، ولامحهم المتقاربة ، العيون الضيقة ، الأنوف الحادة ، ان تحديد ملامح معينة لشعب واحد ، أو أفراد قومية واحدة أمر صعب بلا شك ، ولكن هناك عوامل تاريخية ، وحضارية وجغرافية تصوغ اطارا عاما للملامح ، واصل الشعب الكردي لم يتفق عليه المؤرخون وعلماء الأجناس حتى الآن ، كل كتاب يتناول كردستان من الناحية التاريخية ، أو الجغرافية أو الوصف ، لابد أن يبدأ بمقدمة تقليدية عن أصل الأكراد ، والمناطق التي يعيشون فيها ، والتي تتوزع بين ايران وتركيا ، والاتحاد السوفيتي حيث يعيش عدد قليل من الأكراد فى جمهورية أرمينيا السوفيتية ، ولكن الذين تصدوا البحث أصل الأكراد على أساس علمى قليل من العلماء أن كلا منهم يبدأ معترفا بالغموض الذى بسود أصل الشعب الكردي ، ثم ينطلق وفقا لاجتهاداته الخاصة والوثائق والادلة المتاحة ، وخاصة أن المنطقة الكردية فى العراق لم تجد بآثار كثيرة تفصح عن الأصول التاريخية للأكراد ، ويصف هيلتون - الذى أشرف على انشاء الطريق الكبير الممتد من أربيل حتى رايات والذي يخترق مضيق على بك - بعض اللوحات الأثرية المحفورة فى اعالي

الجبال ، ويتحدث عن كهوف تضم بعض الآثار مثل كهف برادوست ، أشهر كهوف تلك المنطقة ، الذي يعتبر سرا لايبوح به رجال القبائل ، ويقولون أنه يضم كثيرا من الأقفية والتماثيل والمنحوتات البارزة للملك الاقدمين والامراء السابقين ، لكن هاملتون لم ير شيئا من هذه الآثار .

في دائرة المعارف الاسلامية كتب المستشرق فلاديمير مينورسكي بحثا عن أصل الاكراد قال فيه انه يعتقد بانحدارهم من أصل آري غير انهم امتزجوا بعناصر أخرى ، وتقوم نظريته على المعلومات اللغوية والتاريخية ، حيث ان اللغة الكردية ترجع الى المجموعة الآرية ، وحيث ان اللغة دليل هام على أصل المتكلمين بها فلا شك ان أصل الاكراد آري أذن ، ويرى المستشرق السوفيتي ن . مار ، ان الاكراد هم السكان الاصليون لجبال آسيا الصغرى ويستند في هذا الى تقاليد الشعب الكردي ومميزاته وعاداته ، ويرى سيدني سميث أن الشعب الكردي ينتمي الى مجموعة الهندو - إيرانية ، قدموا الى كردستان في الوقت الذي قدم فيه الميديون والفرس الى فارس ، ويرى الدكتور شاكر خصباك في كتابه (الكرد والمسألة الكردية) ان الاكراد هم احفاد الكوتيين وهم القوم الذين نتجوا من التزاوج سكان جبال زاكروس الاصليين ، والموجات الأولى من الآريين التي اكتسحت منطقتهم .

أما رأى الاكراد أنفسهم فيوجد في وثيقة تاريخية هي كتاب (شرف نامه) الذي كتبه باللغة الفارسية أمير شرف خان بدليش عام ١٥٩٦ ، ويتناول القبائل الكردية وأصولها وفروعها ، وتاريخها ، وفي بداية (شرف نامه) يذكر المؤلف تلك الأسطورة التي تتحدث عن أصل الاكراد اذ انه منذ حقب بعيدة عاش ملك فارسي اسمه (زهاك) ، وسماه العرب (ضحاك) ، كان طاغية جبارا أصيب بداء غريب اذ نبئت له في كل كتف أفعى ، لم يستطع الاطباء شفاؤه فنصحه إبليس ان يطعم كل أفعى دماغ أحد الشباب يوميا حتى تخف الأمة ، قام بتضحية شابين يوميا ، ولكن الجلاد كان حنونا فكان يضحى شابا ويرحم الثاني مستعينا عن دماغه بدماغ خروف ، وهرب الشباب الناجون سرا واحتموا في جبال نائية لم تدسها قدم ، وهناك نموا وتكاثروا الى أن أصبحوا شعبا هم الشعب الكردي ، والطاغية (زهاك) هو الذي ثار عليه كاوة الحداد ، وحتى اليوم يحتفل الاكراد في ٢١ مارس بذكرى انتصار كاوة الحداد ابن الشعب على الطاغية ويعرف العيد باسم (عيد النوروز) ، وقد قرر مجلس قيادة الثورة العراقي اعتباره عيداً قومياً للعراق .

أما الكتاب الاكراد المعاصرون ومنهم محمد علي عوني ، والسيد حسين حسني فيرون انهم من أصل هندو - أوربي .

ويرى محمد أمين زكي ؛ مؤلف أول كتاب كردي علمي يتناول تاريخهم: « ان كردستان وهي الموطن الأول للسلافة البشرية الثانية ، وموضع انتشارها الى الجهات الأخرى حسب الحوادث التاريخية ، وكان يسكنه في فجر التاريخ شعوب جبال زاكوس وتتألف من أقوام (لولو) و (كوتى) و (خالدي - كالدي) - و (شوبارو - صوري) وكان الشعب العيلامي

يقيم في منتهى الشرق الجنوبي منه ، وظرا لبعض الملابس ، واثسابها
اللغوية ذهب بعض المستشرقين الى ان هذه الأقوام من السلالة القوقاسية .
فهذه الشعوب ماعدا الشعب العيلامي هي الأصل القديم للشعب الكردي .
« ويبدو ان هجرات العناصر الأرية (هندو - أوروبية) الى جبال
زاكروس أولا والى شرقها وغربها أخيرا - يظن ان هذه الهجرات قد
بدأت من القرن العاشر والتاسع ق . م قد أوقعت بقايا السكان الأصليين
لمنطقة جبال زاكروس وبلاد كردستان تحت سلطان هؤلاء الوافدين الجدد
فجعلتهم جميعا آريين وكان الشعب الميدي أقوى وأكبر شعب بين هؤلاء
الوافدين الجدد فجعلتهم جماعات وشعوبا ، حيث سكن باديء الأمر فى شرقى
بحيرة أورمية ، ثم أعقبتهم هجرة الأقوام الأرية الأخرى ، بارس ماناي ،
بارسيوى ، بارث ، كاردشوس » .

ويقول باسيل نيكيثين فى كتابه « الاكراد » .
« وكثيرا ما نلاحظ فى تكوين الأسر الكردية ان أعرقها يعود الى
أصول عربية (١) » .

ويوجد بين الاكراد ، الاشراف ، الذين يقولون أنهم ينحدرون من نسل
النبي محمد عليه الصلاة والسلام .
ان المستعرض للبحوث العلمية التى وضعت فى تاريخ الاكراد يتبين
أنه من الصعب ارجاع أصولهم الى قبيلة أو جنس معين ، وهذه حقيقة
تتفق مع كثير من الأمم التى تتكون عادة من أنصهار قبائل وأجناس عديدة
بالإضافة الى التفاعلات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والدينية
والسياسية ، ولا يتناقض هذا مع خصائص الشعب الواحد التى تميزه
عن شعب آخر .

● ● ●
من طائرة الهيلوكوبتر التى انخفضت الى ارتفاع قليل ، رأيت فى السهل
المحاذى لجبال (بي خير) انتشار بعض الوحدات العسكرية العراقية ،
ملاجىء عربات النقل ، خيام جنود ، مباني عسكرية من طابق واحد ، تذكرت
انتشار التشكيل العسكرى المواجهة لجبل زمنكو ، والمعسكر الذى احيط
بمرايض للمدفعية الجبلية ، ومتوسطة المدى ، فى اتجاه الجهات الأربع ، كانت
العمليات ضد التمرد فى قمته وقتئذ ، قبل بداية الانهيار وعودة الآلاف ،
الذين تدفقوا عائدين الى الصف الوطنى خلال هذه الأيام الأخيرة من مارس
١٩٧٥ ، دارت الطائرة حول دائرة سويت فوق الأرض بسرعة كمطار للهيلو
كوبتر ولحمت من أعلى دبابات حديثة ، وجنودا يمشون بالقرب منها ، وطابورا
يبدو أنه لتدريب ، وجنوديين يحفران الأرض بمعاول يدويًا ، تأملت
الدبابات باهتمام خاص ، أصبحنا داخل احدى كتائب لواء خالد بن الوليد ،
أو اللواء المدرع ١٢ ، أول لواء عراقى يصل الى الجبهة السورية فى حرب
أكتوبر ، لوحنا لطيار الهيلوكوبتر عندما بدأ يرتفع عائدا الى قاعدته ،
وأستدرت لواجه مجموعة من رجال الكتيبة المدرعة ، ابتسموا مرحبين .

المقاتل حسين ، شاب في العشرينات ، يحمل فوق صدره ثلاثة أوسمة ،
وسام الكوكب الأردني ؛ منح له قيامه بعمليات عسكرية ضد العدو على
الجبهة الأردنية بعد عام ١٩٦٧ ، ونوط الشجاعة لاشتراكه في فك الحصار
عن إحدى ربايا الجنود بالقرب من دريندى خان ، كانت الظروف صعبة ،
والاسناد المدفعي للعصاة كثيفا ودقيقا ، لكنه اندفع بدبابته الى أقصى نقطة
متقدمة ، واشترك في فك الحصار ودفع المتمردين بعيدا ، ثم نوط الشجاعة
مرة أخرى لدوره في الجبهة السورية ، ومن حزام جلدى حول خصره يتدلى
مسدس حصل عليه كهدية من صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة
العراقية ، لقد خاض (حسين) معارك عديدة في دريندى خان (ومضيق
بازيان ، ومضيق زاخو ، غير أن أبرز خبراته القتالية تلك التي اكتسبها
في حرب أكتوبر ، قاد دباباته عبر المسافة الشاقة الطويلة من الحضر حتى
الجولان ، أكثر من ألف وخمسمائة كيلو متر من التنقل المتصل المستمر ،
ان ركوب دبابة أمر يختلف عن ركوب أى وسيلة انتقال أخرى ، كالعربة
أو الطائرة ، فحيز الحركة داخلها ضيق للغاية ، حيث يجلس أفراد الطاقم في
مساحة محدودة لا تسمح لكل منهم الا بالحركة التي تستلزمها ادارة المعدات
بالاضافة الى الهدير الذى لا يخفف منه « الهيلمان » (غطاء الرأس الخاص) كثيرا ،
ثم ان الانتقال على الجنزير هذه المئات من الكيلو مترات أو يستنزف جهدا
بدينا شاقا ، لم تتح له فرصة الراحة ، صدرت له الأوامر بالتقدم باتجاه
تل الشعار للاشتباك بالعدو ، ودفعه الى الخلف ، قرب الغروب هوجم
التشكيل بطائرات اسرائيلية معادية الغرض منها تشتيت الهجوم ، ولكن
وسائل الدفاع الجوى القومية تولت الرد ، بالاضافة الى الوسائل الذاتية
المزودة بها الدبابات العراقية ، كان الرد جيدا ، ثم اسقاط بعض الطائرات
المهاجمة ، وعدم تمكينها من تحقيق أغراضها ، واستمر التقدم ، برزت
مشكلات واجهت جميع التشكيلات المسلحة العراقية التي وصلت الى الجولان ،
وهي عدم تعرفهم الكافى على طبيعة الأرض ، وعدم استطلاعهم للمنطقة ،
ولكن بسالة المقاتلين وشجاعتهم ، وحماسهم لخوض القتال ذلل هذه المشكلة ،
والمشكلات الأخرى . مع هجوم دبابات خالد بن الوليد سكتت بعض دبابات
العدو التي كانت تحاول التصدى للهجوم من مراض ثابتة واكتشف (حسين)
أن هناك دبابات معادية تقف صامتة ، هامة ، تركها جنود العدو وفروا أمام
قوة الهجوم المضاد .

وبسرعة صدرت الأوامر للجنود العراقيين الذين أصيبت دباباتهم
بركوب الدبابات ، كانت من طراز (سنتريون) الانجليزى ، وهو طراز
يعرفه الجنود العراقيون ، اذ أنه يدخل ضمن تسليح الجيش العراقى .
وسرعان ما استدارت المدافع الى الجهة الأخرى واهتزت الأجسام الحديدية
الضخمة عندما دارت الموتورات ، وتقدمت لتشتبك في الهجوم ثم احتلال
تل الشعار ، وفى الليل أمر المقاتل (حسين) بعض الجنود بالنوم الاجبارى
لمدة ساعتين واستطلع المنطقة ، لم يذق نوما ، مع الفجر وخيوط الضوء الأول
اكتشف أن مقر قيادة العدو على مقربة منهم ، بدأت الدبابات العراقية في

قصفه والاستعداد للهجوم عليه ، في نفس الوقت الذي ظهرت فيه طائرات العدو تحاول الانقضاض على القوات العراقية ، ومرة أخرى تشتبك مع وسائل الدفاع الجوي العراقية ، وفي أقصى نقطة متقدمة وقف قائد لواء خالد بن الوليد يشرف على هجوم اللواء من مركز قيادته المتقدم ، ويتابع تطورات القتال من أقصى نقطة أمامية في أرض العمليات ، وبناء على الموقف الحي الذي يراه بنفسه يتخذ قراراته ، كان يتصل بقيادة الكتائب وقادة السرايا ، يشجعهم في جهاز اللاسلكي ، يشكرهم على دقة الرمي ، ورفع هذا من معنويات رجاله الذين رأوا قائدهم في الأمام ، راح يحرك مجموعات الدبابات من مكان الى آخر ، بحيث تمكن فعلا من تضليل العدو الاسرائيلي ، وانعكس هذا على تردددهم في القيام بالهجوم ، وعدم تركيزه في اتجاه واحد ، وبدا واضحا أن الاضطراب يسودهم . ربما استوحى هذا التكتيك من خطة خالد بن الوليد الذي واجه جيوش الروم التي تفوقه عددا ، فعمد الى تحريك كتائبه بشكل أوحى لقادتهم أنه يقود جيشا يبلغ أضعاف أضعافهم من حيث العدد .

مع بدايات نهار ١٣ أكتوبر ، استمرت الدبابات التي يقودها (حسين) في الهجوم ، وأثناء تقدمها أصيبت دبابة المقاتل (عبد الحميد) بطلقة قسمت مدفعها الرئيسي الى نصفين ، لم تتمكن الدبابة من الرمي ، وبرغم ذلك رفض رجالها مغادرتها واقتحموا بها خندقا للمشاة مستعملين المدافع الرشاشة في تطهير الخندق .



عندما قدم السيد صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة مسدسا هدية الى المقاتل ذاكر ، قال له :

— السلاح لمن أحسن استخدامه .. فلك هديتنا .

في اليوم الأول لوصول خالد بن الوليد الى الجولان تقدم المقاتل ذاكر ضمن الجناح الأيمن للواء في الساعة الثانية ظهرا تعرض لضربة جوية ، غير انها لم تحدث أية خسائر واستمر تقدم الدبابات الى قرية الطيحة ، كانت مخلاة ، ثم تمركز رجال المشاة بها ، واستمر تقدم الدبابات ماشتبكت بالعدو الذي تراجع الى الخلف ، تمكن (ذاكر) ومجموعته من تدمير دبابتين ، غير أن صاروخا أصاب دبابته في الجانب الأيمن ، تلاه صاروخ آخر في باب السائق ، ثم ثالث في الجانب الأيسر ، بدأ حريق في الدبابة ، أشتمل قماش المشمع الموضوع أعلى الدبابة ، واستمر السائق عبد الخضر عبد الله في التقدم وفي جهاز اللاسلكي صاح قائد الدبابة القريبة المقاتل اسماعيل :

— النار تشتعل في دبابتك .. سأحميكم ..

ونزل المقاتل ذاكر في ومعه جنديان من طاقم الدبابة ، بدأوا إطفاء الحريق ، في هذه اللحظة انقضت طائرة فانتوم غير أن وسائل الدفاع الجوي أجبرتها على الابتعاد ، كانت الشظايا تتطاير حول ذاكر ، والرجال . لكنهم لم يتوقفوا عن إطفاء الحريق ، وعندما خمدت النيران ، لم يكن هناك وقت أمامهم للتأمل ، أو للتفكير في محاولة الرجوع بالدبابة الى الخلف لاصلاحها .

نقدموا بها مستأنفين الهجوم ، في نفس اليوم تعرضت تلك الدبابة لهجوم معاد ، تقدمت الدبابات الاسرائيلية وطوقتها ، وجد الرجال أنفسهم محاصرين ، وبدا هذا الموقف أصعب من لحظات اشتعال الحريق ، والتهديد بانفجار الدبابة ، ومرة أخرى يتقدم المقاتل اسماعيل يقود عديدا من دبابات التشكيل لفلك الحصار عن دبابة (ذاكر) التي بدا منظرها غريبا وهي مصابة في أكثر من موضع وتقاتل باصرار عنيد . اشتبكت الدبابات التي يقودها اسماعيل بالدبابات الاسرائيلية ، وعندما نجح في فك الحصار عن دبابة ذاكر تقدمت القوة كلها تطارد العدو ، بينما رقدت على أرض المعركة أربع جثث حديدية لدبابات اسرائيلية تشتعل فيها النيران ، وتتطاير منها انفجارات الذخائر ، وأطلقت الدبابات العراقية مدافعها الرشاشة على بعض أفراد العدو الذين غادروا دباباتهم محاولين الهرب .

● ● ●
عندما وصل رئيس العرفاء مجيد الملا الى الجولان ضمن لواء خالد ابن الوليد ، كانت هذه هي المرة الاولى التي يخرج فيها من العراق ، مجيد جندي في الجيش العراقي ، يعمل راميا على إحدى الدبابات ، كردي ، من قضاء مخمور بمحافظة أربيل ، وصل ليلة ١٢ أكتوبر الى منطقة جاسم القريبة من قرية الشيخ مسكين ، كان الوقت فجرًا ، وبقي حتى الساعة العاشرة والنصف عندما صدر لهم الأمر بالتقدم عبر طريق الصنمين باتجاه تل الحمار ، عندما وصلوا الى سفح التل ، بدت في الجو طائرات الميج ١٧ ، انقضت على اهداف اسرائيلية في المواجهة ، وبرق في النهار وهج انفجارات القنابل البرتقالي .

حوالي الساعة الرابعة صدر الأمر بالتحرك والهجوم ، صعدت الدبابة على المرتفع ، كان للعدو في المنطقة عدد من مرابض المدافع المضادة للدبابات ، أطلق أحدها قذيفة على الدبابة ، رصد القائد المقاتل حميد مكان المدفع ، يسار تل المال ، لم تصب الدبابة ، صوب المقاتل مجيد الملا مدفعه وبطلقة واحدة اقتلع المرابض الاسرائيلي من جذوره ، ان مجيد مشهور عنه أنه أدق رامى في الكتيبة ، له خبره طويلة في القتال على الدبابات .
ثم رصد مدفعا آخر ، وخرجت طلقة لتسكته الى الأبد ، وتقدمت الدبابة ، انفجرت بالقرب منها دانه مدفع أطاحت شظاياها بجهاز الاشعة تحت الحمراء المركب فوق الدبابة ، لم يستطع المقاتل حميد ولا المقاتل مجيد رصد هذا المدفع ، لكنهما لمحا دبابة اسرائيلية تتوارى خلف بفايا مبنى قريب ، أطلق عليها مجيد مدفعه في المرة الثانية أصابها اصابة مباشرة ، مع الهجوم أصيب الدبابة اصابة مباشرة وكان لابد للرجال أن يغادروها ، حملوا رشاشاتهم وقفزوا من البرج الرئيسي ، ابتعدوا عدة أمتار ، ثم انبطحوا أرضا عندما دوى انفجار هائل ، واستمرت دباباتهم مشتعلة طوال الليل ، آلتقوا بوحدة من القوات الخاصة السورية صحبتهم حتى مقر القيسادة الميداني للواء خالد بن الوليد ، ومع وقف اطلاق النار ، عاد مجيد الملا الى العراق ، لم يقض أياما طويلة في قريته بقضاء مخمور ، انما التحق بوحده التي استأنفت تدريباتها ، وبعد أبريل ١٩٧٤ ، اشترك في عدة معارك جرت

ضد المتمردين ، وهو يحارب المتمردين بأقتناع سياسي كامل ، ووعى بكل الأضرار التي يسببها العصاة للشعب الكردي ، وبعد عام من القتال ترابط وحدته هنا على مقربة من الحدود التركية ، وخلال الأيام الأخيرة من مارس ١٩٧٥ بدأ يشهد تدفق العائدين الى الصف الوطني ، ويشترك في استقبالهم ،

● ● ●
أثناء تحرك الكتيبة الى خطوط القتال ، مرت بقرية سورية خالية ، هجرها كل سكانها ، وحولها توالى الانفجارات ، ودوى القنابل ، وتوقعت الدبابات لحظات لاعادة التنظيم ، نزل الملازم أول ضابط التوجيه السياسي بالكتيبة ، تأمل البيوت الخالية حوله ، البيوت ، طرقات القرية الضيقة التي لعب فيها الأطفال ، وتحدث الرجال ، ومشيت فيها الفتيات ، فجأة صر أحد الأبواب الخشبية ، خرج رجل عجوز ، منحني الظهر ، يرتدى معطفا أزرق اللون وعقالا عربيا ، أتجه اليه الملازم ، صافحه ، سأله عن السبب الذي يجعله باقيا بمفرده في القرية كلها ، لا يوجد الا هو ، قال العجوز انه رفض مغادرة القرية . عاش عمره كله بها ، وعندما ذهب أولاده وأحفاده الى الأمان ، بقي هو ، ان سنين عمره موزعة بين تلك الجدران ، وهذه البيوت ، ابنه يحارب في صفوف الجيش السوري ، صحيح لا يعرف موقعه ، وليست لديه أخبار عنه ، لكنه يشعر هنا أنه على مقربة منه .

● ● ●
عانقه الملازم ، وعلد ليلحق بدباباته التي بدأت تستعد لاستئناف الحركة ضمن الرتل ، عندما اتخذت الكتيبة طريقها الى القتال أصر على أن يشترك كعنصر مقاتل في المعركة ، وألا يقتصر عمله على التحرك بين الجنود ، وهكذا قاد بنفسه إحدى دبابات الكتيبة من طراز (ت - ٦٢) .

● ● ●
تقدموا حتى المغرب ، وقبل الضياء الأخير بدأ العدو يطلق نيرانه على الدبابات العراقية وبدأ تبادل الرمي ، أصيبت دبابته بصاروخ اسراييلي من طراز (تاو) وهنا يجب تسجيل ملاحظة هامة وهي تفوق المقاتلين العراقيين ودقتهم في تصويب مدفعية الدبابات ، ان معظم الخسائر التي وقعت للدبابات العراقية حدثت نتيجة اطلاق الصواريخ المضادة للدبابات ، وليس نتيجة قذائف الدبابات ، بعكس الدبابات الاسرائيلية التي أصيب عدد كبير منها بواسطة مدفعية الدبابات العراقية ، في (الصنمين) تم استلام الأوامر ، وحددت الأهداف المعادية التي تبعد أكثر من خمسة عشر كيلو مترا ، كانت معنويات الجنود عالية جدا ، والشجاعة العربية متجسدة في أرض القتال ، تحرك

● ● ●
الملازم (١٠٠) بدبابته مع مجموعة أخرى الى تل الشعار ، عند الفجر فتحت النيران ، وتبين أن هناك محاولة معادية للتطويق ، وأن اطلاق النيران الذي بدأ - الغرض منه صرف الانتباه عن القوة الرئيسية التي ستقوم بالتطويق . بسرعة اتخذت الدبابات العراقية أوضاعا قتالية تمكنها من أفساد محاولة التطويق ، والهجوم في نفس الوقت على العدو ، نشب قتال عنيف ، أصيب خلاله قائد مجموعة من الدبابات بشظية أصابت ساعده ، لم تؤلمه ، لم يدر بها

الآ بعد انتهاء القتال ، عندئذ بدأ الألم ، قدرة الانسان الخارقة على تأجيل آله ، والسمو به فوق اللحظة ، وعندما بدأ النهار كان الملازم سيف قددمر دبابة اسرائيلية من طراز سنتوريون ، بدأ أنه لا يشعر بأى ارهاق ، واعتبر هذا أفضل أسلوب لعمل ضابط التوجيه السياسى .



فى يوم ٦ أكتوبر ، اشترك الملازم أول (٠٠٠) لأول مرة فى حياته بالقتال ، كلف بواجب قتالى ضمن خطة عامة لاحتلال تل عنتر ، تحدد وقت الهجوم الساعة الثالثة صباحا ، تقدم مع وحدات المشاة الميكانيكية التى تتبع لواء خالد بن الوليد ، ثم ترجل مع بقية المقاتلين على بعد ٢ كيلو متر من الهدف ، قطعوا المسافة مشيا ، ولم يواجهوا بأية مقاومة ، تكاملت التشكيلات فى المنطقة حوالى الساعة الخامسة والنصف .

كان (٠٠٠) والرجال قد تقدموا الى أقصى نقطة مواجهة ،

بدأ هجوم اسرائيلى مضاد .

عدد كبير من الدبابات ، قدر بحوالى عشرين دبابة ، تقدم فى اتجاه القوات العربية ، وتصدى لها المشاة العراقيون ، وهنا يحدث موقف تكرر كثيرا فى حرب أكتوبر ، عندما يتصدى جندى المشاة العربى لدبابات العدو ، ويقاؤها حاملا أسلحته المضادة للدروع ، أو يجرى خلفها ويتسلقها ويلقى قنابله داخلها فى قتال ملتحم ، طرفاء الدرع والانسان ، بسرعة تم توزيع الرجال فى مواقع تمكنهم من أصابة الدبابات الاسرائيلية ، مع انطلاق القذائف المضادة ، انفجرت ثلاث دبابات وقفز بعض الجنود الاسرائيليين وأطلق الرجال مدافع الكلاشنكوف بينما استمرت المعركة بين المشاة والدروع ، استشهد الملازم محمود زميل (٠٠٠٠) والذي كان يحارب على مقربة منه ، ربما هذا هو ما جعل (٠٠٠٠) يقاتل بشكل انتحارى ومعه الملازم محمد جابر نبهان الملقب أبو أديب الفلسطينى الجنسية ، والضابط بالجيش العراقى ، كما أنه عضو المجلس الوطنى الفلسطينى والذي دمر بمفرده ثلاث دبابات (استشهد بعد أكتوبر بشهور فى دربندى خان بشمال العراق ، وشيع فى جنازة مهيبة نظمتها القيادتان القومية والقطرية لحزب البعث العربى الاشتراكى) .

مع ساعات النهار الأولى وعند سفوح تل عنتر ، رقدت سبع دبابات دمرها المشاة العراقيون ، فى نفس الوقت كانت معركة كفر ناسج تبدأ وتستمر حتى يوم ١٧ أكتوبر ٠٠ عاد (٠٠٠) وزملاؤه الى وحداتهم ، وبدأوا يستعدون لشن هجوم كبير حدد له يوم ٢٣ أكتوبر ثم صدر قرار بوقف اطلاق النار على الجبهتين يوم ٢٢ أكتوبر ، وتقرر عودة وحدات الجيش العراقى الى بغداد بعد أن أدى واجبه القومى ، كان جنود الالوية العراقية التى وصلت من يوم ١١ أكتوبر الى الجبهة السورية والتى شاركت فى القتال بشكل فعال وحاسم يشعرون أنهم لم يقدموا كل إمكانياتهم فى القتال ، كان وصولهم فى اللحظة المناسبة يوم ١١ أكتوبر ثم اشتراكهم فى القتال اعتبارا من يوم ١٢ أكتوبر السبب الرئيسى فى افشال الهجوم المضاد

الإسرائيلي الذي استهدف تطويق دمشق ، وعزلها ، وتدمير الجيش السوري لكنهم رغبوا في مواصلة القتال ، وطرد العدو من الجولان نهائيا ، أثناء استعداد الوحدات العراقية للعودة ، مر أحد كبار الضباط ، سأل بعض المقاتلين :

— كيف الحال .

وردوا بالعبارات التقليدية المعتادة ، لكن أحدهم رد بتلقائية :

— سيدى . . والله ما شبعنا حرب .

غير أن هؤلاء الذين اشتركوا في القتال أفضل حظا من زملائهم في الوحدات التي استمر تدفقها وكانت تشكل احتياطيا للهجوم العام ، عندما بدأت الحرب تحركت الفرقة السادسة من محافظة ديالى حتى الجبهة السورية ، جهد مكثف بذله في تجميع الوحدات ثم الانتقال وبعد الوصول بأيام قليلة صدر قرار وقف اطلاق النار ، ثم عودة الجيش العراقى . . ماهى

مشاعر المقاتل الذى يقطع أكثر من ألف كيلو متر ليحارب ، ثم تتوقف الحرب عند وصوله الى الجبهة ؟ ان مشاعر عديدة تجول داخله ، ضياع اللحظات التي ينتظرها المقاتل بالشهور ، والسنوات ، افلات الفرصة ، غير ان هذه الأفكار تتوارى مفسحة الطريق أمام المشاعر التي تصحب استعدادات الحركة وتجهيز القوات للعودة .

في غوطة دمشق رابطت وحدة دبابات عراقية داخل بستان يملكه شيخ سوري عجوز ، التقي به الجنود ، عند وصولهم قال له الضابط العراقى أول يوم :

« تعرف اننا سنتلف بستانك ، ونعرف ان الأرض عزيزة عليك مثل الولد ، كلنا فلاحون ، لكننا نعدك بالألا يدخل جندى صهيونى الى بستانك وان نعيد الحفر التي ستستخدمها الدبابات الى ما كانت عليه عند ذهابنا .

قام الرجل يبكى ، عانق الضابط والجنود .

« اننى عندى ولدان فى الجبهة ، وانتم جئتم من بلاد بعيدة انا أماشايها تتكلمون كلاما حلوا ، جعلتمونى أشعر ان كلابنا ابنى ، الأرض وصاحب الأرض لكم » .

وخلال الأيام التي أقامها الجنود والضباط ، كانت المشاعر المتبادلة بينهم وبين العجوز رقيقة ، دافئة ، انسانية ، عند استعدادهم للعودة ، تقدم الجنود الى قائدهم ، طلبوا السماح لهم بساعتين اضافيتين حتى يعيدوا الحفر الى ما كانت عليه ، تقدمهم الضابط ، بدأوا يسوون الأرض ، يعيدونها الى وضعها الذي كانت تعطى معه الخضرة ، والنماء ، بينما دمعت عينا العجوز السوري تأثرا ، بعد عبور القوات العراقية الحدود السورية ، رابطت جميع الوحدات العسكرية لفترة استعدادا لانتقالها مرة أخرى الى الجولان ، لو تجدد القتال .

ليلة ٢٢ مارس ١٩٧٥ ، وصل الى مركز قيادة التشكيل العراقى المسلح المرابط شرق الموصل ، مندوب عن العصاة الاكراد ، قال للقائد العراقى ان اربع بتاليونات « كتائب » ترغب فى الاستسلام بكامل أسلحتها ، وأنهم

بدأوا فعلا في التحرك من أعالي الجبال ، ونظرا لو عودة الطريق قانهم سوف يستغرقون وقتا ، سيصلون غدا في الصباح الباكر ، رحب القائد العراقي بعودة المسلحين الاكراد ، بدأ يتخذ الاستعدادات للقائهم في أتروش ، الواقعة في أعلى جبال « هكاوي » ، استمر تدفق العائدين في حسنان ، في قاطع السليمانية ، في العمادية ، في سائر أنحاء المنطقة ، وحتى أول أبريل عاد الآلاف وتم وتسليم أكثر من مائة ألف قطعة سلاح ، بدءا من المدفعية الثقيلة حتى البنادق والمسدسات ، مرورا بمدافع الهاون ، والرشاشات المتوسطة والخفيفة ، وآلاف الأطنان من الذخيرة ، وكميات الوقود ، والطعام ، والملابس والمؤن المختلفة ، لاحظت التنوع الشديد في مصادر الأسلحة ، لكن الطراز السائد كان أمريكيا وانجليزيا واسرائيليا ما توقفت أمامه كثيرا تلك البنادق والمدافع ، والقنابل التي كتب على كل منها بالحروف العبرية ، نفس الحروف التي رأيتها على الأسلحة والذخائر التي غنمتها القوات المصرية خلال حرب أكتوبر على جبهة السويس ، قال الاكراد ان هذه أنواع جديدة تماما على الواقع الكردي ، ان علاقة الكردي بالسلح قديمه ، يدعم هذه العلاقة حياته في الجبل ، والصراعات المستمرة التي لم تكن تنتهي بين العشائر الكردية المختلفة ، ولكن الاكراد لم يعرفوا البنادق ، وحتى سنوات قليلة كانت أشهر أنواع البنادق المنتشرة من نوع (برنو) ، ومن قبل الموزر . ثم ظهر الكلاشنكوف بعد ١٩٦٧ ، ولكن تلك الأنواع من الأسلحة الثقيلة ، وهذا العتاد الضخم ينطق بوضوح ويجسد القوى الرجعية الخارجية التي أردت استغلال الاكراد .

مع الأيام الأولى من أبريل تحركت وحدات الجيش العراقي من (حسنان) ودخلت كلاله معقل الملا الحصين ، والحاج عمران بدون ، طلقة واحدة ، بل قوبلت بالاهازيج والرقصات الكردية التقليدية ، وفي كل مكان كان المقاتلون يقدمون العون للمصابين الاكراد ، والعائدين ، في الحرب عندما يصاب جندي ، يصبح جريحا تجده شديد الحساسية لكل تصرف يصدر تجاهه ، سواء كان من رفاقه أو أقاربه ، ويحرص المحاربون على معاملة جريحهم بحساسية شديدة ، هكذا كان الجيش يتعامل مع العائدين ، وكأنهم جرحى سقطوا بين صفوفه ، مع أنهم كانوا يحاربون ضده ، وهذا هو الوعي الثوري الانساني ، الذي زرعه الثورة في نفوس المقاتلين ، وتعتبر تجربة فريدة بين الجيوش الوطنية الحديثة التي تنصدي لقضايا دقيقة يتعين خلالها حل الكثير من المشاكل والمعادلات الصعبة ، وأبرزها كما ذكرنا التوفيق بين روح القتال والمعاملة الرحيمة .

اتخذت القوات المسلحة العراقية مراكز على الحدود ، توقف نزيف الدم ، ثمة مشاكل من نوع آخر تبدأ ، مشاكل تتعلق بتضميد الجراح ، بالبناء ، بتعميق روح المواطنة لدى الاكراد ، اشباع حاجاتهم الروحية والقومية توطيد الحكم الذاتي ، ان انتهاء القتال المسلح ، لايعني أن أعداء الحكم الذاتي قد انتهوا ، انهم ممثلون في القوى الاجتماعية المتخلفة بين الاكراد ،

بالحرب ، إنها تحديات جديدة أمام ثورة العراق ، وفي منطقة العمادية ،
ثمة وقوفها فوق جبال صخرية وعرة ، نشهد عودة آلاف الامراء المسلحين
الى وطنهم ، قال صديق مصرى :
- ان الثورة التي عالجت تلك المشكلة المعقدة بهذه البراعة ، سوف
تعالج المشكلة التي ستنشأ منذ الآن بنفس القدرة ، وخاصة انها تدور
حول البناء والاستقرار بعد ان انتهى منها عنصر الحرب



الجهد الجوي
جبهة القنـاة
الجـولان

فى يوم السبت ٦ أكتوبر ، وفى تمام الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا ، وصلت طائرة اليوشن الى أحد المطارات الأمامية بجهة قناة السويس . ونزل منها عقيد طيار مصرى اتجه الى قائد القوة الجوية المرابطة فى المطار ، وسلمه مظلوما مغلقا يحوى أمر العمليات العسكرية . فى المطار كان الطيارون فى حالة تاهب ، ومنذ أيام وهم مستغرقون فى هذا المشروع التدريبي ، وانفرد هذا المطار بتواجد سرب من الطائرات العراقية ، طراز (هوكر هنتر) ، وطياريه ، وملاحيه ، والفنيين المتخصصين فى هذه الطائرات ، وصلوا الى مصر منذ أبريل ١٩٧٣ . كانت القيادة المصرية قد طلبت إرسال هذا النوع من الطائرات وذلك لأسباب فنية تتعلق بطبيعة الأهداف التى سيتم الهجوم عليها ، وقبول الطلب بحماس شديد بين صفوف الطيارين العراقيين ، صار سباق ، من سيذهب الى مصر ، ان الذى سيشارك فى القتال على الجبهة المصرية سينوزن جزءا من رأس السهم الذى سيوجه الضربات للعدو الصهيونى . وعندما وصل الطيارون الى مصر ، اندمجوا بسرعة مع رفاق السلاح المصريين ، عاشوا حياة واحدة فى القاعدة الجوية ، ربطت بينهم صداقات ، علاقات شخصية عميقة . هذا على المستوى الانسانى ، أما الجانب العسكرى فقد أتاح لهم وصولهم قبل بدء القتال بشهور فرصة التعرف الى طبيعة الأرض ، والعلامات الأرضية ، والوجبات التى سيقومون بها ، مصطلحات الطيران ، التى تختلف باختلافا كبيرا من بلد عربى الى آخر ، خاصة فيما يتعلق بالتوجيه الأرضى ، وهذه المشكلة برزت بشكل حاد على الجبهة السورية ، التى وصلتها الطائرات العراقية مع اليوم الثانى للقتال ، ولم يتح لها فرصة كافية للتعرف على المصطلحات العسكرية الخاصة بالطيران السورى ، مما سبب بعض المتاعب التى ستعرض لها عند استعراض دور المقاتلات العراقية على الجبهة السورية ، يمكن القول أن الطائرات الهيلوكبتر - كما تعرف فى مصر - يطلقون عليها فى العراق ، الطائرة السميتية ، وفى سورية ، الحوامة ، وقد حدث أثناء القتال ان صاح بعض الجنود العراقيين فى الجولان .

- هناك طائرات سميتية معادية تقترب .

فظن الجنود السوريون أن العدو قد استعمل سلاحا جديدا لا يعرفون عنه شيئا ، وصار اضطراب . وأهل توحيد المصطلحات العسكرية المستعملة بين مختلف الجيوش العربية يكون أحد الدروس المستفادة من حرب أكتوبر . فى المطار المصرى المتقدم ، وفى تمام الساعة الواحدة استلم الطيارون العراقيون أوامر القتال ، الخرائط معروفة لهم من قبل . الطريق الذى سيسلكه كل منهم ، فى الذهاب ، وفى العودة . قبل اتجاههم الى طائراتهم تعانقوا مع بعضهم البعض ومع زملائهم المصريين ، الساعة الواحدة والنصف ، شددوا الأحزمة داخل الطائرات التى ربطت عند المدرجات ، فى الثانية وخمس دقائق بدأ هدير المحركات يذنب الصمت ، وفى الساعة الثانية وأربعة عشر دقيقة ، وبين موجات الهجوم الأولى التى اتجهت لتسديد الضربة الجوية الشاملة ضد العدو ، أقلعت خمس وعشرون طائرة (هوكر هنتر) يقودها طيارون عراقيون ، وزعت القوة الى ثلاث مجموعات ، الأولى بقيادة

قائد السرب ، وبعد لحظات كانوا يعبرون قناة السويس من فوق احدى المناطق التي حددت لهم .

(١)

عاد المقاتل الطيار (٠٠٠٠) بطائرته الهوكر هنتر ، بعد أن اشترك في الضربة الأولى ، أغار بطائرته ضمن مجموعات المقاتلات المصرية والعراقية على العدو في (أم خشيب) . وعندما بدأ وصول بقية طائرات التشكيل تزايد الحماس بين زملائه ، عادوا جميعا سالمين ، اتجهوا الى مقرات الراحة حيث كلفوا بواجب آخر حدد لتنفيذه الساعة الخامسة من مساء نفس اليوم . غير أن التعليمات وصلت بالغاء الرحلة ، لان الأهداف التي كان مقررا إعادة ضربها تدميرها تماما في الضربة الأولى ، في الليل التف (٠٠٠٠) مع زملائه حول الراديو يصغون الى أخبار العبور والمعارك ، من حولهم التهب الجو الحماسي . رجال عاشوا من أجل هذه اللحظات سنوات طويلة . صباح اليوم التالي ، جاءت الأوامر بضرب أهداف العدو في (الطاسة) . تمت تهيئة الخرائط ، وتحديد الطريق ، وتأمين الأجواء التي ستعبرها الطائرات . . . أقلع (٠٠٠) مع الطائرات ، في نفس الوقت عادت مجموعة أخرى من (الهوكر هنتر) ظهرا على ارتفاع منخفض ، واستطاع (٠٠٠٠) أن يرى الدبابات المصرية أثناء تقدمها السريع ، ولاحظت الدبابات المعادية ، وبدأ منظرها من هذا الارتفاع المنخفض مرتبكا ، يسودها اضطراب ، ظهر الارتباك من الأوضاع التي اتخذتها . كان الاستطلاع الجوي المصري قد التقط صورا لأهداف العدو داخل سيناء المحتلة على فترات متفاوتة ، وكان الطيارون العراقيون يعرفون طبيعة الأهداف التي سيهاجمونها . عرفوا مواقع الدفاعات الأرضية المحيطة بموقع العدو في الطاسة لهذا قام قائد التشكيل بالاقتراب خلال زوايا مكنته من تدمير واسكات المدافع المضادة الاسرائيلية، بينما قامت طائرات أخرى بتدمير مواقع العدو ، وارتفعت السنة اللهب،



وبدا من الخفقات المفاجئة في النيران البرتقالية أن مخزنا للذخيرة قد أصيب، عاد (٠٠٠) مع الطائرات ، في نفس الوقت عادت مجموعة أخرى من (الهوكر هنتر) اشتركت في الهجوم على هدف آخر ولم تعد احدى الطائرات، فقد استشهد في هذا اليوم أحد زملاء (٠٠٠٠) وليد السامرائي ، أول طيار عراقي يفقد في الجبهة المصرية .

الاثنين ٨ أكتوبر ، جاء أمر بضرب حشود للعدو حول موقع الطاسة . توجه (٠٠٠٠) الى طائرته الساعة الرابعة وأربعين دقيقة . قبل صعوده الى الطائرة عانق ضابط التوجيه السياسي المصاحب للتشكيل ، وكان يودع زملاءه عند كل طلعة ، ويستقبلهم في العودة . وفي الساعة الخامسة اتخذ (٠٠٠٠) طريقه في السماء ، الشمس تقترب من حافة الأرض وثمة غيوم تبدو الى أعلى ، إذ أن (٠٠٠٠) يطير على نفس الارتفاع المنخفض وعند عبوره القناة رأى سيناء قطعة من النيران ، وكان كل عناصر الطبيعة انصهرت في اللهب ، وعلى الرمال تقدمت المدرعات

المصرية ، وعندما حلق (٠٠٠٠) فوق العدو ، أطلقت عليه النيران المدفعية الخفيفة ، وفي لحظة استطاع أن يرى جنديا اسرائيليا فوق دبابة يطلق نيران مدفع رشاش في اتجاه الطائرات ، وانطلقت رصاصات معادية لتستقر بجسم الطائرة ، صيبت من مقدمتها حتى مؤخرتها ، ظلت أجهزة القيادة والاجهزة الالكترونية سالحة ، اتصل (٠٠٠٠) بقائد التشكيل .
- أنا ضربت ٠٠ لكن طائرتي زينة (جيدة) .

استمر في اتجاه الهدف ، قبله بعشر ثوان ، رأى طائرتي ميراج في وضع تشكيل قتال فوق الهدف ، على ارتفاع حوالى ٤٥٠٠ قدم ، ومن اليمين ظهرت طائرتان من طراز فانتوم على ارتفاع شاهق حوالى ١٥٠٠٠ قدم ، ومرة أخرى اتصل بقائد السرب ، وأعطاه تلك المعلومات ، منذ بداية القتال أصغى (٠٠٠٠) الى كثير من التفاصيل التي رواها زملاؤه المصريون الطيارون على الميغ ٢١ ، والسوخوى ، والذين اشتبكوا بالفانتوم ، والميراج ، من خلال التفاصيل تبرز خبرة قتالهم ، يعنى (٠٠٠٠) ان كل طائرة لها مميزاتا وعيوبها . لا يوجد شيء كامل ، المهم هو الشخص الذى يقاتل عليها ، درجة وعيه لخصائص طائرتة ، هل عرفها أم لا ؟ الطيار الجيد هو الذى يجيد استخدام نقاط القوة والضعف ، ليس فى طائرتة فقط ، وانما فى طائرة العدو ، ان يركز على العين الضعيفة بملكاته ، ان الفانتوم غير مجهزة بشكل فنى للقتال الجوى ، وتتجنب القتال مع طائرة متخصصة فى القتال ، انها طائرة قاذفة مقاتلة ، وهى بذلك تتفوق على الطائرة المقاتلة فى القصف . ثم ان الطيار العربى أصبحت له خبرة بها ، بنقاط ضعفها ، واستطاع اسقاطها بالميج (٢١) منذ ديسمبر ١٩٦٩ عندما اسقط طيار مصرى على الميج (٢١) طائرة فانتوم اسرائيلية فوق خليج السويس ، فى أول اشتباك يجرى بين الطائرات العربية والفانتوم . فى سنة ١٩٦٧ أغارت طائرات اسرائيلية على القوات العراقية ، ضم التشكيل المعادى أنواعا من طراز (فوتور) القاصفة الأرضية ، و (الميراج) المقاتلة لحمايتها ، وتصدت الطائرات العراقية من طراز (هوكر هنتر) للعدو ، عمليا الميراج أخطر من الهوكر هنتر ، ولكن الطيار العراقى أسقط الميراج وقتئذ ، مهما تقدمت المعدات ، أو تطور السلاح ، يظل الانسان هو العنصر الفعال فى الاستخدام والحسم .

تقدمت الطائرتان رقم (١) و (٢) لضرب أهداف العدو ، بينما قامت الطائرة (٣) والطائرة (٤) التى يقودها (٠٠٠٠) بواجب الحماية ، اتجه تشكيل الميراج المعادى اليها ، وبسرعة قام (٠٠٠٠) وزميله بمناورة حادة بحمد ، أصبحت فى وضع لا يمكن الميراج من أصابتهما ، ويستطيعان من خلال هذا الوضع اصابة الأهداف ، تمكنا من أشعال النيران فى العديد منها . كانت دفاعات العدو كثيفة جدا فى المنطقة ، أتم (٠٠٠٠) واجبه ، بدأ يستدير للابتعاد بطائرتة المصابة ، غير أن اصابة لحقت جناحها الأيسر ، وجد نفسه فى وضع لا يمكنه من السيطرة عليها ، وراح هوشر الارتفاع يخفض بصورة رهيبه ، حاول جاهدا الارتفاع بالطائرة وتحتة رأى معركة كبير بين الدبابات ،

ويبلغ من انخفاض الطائرة حدا رأى معه قذائف مدفعية الميدان تتطاير حوله ، قبل أن يوجه مقدمة الطائرة باتجاه قناة السويس ، سمع قائد الطائرة رقم (٢) يتصل بقائد التشكيل ويقول « أصيبت طائرتي ، حريق بداخلها » كان هذا صوت زميله الطيار عامر ، وقد ظلت أخباره مقطوعة حتى عودة السرب العراقي الى بغداد ، وبعد فترة عثرت القوات المصرية على جثمانه بالقرب من ضفة قناة السويس ، وتولت دفنه في مقابر الشهداء المصريين ، والآن ، بعلم ما يقرب من عامين على انتهاء القتال لازال عامر العراقي ، يرقد الى جوار زملائه الشهداء المصريين . وسيظل بينهم الى الابد .

● ● ●
في اللاسلكي صاح المقاتل طيار (عبد القادر) قائد الطائرة رقم (٣)
مناديا (٠٠٠٠) .

(خلى بالك .. الميراج وراءك ..)
واستمر (٠٠٠٠) في اتجاه القناة .

بعد عشر ثوان شاهد (٠٠٠٠) طائرة رقم (٣) تهوى ، لم يعرف هل استطاع زميله الطيار (عبد القادر) القفز منها أم لا ؟ و (٠٠٠٠) خلفه طائرتا ميراج ، على بعد حوالي خمسة كيلو مترات ، وجه طائرتيه باتجاه قرص الشمس الغارب حتى لا يستطيع طيار الميراج التصويب نحوه بدقة لقوة الضوء . وللمرة الثالثة يصاب .. (٠٠٠٠) ، اشتعلت النيران في جناح طائرتيه الايمن ، أصبح الدخان لزجا وكثيفا يوشك أن يخفقه ، لكنه أصر الا يغادر طائرتيه ، اتخذ قرارا وأصر أن ينفذه حتى ولو أحترق مع جسم طائرتيه المعدني المشتعل ، قرر الا يقع في الاسر أبدا .. انه بطبيعته لا يقبل الالهانة ، حتى في أدق الأمور ، والتفاصيل الصغيرة في حياته ، والاسر يعني بالنسبة له تعرضه للالهانة من جانب عدو يحتقره ، عندما رأى مياه قناة السويس الزرقاء ، كانت الطائرة قد وصلت الى أدنى ارتفاع لها ، وكما محاولة أخيرة بذل أقصى ما في وسعه لكي يدفعها الى أعلى ، واستقام لها ، وكماولة ثم قفز منها ، شعر بلهب نار من اليمين ، رفع يديه ليغطي وجهه ، فتحت المظلة ، وعندما لامس بقدميه الأرض لاقى صعوبة في فصلها عن جسده ، غير انه نجح فعلا في ذلك ، لمح حفرا قريبة ، أسرع على احداها ، لزمها ومعه حقيبة مؤن ، كان منهكا ، فلحظة قفز الطيار بالمظلة تعرضه لتحمل ضغط وجهه غير عاديين ، من حفرتيه رأى طائرة ميراج معادية ، انطلقت عليها الصواريخ المصرية ، وأشعلت الطائرة بالنيران ، انفجرت في الجو ، سمع أصوات طلقات نارية قريبة ، زحف (٠٠٠٠) خارجا من الحفرة لمح سيارة نقل عسكرية مصرية ، انتابه فرح بعد تأكده منها ، أخرج علما أبيض لوح به آليهم ، اقترب منه الجنود المصريون بحذر ، قال انه طيار عراقي ، وان طائرتيه أصيبت ، تقدم منه ضابط مصري برتبة ملازم ، تأكد من شخصيته وعندئذ ضمه الى صدره، وقبله ، وأحاطه المقاتلون المصريون ، احتضنوه وقالوا بتأثر:

« حمد الله على السلامة يا بطل .. »

كان (٠٠٠٠) مرهقا ، ان الجهد الذي بذله خلال الطيران ، بمحاولة

السيطرة على الطائرة بعد اصابتها ، ثم قفزه بالمظلة ، وانتقاله من الحركة المطلقة الى الثبات ، والأرض ، والاطار المتعددة ، عناصر عديدة تكالبت عليه ، أصابته بأعياء شديد ، لدرجة أن الوقوف كان يؤلمه ، ركب السيارة الى مركز قيادة خلفي ، شرب شايًا ساخنًا ، تناول طعامًا خفيفًا ، ثم نقل في عربة أسعاف الى أحد المستشفيات بالقاهرة .
(٢)

عندما أصبح المقاتل طيار (عبد القادر) قائد الطائرة (٣) قريبًا من القناة بدأ مطر خفيف ثم انقطع ، قبل اقترابه من أهداف العدو حول الطاسة سمع (٠٠٠٠) في اللاسلكي يبلغ عن وجود طائرات معادية ، حاولت الطائرات المعادية مهاجمتهم ، لكن اصابت طائرات تطير على ارتفاع منخفض جدًا أمر صعب للغاية وصاح قائد التشكيل :
- الطيران نحو الهدف مهما كلف الثمن .. غايتنا الطاسة وليست الطائرات .

لجأ العدو الى مناورة أخرى ، اذ انطلقت طائرة ميراج على ارتفاع منخفض أمام المقاتلات العراقية لاغرائها على الارتفاع ، بينما تقوم طائرتنا ميراج بمهاجمتها من الخلف في اللحظة التي يرتفعون فيها ، وتنبه الرجال الى الفخ ، استمروا في اتجاه الهدف ، بدأت الدفاعات الأرضية ، تطلق النيران خصص لعبد القادر مهاجمة الرادرات المنتشرة حول الطاسة ، لاحظ تجمع دبابات كبير الى اليسار ، قررا الانقضاض عليهم ، وجه الطائرة ناحية الدبابات ، أطلق مدافعه ، ثم أطلق صواريخه على أجهزة رادار صواريخ الهوك ، اتخذ اتجاه العودة ، في هذه اللحظة فقد الاتصال بقائد التشكيل ، تعطل جهاز اللاسلكي ، لمح (عامر) الى يمينه على بعد ثلاثمائة متر بينما أمر (٠٠٠) في مهاجمة الهدف ، رأى طائرتي ميراج تقتفیان أثر (٠٠٠) . صاح في الجهاز :

- ابقى واطيء بعد الضرب .
في هذه اللحظة أصابت طلقة مدفعية مقدمة الطائرة ، أصيب جنود الطيران بشظية ، في اللاسلكي صاح عبد القادر :
- أصبت .. الضرب شديد .
أجاب قائد التشكيل :
- أدري ..
وجاء صوت عامر :
- أصبت في المحرك ..
أجاب القائد :

- حاول الوصول الى القناة ، لو اشتبكنا سنسقط في أرض معادية .
كان قائد التشكيل حريصًا على أن يصل (عامر) بأى ثمن الى الأرض التي يسيطر عليها المقاتلون المصريون ، مما يخجله أن يعود سالمًا بينما يتخلف رقم (٢) أو رقم (٣) من اللحاق به ، ان هذا في نظره ، قادة التشكيلات

عيب كبير ، لهذا يبذل القائد أقصى جهده ليبقى باستمرار مشرفا على حركة رجاله وطيرانهم ، وفي مثل هذه المواقف تبدو قيمة الانضباط العسكري ، ويبدو أن (عامر) قد نفذ أوامر القائد ، دفع طائرته المصابة حتى وصل الى الأرض المحررة ، ثم اختفى ، وبعد فترة عشر على جثمانه .
لاحظ عبد القادر أن الميراج لازالت تتبع (٠٠٠٠) . وفي اللاسلكي استطاع أن يسمح الاتصالات الدائرة بين الطائرات المعادية ، أصيب خزان الوقود الرئيسي بطلقة مدفعية مضادة ، انتشر دخان كثيف ، في هذه اللحظة اختفى عامر تماما ، أدرك عبد القادر أن النار لو لحقت خزان الأوكسجين فسينتهي كل شيء ، قرر ان يغادر الطائرة ، وفي الثانية الأخيرة أعطى بلاغا للقائد :

- أصيبت طائرتي . . سأغادرها .

تلا الشهادة ، ثم أصبح في الفراغ ، رأى الأرض تقترب منه والمظلة لم تفتح بعد ، لم يشعر ففتحها ، وبداله ما يمر به حلما غامضا ثقيل ، وتساءل أهذا هو الموت ؟ أمسك الرمال ، اذن لا يزال جسدا حيا ، فك المظلة وعلى بعد عشرات امتار رأى دبابة اسرائيلية ، الى اليسار ، قاعدة صواريخ عموك ، ان تفكيره يتوالى بسرعة ، فقد مسدسه . بدأ يجرى وفي اتجاهه انطلقت رصاصة سريعة ، انبطح أرضا ، تحركت عربة مجنزرة نحوه ، توقفت على بعد قليل منه ، لم يظهر منها أحد ، تحركت الدبابات حركة دائرية غريبة ثم اكتشف أن دوارا أصابه ، تحركت المجنزرة ، صاح صوت بغيض :

- امتد . .

لم يستجب ، قرر ألا يموت كالخروف ، لو قتلوه ، فليمت واقفا ، اقترب منه جندي صهيوني ، دفعه بشدة ، امتلات عيناه بالرمال ، سالت الدماء على جانبي فمه ، عصبوا عينيه ، رفعوه الى داخل المجنزرة ، بدأت تتحرك ، ولم يكن في وضع يسمح له بتقدير الوقت الذي استغرقه المسير ، اقترب منه أحدهم ، فتح سترته ، سرق علبه السجائر ، وكانت محويات جيوبه ، بطاقة الهوية المصرية ، وريال سعودي ، ودرهم كويتي ، وجنيه مصرى ، توقفت المجنزرة ، ثم بدأت تنحدر ، تمشى فوق طريق مسفلت ، أصبحت أصوات المدفعية نائية بعيدة ، أنزلوه ، دخل حفرة مسقوفة ، نزعوا العصابة عن عينيه ، وكان جنود يوجهون اليه اللكمات ، والضربات ، وبرغم آلامه حرص على أن يمشى منتصب القامة ، حتى لا يعطيهم انطبعا أنه يعاني ولا يستطيع تحمل معاناته .

● ● ●
جاء أحدهم يتحدث الانجليزية بلهجة أمريكية ، تأمل الجرح النازف في رأسه ، أما الشظايا التي استقرت في ساقه فلم يبد عليه انه لمحها حتى كتب كلمات في ورقة ، جاء عريف اسرائيلي ، طويل ، خشن ، يتكلم العربية ، أعطاه حبة ، رفض أن يتلعبها ، أمسكه من ذراعيه ، حاول جندي آخر أن يدفع بالحبة في فم عبد القادر ، لكن عندما رأى الدماء تزداد على جانبي فمه ، ابتعد عنه ، لم يستطيعا ارغامه على تناول القرص ، أخذوه الى غرفة أكثر اتساعا ، جاءت مجندة تحمل كوب ماء ، لاحظ ان خلفها مصورا ، قرر الايعطي

انطباعاً بأنهم يعاملونه بشكل جيد ، فى نفس الوقت جمع كل ما تبقى فى طاقته حتى يبدو متماسكاً فى الصورة ، جاء العريف مرة أخرى ، دفعه بخشونة ، عصب عينيه ، دفعه الى الخارج ، أجلسه على صخرة ، شده اليها، تركه، قضى عبد القادر ليلة كاملة فى العراء ، معصوب العينين ، بدون طعام ، يصغى الى أصوات الجبل ، والصحراء والليل ، والانحجارات المكتومة البعيدة وكلما مضت ساعات الليل يشتد البرد . وفى الصباح وصل الى درجة انهم لو قطعوا ساقه فلم يكن سيشعر بها ، جاءوا ، فكوا وثاقه ، سأله أحدهم .

– هل ستستعمل مصر الغازات ضدنا ؟

هز عبد القادر رأسه :

– لا أعرف . . لكننى أعرف أن الطائرات المصرية ستهاجم بعنف .
كان يريد تضخيم القوات المصرية فى نظرهم ، فى أحاديثه ، وسوف ينعكس هذا عليهم بدرجة ما ، دفعوا به الى سيارة نقل ، استمرت تسير فترة ، يظن انه وصل الى العريش ، نزلوا به الى مبنى ، الطريق اليه منحدر تحت الأرض ، اجلسوه على كرسى خشب ، وحوله بدأت أصوات سكاكين ، وطلقات رصاص ، وعلى باب الغرفة ظهر جندي اسرائيلى أطلق شعره كالهبيز ، ملتج ، حمل حقيبة فتحها بها آلات جراحية ، برغم اعيانه الشديد ، حاول الإبقاء على ذكائه حيويًا ، نابها ، أدرك انه لو التزم العنف فسيقابل هذا بعنف أكثر ، ولو أبدى ليينا فسوف يتجرأ الصهيونى عليه ، اذن لبرأغه .
بدأ الصهيونى يوجه اليه الأسئلة التى تستهدف بالطبع معرفة أى قدر من المعلومات ، من كان معك ؟ من أين اقلعت ؟ ، وأجاب عبد القادر بانفى ، لا بد ان يبدأ بتشدد ، ثم يجاوبه وفقاً لأسلوب خاص ، دخلت مجنونة تحمل صينية عليها طعام مكون من بيض مقلى ، وجبنة بيضاء ، وطماطم ، وعلى مهل بدأ الصهيونى يأكل متلذذاً ، وعلى الرغم من جوع عبد القادر الشديد ، فقد أبدى لا مبالاة غير محدودة ، نقلوه الى بناية أخرى ، جاء ضابط أمريكى برتبة عميد (بريجادير) .

– أين نزلت الميراج الليبية ؟

قال عبد القادر :

– لا أعرف .

مرة أخرى سأل الضابط الأمريكى الملامح واللهجة :

– كم عددها .

– لا أعرف .

هز رأسه ، أشار بذقنه :

– خذوه .

ثم التفت الى عبد القادر قبل أن يعصبوه :

– تشرب ماء ؟

وبرغم الظم الشديد ، هز عبد القادر رأسه :

– لا .

دفعوا به الى طائرة بعيدة ، بعد فترة نزل أحد المطارات ، وسمع

صوت ناس تتحدث ، عربات ، وصياح أحدهم ، وغناء منبعث من راديو، سفح مدينة ، وعلى الرغم من آلام قدمه المبرحة التي استقرت فيها الشظايا، وجوعه، وآلامه ، يديه الماثقتين خلف ظهره ، وعينيه المعصوبتين ، راح يمشى متماسكا، بحزم ، رفع رأسه قليلا الى الورا ، ان عبد القادر يرى في نفسه الآن ممثلا لكافة المقاتلين الذين عاش معهم ، مصريين ، عراقيين ، جزائريين . . . في تلك اللحظات يصبح كل تصرف مهما صغر يحوى دلالات وابعادا أكبر منه بكثير، أخذوه الى سجن حربي قريب من تل أبيب ، فتحوا عينيه في زنزانه مصمتة، بعد قليل جاء ثلاثة صهاينه سحبه بفظاظة ، اتجهوا به الى مبنى أدرك فيه انه مخصص للمخابرات الاسرائيلية :

– ارفع يديك .

تركوه ، بعد فترة اخذوه الى الداخل ، نزعوا العصابة عن عينيه ، رأى رجلا شواربه صفراء ، قال :

– ماذا قال معروف الرصافي عندما نفاه عبد الاله الى الفلوجة ؟ ونظر اليه عبد القادر صامتا . كان يعرف بيت الشعر الذي قاله الرصافي ، لكنه رفض البوح به حتى لا يوجد علاقة بينه وبين الاسرائيلي ، عبد القادر ينظم الشعر ، ويحفظ آلاف الابيات ، ثم انه يعرف أسلوبهم انهم يبدأون الحديث مع المقاتل الاسير بجملة أو عبارة شعبية دارجة ، أو مثل معروف ، أو بيت شعر ، حتى يبدو وكأنهم عالمين بكل شيء . بعد لحظة قال الصهيوني :

– أبلاط أم ملاط ، أم مليك بالمخانبث محاط ؟

نزعوا ملابسه ، ان اعرى جزء من عملية اذلان بمقصوده ، بينما تردد على القرب أصوات تعذيب وضرب ، وأحاديث بلغة عبرية ، أخذوه الى زنزانه، دخل ، صلى ، انه شديد التدين ، حج الى بيت الله في مقتبل عمره ، وينادية زملاؤه دائما « يا حاج عبد القادر . . » وعندما تسلل الى عينيه النوم ، جاءوا بضجة ، أيقظوه ، لا يريدون ان يذوق النوم ، مرة أخرى وجد نفسه أمام الصهيوني . أعادوه الى زنزانه أخرى كل جدارتها مطلية باللون الأحمر ، لون فاقع مثير للأعصاب ، دخل أحدهم ، راح ينظر اليه بصمت لمدة ساعة، ثم جاء جندي آخر عصب عينيه ، شدة من يديه بقوة ، قادوه الى الخارج ، انه رباط النايلون انه أشد وعورة من الكلابش أو أو الجبل حيث يفوص بطراوته وليونته في اللحم ، أجروا معه تحقيقا ثانيا ، ثم أعادوه الى الزنزانه ، وهكذا استمر به الحال لمدة خمسة عشر يوما ، حتى نقلوه الى عنبر به الاسرى المصريين ، وكان عبد القادر ولد من جديد ، استقبله زملاؤه المصريون بترحيب ، عانقوه ، وأفردوا له مكانا خاصا في العنبر ، ورأى معنوياتهم عالية للغاية ، كانوا يضحكون ، ويسخرون من العدو باستمرار ، وفي الليل ترتفع أصواتهم بغناء قوى ، يرج السجن رجا ، لدرجة ان العدو يسرع فورا محاولا أسكاتهم ، وفي العنبر رأى عبد القادر أكثر من مقاتل مصري كل منهم يتنافس على أضحاك العنبر كله ، كانت الروح العربية المقاتلة تتألق هنا وتضوى في ظلام الاسر كأشد ماتكون ، ثم نقلوا عبد القادر مرة أخرى الى عنبر آخر ، والتقى بزميله المقاتل الطيار(عماد)

فجر أحد الأيام ، جاء أفراد من العدو ، قالوا ، هيا ستذهبون الى القاهرة ،
مروا في الطريق بشوارع ، لاحظوا ارتفاع نسبة الأطفال والعجائز ، وقلة
الشباب والشابات همس عماد :

.. هيا نضحك ونتكلم .. كأننا لأنبالى .
في المطار التفت سائق السيارة اليهم ، وقال :

.. انتم طياران ؟

أوما برأسيهما ، قال :

.. والله خليتهم مراتض المدفعية فحم في سيناء .

في المطار رأيا زميلهما (دريد) ، سعدوا معا الى طائرة الصليب
الأحمر ، من طراز : D.C.E أصبحت أعصابهم مشدودة ، متى يعمل المحرك؟
أغلقت أبواب الطائرة ، بعد الاقلاع تعانقوا ، اقتربوا من كابينة الطيار ،
عند دخول المجال الجوي لمطار القاهرة .. قال عبد القادر للطيار :

.. أريد ان اسمع نداء من مطار القاهرة .

أعطاء الطيار الميكرفون الاحتياطي :

.. وجاء صوت القاهرة ..

التفت عبد القادر وعلى وجهه ابتسامة عميقة ، عريضة ورفع أصبعيه

لزميليه دريد وعماد ، بعلامة النصر .

(٣)

.. أول أكتوبر ١٩٧٣ استعد عدد من الطيارين العراقيين في مصر
للعودة الى بغداد في اجازة دورية معتادة ، و جهز (عماد) حاجياته ، وسأل
زملاءه ، هل يرغبون في ارسال خطابات الى عائلاتهم في العراق ، واستعد
بعضهم لكتابة الرسائل ، لكن الاوامر جاءت يوم ٥ أكتوبر بتأجيل الاجازة
حتى الانتهاء من التمرين الذي بدأ منذ أيام .

ظهر السبت قام قائد السرب بعقد اجتماع مع الطيارين وقال ان الامر
ليس تدريبا ، ولكنها الحرب ، ثم دعا اقدم ثلاثة موجودين ، وكلفهم
بالاشراف على تكملة جميع الاحتياجات وبدأت فرحة الرجال كبيرة باللمحظات
التي انتظروها طويلا ، طويلا ، قبل الاجتماع كان عماد قد جلس يلعب
الشطرنج مع أحد الزملاء المصريين ، التقى به عند اتجاهه الى الطائرة
لوح له ..

.. سنكمل اللعب بعد ان أرجع .

بدأت الطائرات تقلع ، بين كل عدد منها فاصل زمني حتى يتم عبورها
القناة مع الساعة الثانية وخمس دقائق ، طار عماد كقائد تشكيل ، هدفه
ضرب مواقع العدو في منطقة عيون موسى . ومن الطائرة رأى (عماد) المباغثة
الرهيبه ، جرى الاسرائيليون ، ثم ضرب قواعد الصواريخ ، التقطت كاميرا
مثبتة في الطائرة فيلما كاملا لآثار التدمير الذي حدث في المواقع الاسرائيلية ،
بعد عودة التشكيل تم طبع الصور ، علقت في غرف الطيارين ، وغرف الطعام ،
أثناء العودة لمح (عماد) جنودا مصريين يعتلون الساتر الرملى لخط بارليف ،
يرفعون أيديهم يلوحون بعلامة النصر ، وبدأ المنظر رائعا ، الى يمين (عماد

حلقت طائرة ميغ ٢١ يقودها أحد زملائه المصريين ، وإلى اليسار حلقت طائرة (سوخوى) مصرية ، ثلاثتهم عائدون من الأغارة على مواقع العدو في عيون موسى ، وبدا المشهد رائعا يلخص العديد من المعاني ، أبرزها وحدة المقاتلين العرب ، بينما تردد في أجهزة اللاسلكى داخل كبائن الطائرات صيحات الطيارين ..

.. الله أكبر .. الله أكبر ..

يوم (٧) طار عماد مرة ثانية ليشارك فى الهجوم على المواقع العدو فى الجدى والطاسة ، وفى يوم (٩) عاد الى أجواء سيناء مرة أخرى ليهاجم طابور دبابات اسرائيلية ، ومن أعلى رأى أوضاع الوحدات المعادية التى تعكس اضطرابا وجزعا من الضربات العربية القاصمة ، يوم الأربعاء العاشر من أكتوبر استعد عماد للطيران ، أكثر اللحظات فرحا بالنسبة للطيار هى التى يتلقى فيها أمر القتال ، ثم الطيران . وأشد ما يزعجه ، بقاؤه فوق الأرض بدون واجب قتالى ، اتجه (عماد) مع زملائه المصريين والعراقيين لمهاجمة تجمع للدبابات المعادية جنوب الطاسة بثلاثة كيلومترات ، يبدو أن الصواريخ أصابت مستودعا للذخيرة ، إذ ارتفعت السنته عالية جدا من اللهب . توالى انفجارات ، لم يسبق لعماد ان رأى نارا كهذه الا فى الأفلام السينمائية من حيث كثافتها وعنقوانها ، صاح أحد الطيارين فى اللاسلكى .

.. الضرب رائع ..

بدأت المدفعية الأرضية المعادية تركز نيرانها على الطائرات . أصيب الجناح الايمن لطائرة عماد ، صاح قائد الطائرة رقم (٢) ..

.. أصبت يا عماد ..

رد فى اللاسلكى :

.. ادرى .. ولكننى اسيطر على الأجهزة .. ساكمل ..

مرة ثانية أصيبت الطائرة فى الذيل ، فقد القدرة على التحكم فيها ، اضطرت الى القفز منها على ارتفاع منخفض جدا ، وعندما أحاط به جنود العدو ، عصبوا عينيه ، سمع أصوات قنابل قريبة جدا ، ظن انهم سيعدون به كميناً ، وبدأ رحلة الأسر ، الانتقال باللوريات ، الوصول الى مطار حيث (دريد) أصيبت طائرته فى اليوم التالى لاصابة عماد ، عندما رأى زميله صوت اقلاع وهبوط الطائرات ، التعذيب ثم لقاء بطيار عراقى زميله قال :

.. الواجبات مستمرة .. جماعتنا مستمرين بالطيران ..

كل تصرفات العدو مخالفة لقواعد معاملة الأسرى ، حيث التعذيب المستمر ، الحبس الانفرادى ، الحرب النفسية المتصلة ، الصياح بأسماء غير موجودة ، أدرك عماد كذبهم ، اذاعة تسجيلات لأصوات تعذيب ، ثم أصوات وآلات حفر ، وفى ليلة ٢٢ جاء أحد الضباط الاسرائيليين ، أخرج عماد من الزنزانة ، ولأول مرة يرى بعض زملائه : عبد القادر ، ودريد ، وسعد الذى أصيب على الجبهة السورية ، وفى إحدى الليالى ، جاء ضابط أخرجهم واوقفهم فى بداية ممر طويل ، صاح :

- أجروا :-

وتشابكت ايديهم ، هذه حيلة معروفة ، عند بدء الجرى يطلقون عليهم النيران ، ثم يزعمون انهم حاولوا الهرب ، ولأن كلا منهم أعد لنفسه لاسوا الأشياء لم يبد لهم الموت غريبا ، لكن في النهاية المر فتح الباب ، خرجوا صعدا الى أوتوبيس ، لم تعصب عيونهم . بينما بدت لافتات تشير الى تل أبيب - المطار ، في منطقة معينة ، سعد بعض الاسرى المصريين ، تعانق العراقيون والمصريون .

- الى أين ؟

قال المصريون :

- الى القاهرة . .

وعرف العراقيون أن زملاءهم المصريين أضربوا عن الطعام ، لمدة عشرة أيام متصلة عندما عرفوا بوجود اسرى عراقيين لا يعلمون عنهم شيئا ، ظنوا انهم قتلوا ، ولم ينته الاضراب الا بعد فلك الحبس الانفرادي عن عماد ودريد وعبد القادر وبقية زملائهم ، وتأكد المصريون من سلامتهم ، في الطائرة قال مندوب الصليب الاحمر :

- رفض المستولون المصريون اجراء أى تبادل في الاسرى حتى تتم

الموافقة على أعادتكم . . كان المفروض ان تبدأ عمليات التبادل يوم ٢١ ولكن تأخرت حتى ٢٣ بسببكم .

في القاهرة نقلوا الى مستشفى خاص للعلاج ، لتزويدهم بالفيتامينات والادوية المقوية ، ثم جاء الفريق حسنى مبارك قائد القوات الجوية المصرية وقتئذ ، عانقهم واحدا ، واحدا .

قبل ان تبدأ حرب أكتوبر وضعت قيادة القوات الجوية العراقية خططا مفصلة مسبقة لما يتم عملة فيما لو قامت الحرب بين القوات العربية والاسرائيلية ضمت هذه الخطط أدق التفاصيل المتعلقة بالتحركات التي سوف تتم لو نشبت الحرب على الجبهة السورية ، والأردنية ، أو المصرية ، تضمنت أيضا أنواع الطائرات واعدادها التي سيتم دفعها هنا وهناك . لهذا فان القيادة الجوية العراقية لم تبدأ يوم ٦ أكتوبر ، بالتخطيط انها بدأت بتنفيذها هو مخطط عندما قررت الثورة العراقية دخول الحرب ، وصدر قرار بوضع الجيش العراقى كله تحت امرة القيادة المصرية والسورية ، وهكذا اندفعت ألوية كاملة من (الميج ١١) و(الميج ١٧) و(السوخوى) الى الجبهة السورية ، وكان استيعاب القواعد السورية للسوخوى أكثر من الميج ٢١ ، وهكذا دفعت جميع طائرات السوخوى الى سوريا . لم تبق طائرة واحدة من هذا الطراز في العراق ، في اليوم التالى مباشرة لبدء القتال ، واشتركت خلال نفس اليوم في الحرب ، حيث تضمنت واجباتها حماية الارتال العراقية المتحركة الى الجولان ، والهجوم على الأهداف الاسرائيلية التي تحددها القيادة السورية ، وتبقى في العراق بعض الطائرات المقاتلة للقيام بواجبات الحراسة ، اد أن القيادة الجوية العراقية قدرت من قبل إمكانية قيام اسرائيل بهجوم جوى عبر الاراضى السعودية على القواعد العراقية ، وخاصة ان العدولديه

طائرات الفانتوم ذات المدى البعيد .

(٥)

تم تحريك الاسراب العراقية الى القواعد السورية . من المفروض أن يتم استطلاع مسبق ، لكن لم يكن هناك الوقت الكافي ، تم بسرعة استلام الشفرات الخاصة بالطائرات . وكحل لمشكلة تعرف الطيارين العراقيين على الأهداف الأرضية والعلامات التي تساعدهم في الاتجاه الى الهدف ، تمت الطلعات الأولى للطائرات العراقية بقيادة طيارين سوريين . ثمة صعوبة خاصة باختلاف بعض المصطلحات العسكرية المستعملة في القوات الجوية السورية عن تلك المستخدمة في القوات الجوية العراقية ، غير ان حماس الجميع للقتال قهر كل الصعوبات ، اندفع الطيارون العراقيون والسوريون للاشتباك بطائرات العدو ومهاجمة أهدافه الأرضية ، ولعبت الطائرات العربية دورا أساسيا في كسر حدة الهجمات الجوية المعادية والتي بلغت شدتها خلال الأيام الأولى من الحرب حيث اتعمد العدو على سلاحه الجوي بشكل رئيسي في محاولة تدمير القوات السورية . وفي مساء الجولان ، حدث كثيرا أن فر طيارو العدو ، أمام المقاتلين العرب رغم طائراتهم الحديثة، والمجهزة بأحدث المعدات ، دمر المقاتل طيار العراقى (ابراهيم) أربع طائرات اسرائيلية بطائرته الميخ ٢١ ، وعندما أصر المقاتل طيار (جودت) على الطيران نصحه الطبيب بالبقاء لانه مريض منذ سنتة شهور ، لكنه أصر على الطيران ، وطار فعلا على الميخ ١٧ ، وهاجم العديد من أهداف العدو ، وبدأ المقاتل (حسن عيد) مندفعا جدا ، حلق في الجولان ضاربا رقما قياسيا في عدد الطلعات التي يمكن لطيار ان يقوم بها في يوم واحد . وفي أحد أيام الحرب ، شاهد طائرة فانتوم معادية الى جهة اليمين ، لم يتردد ، قام بمناورة حادة حيث أصبح بطائرته الميخ (٢١) في وضع يسمح له بمطاردة الفانتوم وعلى الفور انطلق الطيار الاسرائيلي بسرعة الصوت هاربا ، استشهد حسن عبيد خلال الأيام الأخيرة من الحرب . وفي الساعة ١٠ر٤٥ يوم ١٢ أكتوبر اشتبك أربع طائرات عراقية من طراز ميخ ٢١ مع عدد من الطائرات الاسرائيلية ، وتث اسقاط ثلاث طائرات فانتوم ، وفي نفس اليوم تمكن طيار عراقى من اسقاط فانتوم أخرى ، لكنه لم يهبط في القواعد السورية ، ويعتقد بأنه أصيب من الطائرات المعادية ، انفجرت طائرته في الجو ، وروى أحد الطيارين السوريين (ان هذا الطيار اتصل بمحطة الرادار ، طلب توجيهه نحو طائرة معادية أخرى بالرغم من عدم كفاية الوقود الا للهبوط) فقد الاتصال به ولم يعثر عليه حتى الآن .

عندما وصل المقاتل طيار (محمد) قائد سرب السوخوى العراقى الى مطار (بلى) السورى الامامى ، الواقع على طريق السويداء ، فكر ، لو أن عملا مسبقا تم بين الطيارين العراقيين والسوريين لأصبح الوضع أفضل والتجانس أشمل ، ولكنه بدأ على الفور في تذليل تلك الصعوبات بالعمل المشترك ، تعرف الطيارون على المنطقة ، اشتراكوا في أول طلعة يوم ٨ أكتوبر ، وتولوا الهجوم على طوابير العدو المدرعة ، واسناد القوات السورية

في القطاع ، تعرض مطار (بلي) لغارات معادية ، في احدى هذه الغارات ، أصيب مقر الطيارين ، لكنهم تواجدوا كلهم بعيدين عن الفرقة في هذه اللحظات . أصيبت أيضا ممرات الطائرات ، لكن بعد فترة قصيرة جدا أعيدت الى العمل ، بواسطة جهود أفراد الجيش الشعبي السوري المكثفة والشاقة ، والتي بلغت درجة عالية من الحماسة .

في اليوم التالي قام الطيارون العراقيون بتنفيذ واجب صعب ، اذ أقلعوا في وقت متأخر قرب الغروب ، في اتجاه الشمس ، وبدت الأرض متموجة . غير سهلة ، بها عوارض أرضية ، يتطلب الطيران دقة عالية في مثل هذه الظروف ، لكن كل هذه الظروف ذلك بفضل حماس الطيارين الفائق ، هاجموا قسما من القوات الاسرائيلية التي كانت تحاول التقدم الى الجولان ، انقضت الطائرات على مقدمة الرتل المعادي . ثم تعطيله ، ثم انقضت الطائرات على الرتل .

عند العودة كانت هناك غارة على مطار (بلي) . وبسرعة هاجمت الطائرات العراقية التشكيل الجوي المعادي الذي يحاول ضرب المطار ، وقام بعض الطيارين بمطاردتها ، وعندما استعدت الطائرات للنزول ، تبين أن الممرات مضروبة ويجري اصلاحها ، مما اضطرها الى الهبوط في مطار آخر ، جهد شق بذله الطيارون ، ورغم هذا القتال المتصل المتلاحق ، فقد قاموا بعد ساعتين بتنفيذ واجب ليلي في نفس المنطقة ، بعد بدء الهجوم الاسرائيلي المضاد ازدادت طلعات الطائرات وطراً تغيير على الواجبات القتالية ، فبدلاً من تنفيذها طبقاً لخطط مسبقة ، أصبحت الواجبات فورية ، وفي جميع اللحظات كان الطيارون العراقيون مستعدين للاقلاع ، لتقديم الاسناد الفوري التشكيلات الارضية ، أو للاشتباك بالطائرات المعادية .

● ● ●
بعد وصول المقاتل طيار (حسين) الى مطار المزة القريب من دمشق بنصف ساعة قادمة من العراق . طلب تنفيذ واجب قتالي يتعلق باسناد بعض التشكيلات السورية . وتقدم المقاتل طيار (حسين) فوراً لتنفيذ المهمة ، هذه هي المرة الأولى التي يطير فيها فوق الجولان ، في اليوم التالي مباشرة ، في الساعة الثانية عشرة والنصف ، توجه لضرب مناطق تجمع العدو . . تولى قيادة التشكيل ، ولم يكن قد تعرف جيداً الى المنطقة ، ان الطيار اذا تعرف جيداً الى المعالم الارضية ، يستطيع ان يذهب ويرجع بدون خريطة ، غير أن المقاتل حسين ، اندفع على رأس التشكيل بحماس نادر لتنفيذ المهمة . . هاجم الدبابات المعادية ، طار أفراد العدو الذين حاولوا الافلات بالرشاشات . في العودة انطلقت عليه المدفعية الاسرائيلية . شعر برجة في الطائرة ، حاول توجيه الطائرة للخروج بها من النطاق المعادي غير أن الطائرة اشتعلت فيها النيران ، ارتفع بها الى مسافة ٣٥٠ متراً المسافة التي تمكنه من فتح المظلة ، قفز من الطائرة ، بعد لحظات لامس الأرض بقدميه . تطلع حوله رأى اثنين من مشاة العدو ، ان تسليحه عبارة عن مسدس فقط ، من هنا تبدو المقاومة صعبة ، وعورة المنطقة ساعدته على الاختفاء ، اختبأ خلف صخرة ، في هدم

اللحظة بدأ تبادل إطلاق نيران مدفعي بين العدو والقوات العربية ، استغل هذه الفرصة ليتخلص من المكان الذي رصده فيه ، لم يعرف اتجاهه ، لكن انطلاق المدافع العربية حدد له الاتجاه ، قدر تصرفهم . بعد توقف إطلاق النيران سيبحثون عنه في اتجاه الجبهة التي تنطلق منها المدافع العربية ، قرر أن يمشي في الإتجاه المضاد ، جبل الشيخ كان الى يمينه أثناء الذهاب ، أصبح الآن الى يساره ! بعد خمس دقائق قطع خلالها حوالي مائتي متر مشيا توقف لحظات . ثم استمر . وعندما أصبح في منطقة عارية زحف على بطنه . ظهره يؤلمه . أصبح الآن في منطقة بها مزروعات ، بعد قليل رأى راعي ملامحه عربية ، اختفى عنه في البداية ثم ظهر أمامه فجأة ، قال :

— أنا طيار عراقي . .

ابتسم الرجل مرحبا . . سأل (حسين) بحذر :

« أين أنا الآن ؟ أين دمشق . . »

قال الراعي :

— على بعد ٤٥ كيلو مترا .

لمح « حسين » ملاقة فيها حب ، فتح الرجل ذراعية . احتضنه ، قال له :

— عملت مير أنك ماذهبت الى هذه المزرعة . . انها بيت جن . . فيها

يهود الآن .

قال حسين بعد أن زال جو الجذر والتوتر .

— أريد أن أتصل بقطعاتنا .

قال الرجل ان حركته صعبة ، ولكن عنده ابن يمكن أن يكلفه بهذه المهمة ، دعا « حسين » الى قضاء الليلة عنده ، على مقربة من بيت الرجل تمركزت سرية استطلاع سورية ، في الليل أرسل الراعي ابنه اليهم ، وفي الصباح جاء ضابط وأربعة جنود ، قال الضابط :

كان حسين مثالما للغاية من ظهره ، عانق الراعي العجوز ودعا ، وقبل ابنه الذي يبلغ من العمر أربعة عشر عاما ، ثم صحب زملاءه السوريين ، ساروا في خط متعرج ، وبعد حوالي كيلو متر توقف حسين دقيقتين ، اشتد عليه ألم ظهره ، يحدث هذا نتيجة للقذف من الطائرة ، ان جسم الطيار يتحمل ضغطا جويا يعادل وزن الجسم خمسا وعشرين مرة ، استأنفوا السير حتى وصلوا الى الموقع .

بعد انتهاء الحرب ، وعودة حسين الى العراق ، سافر مرة أخرى الى دمشق . ذهب يبحث عن الراعي العجوز ، كان يحمل هدية بسيطة ، وعواطف بلا حدود ، في البداية قطب الرجل جبينه عندما رأى حسين . ولكن في هذه اللحظة ، اقترب الابن ، عانق (حسين) . صاح الرجل مرحبا ، وتعانق الجميع .

وفي الجولان كانت القوات الجوية العراقية قد خلفت وراءها جظام ١١ طائرة سوخوي الآن ، بينما أسر طيار واحد . في بغداد . ذهب كبير ضباط التوجيه السياسي للقوات الجوية ، والذي

صاحب السرب العراقي طوال مدة اقامته بمصر ، الى أحد احياء بغداد ،
طرق باب بيت من طابق واحد شأن كل بيوت بغداد الخاصة ، ودخل ، التقى
برجل عجوز تجاوز السبعين .

• باسم القوات الجوية العراقية أقدم لكم خالص العزاء .. البقية في
حياتك •

كان الأب قد أبلغ باستشهاد ابنه (عادر) من قبل ، بدأ صلباً متماسكاً ،
طاب أن يسمح ما قام به ابنه ، حدثه كبير ضباط التوجيه السياسي عن البطولة
عامر ، عن لقاءه الأخير به به عند سلم الطائرة قبل اقلاعه ، عن طيرانه الأخير
يوم ٨ أكتوبر ، توجهه الى الطاسة ، تدميره لأهداف العدو ، أصابته
الأب بعد ثلاث ايام في مصر على مشرق ق مشرق مبعث عبر مبعث ببيت ببيت
أثناء العودة ثم العثور على جثمانه ودفنه في مصر ، عند انتهاء اللقاء • قال
الأب بعد صمت •

• لي رغبة واحدة ..

وعكست ملاحح كبير ضباط التوجيه السياسي ، اصفاء عميقا ..
• أن يستمر أبني عامر مدفوناً في التراب العربي بمصر .. الى جانب
أخوانه المصريين •

ويبقى عامر في مقابر الاسماعيلية ، الشهيد العراقي الوحيد المدفون في
مقابر شهداء حرب أكتوبر ، يبقى رمزاً .. ومعنى •
في الجولان ، تصدر الأوامر بعودة القوات المسلحة العراقية بعد أن أدت
واجبها ، ويجمع قادة التشكيلات جميع الجنود والضباط ، وفي صمت الغروب
الجولاني الذي يقترب برهبة مصحوباً بضوء يميل لونه الى أحمرار •

أدى المقاتلون العراقيون التحية لشهداءهم ، حيث يرقد حتى الآن في
قبور الشهداء بمنطنة السيدة زينب بدمشق أربعة وسبعون شهيداً عراقياً
بخلاف المقابر السورية الأخرى التي دفن فيها عشرات الشهداء العراقيين ،
بينما غابت أخبار ستة وسبعين مقاتلاً اعتبروا مفقودين حتى الآن •

ثم أدى المقاتلون العراقيين التحية للأرض التي حاربوا عليها ، التحية
لهذا الجزء من الوطن العربي •

ثم قرأوا الفاتحة على أرواح الشهداء •
وتردد صوت القادة :
• نعكس سلاح ..

ودوى النفير النحاسي ، ينبؤني رجوع وصحيان ، التحية الاخيرة لزملاء
السلاح الذين سيظلون باقين هنا الى الابد ، وقفوا انتباه .. وفي الغروب ،
• اح القادة صيحات طويلة ، ممدودة ، عميقة :
• • الى الامام • • تقدم • •



صادر للمؤلف

- ١ - أوراق شاب عاص منذ ألف عام
مجموعة قصصية القاهرة ١٩٦٩
- ٢ - أرض - أرض
مجموعة قصصية القاهرة ١٩٧٢
- ٣ - المصريون والحرب من صلعة يونيو الى يقظة أكتوبر
دراسة ومشاهدات القاهرة ١٩٧٤
- طبعة أولى رواية دمشق ١٩٧٤
- ٤ - الزينى بركات
طبعة ثانية القاهرة ١٩٧٥
- ٥ - الزويل
قصص بغداد ١٩٧٥
- تحت الطبع
- ١ - وقائع حارة الزعفرانى
رواية طويلة
- ٢ - الحصار من ثلاث جهات
مجموعة قصصية
- ٣ - حكايات الفريديم
مجموعة قصصية

الناشر : مكتبة مدبولي ٦ ميدان طلعت حرب
القاهرة - تليفون ٩٧٥٤٢١

رقم الإبداع بدار الكتب ١٩٧٥/٥٦١٩



« حراس البوابة الشرقية »

ايدانا ببداية شكل جديد من الادب . ادب الحرب ،
يصحبنا جمال الفيطناني الاديب المعروف والمحرم العسكري
لجريدة الاخبار . في رحلة على اكثر من مستوى مع الجيش
العراقي . رحلة في شمال العراق بجماله الاسطوري . وما دار فيه
من معارك شهدها المؤلف خلال قيام الجيش العراقي بتصفية الجيب
الكردي المتمرد . ورحلة عبر الزمان مع تاريخ المشكلة الكردية
وتطوراتها .

رحلة عبر المسافة الطويلة الممتدة من العراق حتى الجولان ،
والتي قطعها الوحدات العراقية خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ثم
استعراض كامل لحقيقة الدور الذي قام به الجيش العراقي على
الجبهة السورية . ودوره في وقف الهجوم الاسرائيلي المضاد ،
وانقاذ دمشق .

بحث دؤوب . بعين اديب نفاذة . ترصد حركة الانسان
العربي في صراعه ضد الصهيونية . والاستعمار . ورؤية فنية فريدة
لعالم الحرب . والسماة الخاصة للحروب الوطنية . والتحررية .